خلاصات معرفية

اليهودية - الغنوصية - الباطنية

محمد سلامة

بسم الله الرحمن الرحيم
وبه نستعين

كي نفهم الحاضر، علينا أولا أن نفهم الماضي.

***

هذا الكتاب قد يصدمك ببعض ما فيه من معلومات تاريخية ودينية..
وسيدرك القارئ الفطن أنه كتاب يوضح حقيقة كثير من المفاهيم الملتبسة والمغلوطة، دون أن يدخل مع أصحابها في جدال عقيم.. بل بترك المعلومات والحقائق "تتحدث عن نفسها".

وقد تجد أسلوب الكتاب المكثف والسريع مختلفا عما تعودت على رؤيته في كثير من الكتب العربية (التي يظن مؤلفوها أن الكتب لا تكون "عميقة" إلا لو أصابت القارئ بالملل!)
إلا أن هذا هو أسلوب العصر الحديث، والذي تأخرنا كثيرا عن مواكبته.

***

وأرجو من الله أن تكون هذه الخلاصات المعرفية مثيرة للذهن، ومنيرة للعقل، وإضافة للثقافة.

محمد سلامة
SalamaCast@yahoo.com

فهرس

- عن اليهودية:

- عن الغنوصية:

- عن الباطنية:

- خاتمة

اليهودية

التوراة

قبل أن يفتح المسلم التوراة ليقرأ فيها لأول مرة يجب أن يكون على علم بإجابة عدة أسئلة أساسية:
- ما نوع العلاقة بين النص الحالي والنص الأصلي؟
- أي الترجمات أفضل؟
- كيف أفهم النص بصورة صحيحة، دون أن تدفعني الحماسة الزائدة إلى قطع الجمل عن سياقها، ودون أن يعميني التعصب عن التفكير الهادئ والمتزن؟
وقبل أن يتعمق أكثر في قراءة النص، عليه أن يكون مسلحا بعقيدة إسلامية سليمة، وباطلاع واسع على القرآن والحديث وقصص الأنبياء.

لكن للأسف، كثير من المتعاملين مع نص التوراة الحالية يسلكون طرقا خاطئة.
البعض يقلد طريقة العلمانيين، فيتأثر أكثر من اللازم بنظريات الأكاديميين الغربيين عن التوراة.. خصوصا عندما يشككون في المعجزات الواردة في النص، أو عندما يزعمون أن التوحيد عند اليهود وغيرهم هو نتاج "تطور تدريجي" من الوثنية وتعدد الآلهة، أو مسروق من إخناتون المصري. في حين أن التوحيد معروف في الأرض بين البشر منذ أول يوم هبط فيه آدم من الجنة، ومعروف لبني إسرائيل من قبل أن يعيشوا بمصر.

والبعض تسيطر عليه العنصرية والنزعة القومية، ويقرأ النص بعاطفته لا بعقله.. لدرجة أنه يتعاطف أحيانا مع شخصيات وثنية، في صراعها ضد بعض أنبياء بني إسرائيل، لمجرد أن الوثنيين ينتمون لقوميته الحالية!

والبعض يقرأ النص بوجهة نظر ليبرالية.. فتشمئز نفسه من بعض الأفعال الموصوفة في النص، لمجرد أنها غير متوافقة مع الأعراف الليبرالية الحديثة ومواثيق حقوق الإنسان. وكأنه من المفترض أن تتوافق التشريعات التي أنزلها الله على بني إسرائيل مع الأفكار الليبرالية الفرنسية والأمريكية والقانون الدولي الحديث!

وبالإضافة لكل ما سبق، فهناك أيضا فئة المتعاملين مع النص بسطحية.. الذين لا يريدون من القراءة سوى اقتناص جملة من هنا وجملة من هناك لينتصروا بها في "مناظرات" الفيسبوك ومنتديات الإنترنت.

***

قد تصاب بالحيرة عندما تسمع كلمة "توراة"، وتتساءل: ما المقصود بها؟ وأي توراة هي المقصودة بالضبط؟
التوراة في الأصل هي كتاب وحي إلهي، نزل على موسى بن عمران كما نزل القرآن على محمد ..
لا نعرف حجمه ولا عدد آياته، ولا نستطيع تحديد محتواه النصي بصورة كاملة.
والسبب هو ما أصابه من تحريف ونسيان مع مرور الزمن.

وعلى عكس القرآن، فإن التوراة – وكل الكتب السماوية الأخرى – نزلت مخصصة لقوم محددين، وبشرائع تناسبهم.. أما القرآن فنزل لجميع الأمم والأقوام.
وعلى عكس القرآن، لم يتعهد الله بحفظ الكتب السماوية الأخرى من التحريف والضياع، ولم يكن مطلوبا منها أن تستمر لنهاية الزمان، ولا أن تنتشر بين الأمم الأخرى.
(ورد عن الرسول في صحيح البخاري أنه قال: "كان النبي يُبعث إلى قومه خاصة، وبُعثت إلى الناس كافة")

وقد انتهى زمن التوراة وزمن الإنجيل، وأصبح القرآن ناسخا لهما ومهيمنا عليهما.. حتى أن عيسى عليه السلام عندما سينزل من السماء، قرب نهاية الزمان، لن يحكم بين الناس بالإنجيل الأصلي، بل بالشريعة المحمدية.

***

لم يكن الوحي الذي نزل لبني إسرائيل مقتصرا على موسى، بل استمر فيما بعد ينزل على أنبياء بني إسرائيل الآخرين، كيوشع وداود وسليمان وزكريا ويحيى، وغيرهم كثير.

أما الكتاب المسمى حاليا بـ "التوراة" فهو مجموعة من الكتب التاريخية والتشريعية والأدبية، تم ضمها إلى بعضها البعض، وتسمى "أسفارا".
وخلال قراءتك فيها ستجد من وقت لآخر جملة أو فقرة يغلب على الظن أنها باقية من النص التوراتي الأصلي.. وستجد أيضا الكثير من النصوص التي ستجزم أنها نتاج الخيال الخصب للمؤلفين اليهود عبر القرون.
(ويبدو أن موهبة يهود اليوم في تأليف القصص الدرامية، والتي نراها واضحة من خلال شهرتهم في هوليوود ككتاب سيناريو، لم تبرز من فراغ.. بل هي قدرة ورثوها عن المؤلفين القدماء للتوراة والمدراش والتلمود!)

***

تنقسم التوراة الحالية لثلاثة أقسام:
- الأسفار الخمسة. وينسبها اليهود لموسى عليه السلام. وهذا القسم بمفرده يسمى "التوراة" أيضا. وهو أهم الأقسام الثلاثة.
- أسفار الأنبياء. وفيها مواعظ وأقوال منسوبة لبعض الأنبياء الذين جاؤوا بعد موسى.
- أسفار الكتابات. وفيها كتابات تاريخية وأدبية وحكم وأمثال.
ويختصر اليهود أسماء هذه الأقسام بأخذ أول حرف عبري من كل اسم: توراه + نبيئيم + كتوبيم = "ت ، ن ، ك"
ويقرؤونها: تاناخ.
(حسب القواعد اللغوية فإن حرف الكاف في هذه الحالة ينطق خاء)

ويشترك اليهود والنصارى في الإيمان بقدسية هذه الأسفار.. إلا أن النصارى أضافوا لها أسفار الأناجيل وكتابات بولس وآخرين، بحيث صار التاناخ هو "عهد قديم" بين الرب وشعب بني إسرائيل، وأصبحت الأناجيل وملحقاتها هي "عهد جديد" بين الرب وشعوب العالم.
ويؤمن المسلمون أن رسالة المسيح كانت مقتصرة على بني إسرائيل فقط، أما المسيحيون فيقولون أنه كان الرب الذي تجسد من أجل جميع الأمم والشعوب.
(على الرغم من أنهم ينسبون له في الأناجيل أنه قال: ما بُعثت إلا لخراف بيت إسرائيل الضالة)

***

أسفار التوراة الخمسة الأولى هي:
- التكوين، أي خلق العالم. وفيه قصة آدم ونوح وإبراهيم ويعقوب، من وجهة نظر مؤلفي التوراة.. وينتهي بموت يوسف.
- الخروج، أي خروج بني إسرائيل من مصر مع موسى.
- اللاويّون، أي الكهنة الأحبار.
- العدد، أي إحصاء بني إسرائيل.
- التثنية، أي تثنية الشريعة. وينتهي بموت موسى وخلافة يوشع له.
(وقد ورد في البخاري ومسلم: كانت بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء، كلما هلك نبي خلَفَه نبي)

***

عند اختيارك ترجمة مناسبة لتقرأ منها نص التوراة، لا تبدأ بالترجمة السائدة.

فتلك الترجمة – المسماة ترجمة فان دايك – لا تتميز بأسلوب عربي قوي وسلس وواضح، بل هي أقرب للترجمة الحرفية التي تضع كلمة مكان كلمة.. وهي معتمدة في كثير من الكنائس ومتوفرة بكثرة على شبكة الإنترنت.
فالتوراة كتاب طويل، يصل للألف صفحة، وهذه الترجمة لن تشجعك على الاستمرار طويلا في القراءة.
وسأعطيك هنا مثالا لترى مستواها بنفسك:
سِفر: الأمثال، الإصحاح: 11، العدد: 21 و 22
"يد ليد لا يتبرر الشرير. أما نسل الصدّيقين فينجو.
خزامة ذهب في فنطيسة خنزيرة المرأة الجميلة العديمة العقل"

قارن هذا بنفس النص في الترجمة اليسوعية:
"لا ريب أن الشرير لا يُزكّى، وأن ذرية الأبرار تنجو.
المرأة الجميلة العارية من الفهم .. حلقة من ذهب في أنف خنزير"

وعند بحثك عن ترجمة جيدة، ابتعد عن الطبعات التي لا تضع هوامش تفسيرية.
فنص التوراة يحتاج لكثير من شروح معاني المفردات، ولتوضيح المقابل الحديث لأسماء الأماكن الجغرافية القديمة.
بالإضافة إلى أن الترجمة هي عملية اجتهادية، ويجب على مترجم النص الديني أن يضع في الهامش أسباب تفضيله لمعنى على معنى آخر.
ويجب عليه أيضا أن يكون أمينا، فيخبر القارئ بالاختلافات الموجودة بين المخطوطات.
وإذا اضطر للتعديل على النص العبري كي تصبح الجملة مفهومة، وهو ما يحدث كثيرا، عليه أن يوضح هذا في الهامش، وأن يخبر القارئ بالأسباب اللغوية التي دفعته للتعديل.
(الكثير من الإشكاليات اللغوية الموجودة في النص يكون سببها هو الناسخ اليهودي القديم، حيث كانت عينه تقفز أحيانا من سطر لسطر فيضع كلمة مكان كلمة.. وأحيانا تختلط عليه الحروف العبرية المتشابهة، كحرف الهاء والحاء، والواو والنون)

وعندما دخلت أخطاء النساخ على النص العبري كان من الصعب تصحيحها، لأن التوراة تعتمد على المخطوطات المكتوبة.. وصعب جدا حفظ نصوصها في الذاكرة وتلاوتها دون النظر في النص المكتوب.
فعلى سبيل المثال، هذا أحد النصوص التي تتحدث عن ملك اسمه أخزيا، ويتضح من أسلوبه السردي أنه غير مناسب للحفظ السماعي:
"انطلق مع يورام بن اخآب لمقاتلة حزائيل ملك أرام في راموت جلعاد، فضرب الأراميون يورام.
فرجع يورام الملك ليبرأ في يزرعيل من الجروح التي جرحه بها الأراميون في راموت عند مقاتلته حزائيل ملك أرام.
ونزل أخزيا بن يهورام ملك يهوذا ليرى يورام بن اخآب في يزرعيل لأنه كان مريضا"

ويختلف هذا الأسلوب كثيرا عن القرآن الذي قال الله عنه: "ولقد يسرنا القرآن للذكر" فلا تتوقع أن تجد الأسلوب التوراتي مشابها للأسلوب القرآني. بل إن أردنا تشبيه التوراة الحالية بشيء - خصوصا الأجزاء التاريخية الموجودة فيها - فأظن أنها قريبة من أسلوب (سيرة ابن هشام)..
أي قصص ومواقف، وأسماء رؤساء قبائل وأفعالهم، وتأريخ للمعارك والتحالفات.

لكن بالإضافة لأسلوب السرد التاريخي في التوراة الحالية يوجد أسلوب آخر، ستراه بكثرة بين صفحاتها، وهو الأسلوب الشعري والرمزي.

فستجد فقرات طويلة من النثر الأدبي أو الشعر المنثور.. واستخدام مكثف للاستعارة والتشبيه والكناية.
وهذه المواضع تسبب مشاكل لبعض القراء، ممن يأخذون كل جملة على محملها الظاهري الحرفي، دون الانتباه للسياق المجازي والأسلوب الأدبي.
***
أفضل ترجمة بها هوامش تفسيرية ولغوية دقيقة هي ترجمة إنجليزية، معروفة اختصارا باسم ترجمة الـ NET ، أي
New English Translation
واعتمد مؤلفوها على أحدث الدراسات المتوفرة.
أما في اللغة العربية فأنصحك بالترجمة اليسوعية وهوامشها.
***
بعد اختيار ترجمة جيدة ستواجهك مشكلة اختيار كتاب تفسير مناسب.
فأغلب تفاسير التوراة المنتشرة والمتوفرة هي تفاسير "إيمانية" مسيحية، أو تفاسير أكاديمية صادرة عن ملحدين.
أما التفاسير اليهودية فإما قديمة ومليئة بالخرافات، أو حديثة لكن متوفرة بالعبرية فقط لا بالإنجليزية، أو معتمدة على التفسير الرمزي للحاخامات، دون أدنى التزام بالمعنى الأساسي للنص العبري ولا بسياقه.
والتفاسير المسيحية فيها مشكلة مشابهة. فتعامل النص على أنه "بشارة بالمسيح"، وتفترض أنه متوافق 100% مع الأناجيل.
وبالتالي يتم تحميل النص معانٍ لم يقصدها المؤلفون إطلاقا.

لكن أفضل الموجود هو تفسير بروتستانتي ألماني قديم، مترجم إلى الإنجليزية، وهو تفسير
Keil and Delitzsch
ويشار له اختصارا بـ K&D
***
لم تعد دراسة التوراة مكلفة ماليا كما كانت في الماضي. فالمراجع والمعاجم والترجمات متوفرة إلكترونيا، وبعضها مجاني إن بحثت في المكان الصحيح.
وبالإضافة للكتب قد تحتاج برنامجا إلكترونيا، ليساعدك في البحث، ويربط النصوص بترجماتها وتفاسيرها.. كما يفعل برنامج Davar
(واسمه يعني: "الكلمة"، باللغة العبرية)
وستجد فيه عدة نسخ من النص العبري للتوراة، والنص اليوناني للأناجيل، وترجمات إنجليزية متعددة لكل منهما، مع عدد كبير من الملحقات والتفاسير والقواميس والخرائط.
***
كلمة أخيرة:
في زمن انتشر فيه بين المسلمين الجهل بتفاصيل العقيدة الإسلامية، وندرت فيه قراءة أحاديث البخاري ومسلم وكتب التفسير المعتمدة، تصبح قراءة التوراة خطرا على العقيدة، وسببا للتخبط والتشتت..
وأحيانا تختلط الأمور على القارئ، فلا يعد قادرا على التمييز بين المفاهيم الإسلامية والمفاهيم التوراتية.
فدراسة الديانات الأخرى هي حقل ألغام.. لا حاجة لدخوله إلا مضطرا.

لهذا عليك الفصل بين ما تقرأه في التوراة وبين ما تعرفه من الإسلام.
فصفات الله في التوراة الحالية مختلفة عن صفاته في القرآن.. وقصة الخلق هنا مختلفة عن قصة الخلق هناك.. والسامري الذي صنع العجل لبني إسرائيل لن تجده في التوراة، بل ستجد المؤلفين ألصقوا التهمة بهارون عليه السلام، وهكذا.

ولهذا فطريقة التعامل المثلى مع التوراة وقصص اليهود (أي الإسرائيليات) هي:
- النصوص التي تتعارض مع ما في القرآن والسنة: نعرف أنها كذب.
- النصوص التي توافق القرآن والسنة موافقة تامة: نعرف أنها صدق.
- النصوص الأخرى التي لم يرد عندنا شيء يخالفها أو يوافقها: نتوقف في الحكم عليها.
فلا نصفها بأنها كذب لمجرد أنها غريبة على أسماعنا أو غير موافقة لهوانا.. ولا نصفها بأنها صدق لمجرد أنها موافقة لهوانا.

فأحد الأخطاء الشائعة التي يقع فيها المبتدئون هي أن يسارعوا بالحكم على بعض نصوص التوراة، فيقولون مثلا: "هذه القصة بالتأكيد خرافية"، أو "مستحيل أن هذا التشريع أنزله الله فعلا على اليهود، لأنه مخالف لتشريعاتنا الإسلامية"
ويغيب عنهم أن بني إسرائيل كانت تحدث في زمنهم العجائب والغرائب.
(ورد عن الرسول في السلسلة الصحيحة للألباني: حدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج، فإنه كانت فيهم الأعاجيب)
ويغيب عنهم أن التشريع الإلهي قد يختلف من رسول لرسول. فالمشترك بين الرسل هو العقيدة، أما أحكام الشريعة الموسوية فتختلف قليلا أو كثيرا عن الشريعة العيسوية أو المحمدية.
(فقد قال عيسى عليه السلام لقومه: "ولأُحِل لكم بعض الذي حُرِّم عليكم".
وورد في صحيح مسلم عن الرسول : لم تحل الغنائم لأحد من قبلنا، ذلك بأن الله تبارك وتعالى رأى ضعفنا وعجزنا، فطيبها لنا)

أما التحريف الذي تعرضت له التوراة الأصلية، والذي أدى لتحويلها إلى التوراة الحالية، فهو عبارة عن ثلاثة أنواع:
تحريف حذف، وتحريف إضافة، وتحريف تبديل وتغيير.
فهناك نصوص ضاعت أو تم إخفاؤها..
("تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيرا")
وهناك نصوص أضيفت..
("ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله")
وهناك نصوص تم تعديلها وتغييرها..
("يحرفون الكلم عن مواضعه ونسوا حظا مما ذُكّروا به")
("وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون")

ودراسة مواضع التحريف، ودوافع المؤلفين وأهدافهم من ورائه، هي دراسة شيقة.. لكن – كما قلت من قبل – محفوفة بالمخاطر.

قصة الخلق

أول جملة ستقرأها في التوراة هي: "في البدء خلق الله السماوات والأرض"
وهي ترجمة عربية للجملة العبرية التي تقول: "بريشيت برأ إلوهيم ها شمايم وها أرتس"
(سِفر: التكوين، الإصحاح:1، عدد:1)
"In the beginning God created the heaven and the earth"
Genesis, Chapter:1, Verse:1

الباء: حرف جر.
ريشيت: أي "البداية".
وهي ككلمة "رأس" في اللغة العربية، والتي من معانيها: مقدمة الشيء وأوله. ولهذا يوصف أول يوم في السنة بأنه "رأس السنة".
برأ: خلق.
إلوهيم: أي "الإله".
وهي صيغة جمع، تنتهي بعلامة الجمع في العبرية "... ـيم"، للتعظيم والتفخيم. كما يقول الله في القرآن: "إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون".
ها شمايم: السماوات.
والـ "ها" هي أداة التعريف في العبرية، ويقابلها "الـ..." في اللغة العربية.
وكلمة "شمايم" جمع.
ها أرتس: الأرض.
والكلمة مألوفة عند العرب اليوم، لأنها اسم صحيفة إسرائيلية شهيرة Haaretz

***

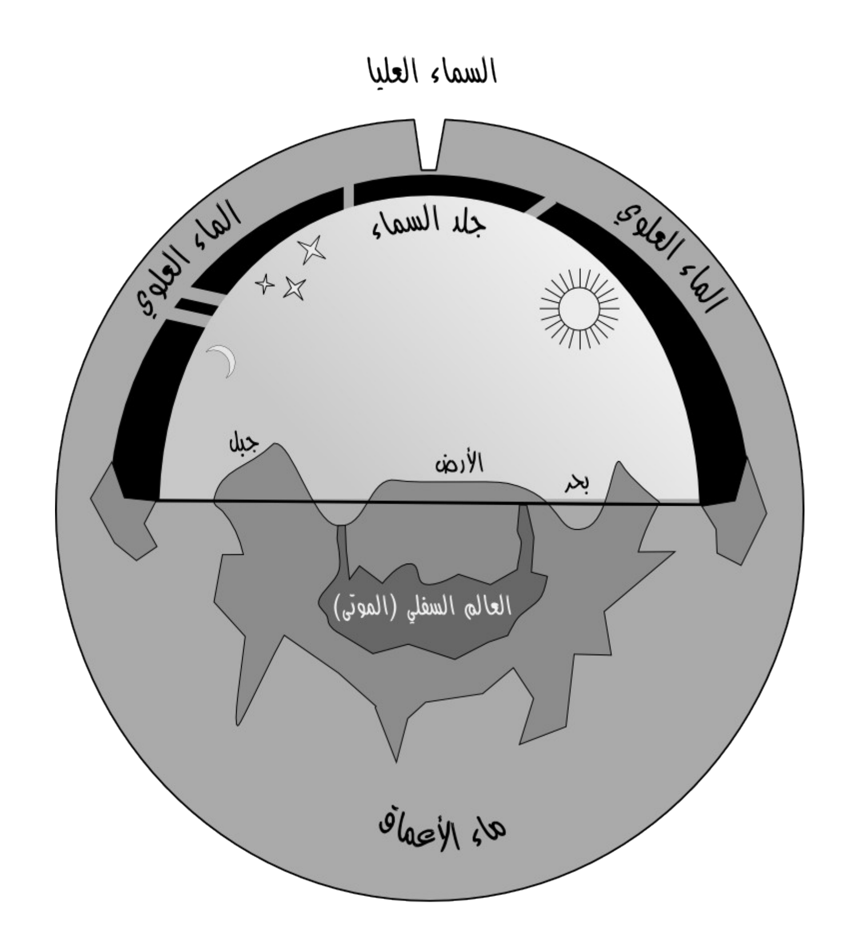
"وكانت الأرض خربة وخالية. وعلى وجه الغمر ظُلمة. وروح الله يرف على وجه المياه"
"وقال الله: ليكن نور. فكان نور. ورأى الله أن النور حَسَن. وفصل الله بين النور والظلمة. ودعا الله النور نهارا، والظلمة دعاها ليلا. وكان مساء، وكان صباح. يوما واحدا"
هذه هي بداية نظرية خلق الكون حسب الموجود في التوراة الحالية.
أن الأرض كانت مغمورة بالمياه العميقة، والظلام يغلف الكون كله، و"روح الله" (أو كما تقول بعض الترجمات الحرفية: "رياح الله") كانت تحوم على سطح الماء.

"وقال الله: ليكن جَلَد في وسط المياه، وليكن فاصلا بين مياه ومياه.
فعمل الله الجلد، وفصل بين المياه التي تحت الجلد والمياه التي فوق الجلد. وكان كذلك.
ودعا الله الجلد سماء.
وكان مساء، وكان صباح. يوما ثانيا"
أي أن السماء – حسب ما يقول النص – ظهرت من داخل محيط المياه الأرضي العميق.
فاصل سميك ومتين تكوّن في عمق الماء، ثم ارتفع لأعلى، آخذا معه نصف المياه فوق ظهره، ومكونا تحته الفراغ الهوائي والفضائي.

***

اعتقد مؤلفو التوراة أن الكون عبارة عن:
- أرض مسطحة، تحيط بها مياه المحيطات، وتحت الأرض عالم سفلي توجد فيه أرواح الموتى، وتحته ماء عميق.
- قبة نصف كروية، هي السماء. وباطن هذه القبة هو الفضاء الهوائي الذي توجد فيه الشمس والقمر والنجوم الكواكب والطيور. أما فوق القبة فتوجد بقية المحيط المائي القديم، والذي ارتفع مع السماء عندما انفصلت عن الأرض.
واعتقدوا أيضا أن هذا الماء السماوي هو الماء الذي اخترق سقف القبة عبر نوافذ صغيرة وهبط على الأرض بأمر إلهي، أيام طوفان نوح.

(وورد في مزمور 148: 4 "سبحيه يا سماء السماوات، ويا أيتها المياه التي فوق السماوات")



شكل الكون في التوراة

ثم يستمر سفر التكوين في ذكر قصة الخلق التوراتية.
ففي اليوم الثالث من أيام الخلق ظهرت اليابسة، واجتمعت المحيطات، وظهرت الأعشاب والأشجار.
وفي اليوم الرابع ظهرت للوجود "أنوار في جلد السماء".. الشمس والقمر والنجوم.
وفي اليوم الخامس ظهرت الحيوانات البحرية، وظهرت الطيور التي تطير "على وجه جلد السماء".
وفي اليوم السادس ظهرت الحيوانات البرية.. وقال الله: "نعمل الإنسان على صورتنا كشبهنا، فيتسلطون على سمك البحر وعلى طير السماء وعلى البهائم وعلى كل الأرض"
"فخلق الله الإنسان على صورته. على صورة الله خلقه. ذكرا وأنثى خلقهم"
وجعل النباتات والثمار طعاما للإنسان.. والأعشاب طعاما للحيوان.
أي أعطى البشر السيادة على الحيوانات البحرية والبرية والطيور، لكن لم يسمح لهم بأكل هذه الكائنات.
واستمر هذا الحظر حتى زمن طوفان نوح، عندما ذكر النص السماح بأكل الحيوانات (في

الإصحاح 9).
أي أنه – حسب ما تقول التوراة – كان الإنسان نباتيا في البداية.
وبالتالي كانت الحيوانات مصدرا للصوف واللبن، وأداة لحمل الأثقال وللتنقل ولحرث الأرض، لا مصدرا للحم.

***

وخلق الرب آدم من تراب الأرض، و"نفخ في أنفه نسمة حياة" فصار آدم نفسا حية.
"وفرغ الله في اليوم السابع من عمله الذي عمل، فاستراح في اليوم السابع من جميع عمله الذي عمل. وبارك الله اليوم السابع وقدسه"
وقد رد الله فيما بعد – في القرآن – على هذا التحريف، فقال:
"ولقد خلقنا السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام وما مسنا من لُغوب"، أي تعب.
وقال أن ما حدث بعد انتهاء أيام الخلق الستة هو أنه "استوى على العرش"، لا استراح.

***

"وغرس الرب الإله جنة في عدن شرقًا"، ووضع فيها آدم.
لا يؤمن مؤلفو التوراة أن الجنة كانت في السماء، بل هي عندهم "جنة أرضية".
وقد تسرب هذا الرأي لبعض المسلمين، فظهر خلاف شهير بين العلماء في المسألة، مع أن ظاهر النصوص الإسلامية هو أن الجنة كانت هي الجنة السماوية الأخروية المعهودة.. خرجنا منها ثم سنعود إليها إن شاء الله.
(ورد في حديث الشفاعة يوم القيامة، أن الأنبياء والرسل سيقولون للناس: "نفسي نفسي"، وسيخافون من التشفع للناس، إلى أن يذهب الناس لمحمد . وجاء في هذا الحديث، في صحيح مسلم، أن الناس سيأتون آدم عليه السلام "فيقولون: يا أبانا، استفتح لنا الجنة. فيقول: وهل أخرجكم من الجنة إلا خطيئة أبيكم آدم؟ لست بصاحب ذلك")

***

ثم تستمر الرواية التوراتية قائلة أن الرب أنبت في جنة عدن هذه أشجارا شهية للنظر وجيد للأكل، ومنها "شجرة الحياة، في وسط الجنة" و"شجرة معرفة الخير والشر".
وهاتان الشجرتان هما محور قصة آدم وحواء في التوراة.

***

و"كان نهر يخرج من عدن ليسقي الجنة، ومن هناك ينقسم فيصير أربعة رؤوس:
اسم الواحد فيشون، وهو المحيط بجميع أرض الحويلة حيث الذهب. وذهب تلك الأرض جيد"
"واسم النهر الثاني جيحون، وهو المحيط بجميع أرض كوش"
"واسم النهر الثالث حِدّاقِل (دجلة)، وهو الجاري شرقي أشور. والنهر الرابع الفرات"

في هذا النص يظهر إصرار مؤلفي التوراة على تثبيت فكرة أن الجنة كانت في الأرض، لا في السماء.. فوضعوا الكثير من التفاصيل الجغرافية الغامضة.
دجلة والفرات معروفان، وينبعان من الشمال ثم يصبان في الخليج جنوبا. أما فيشون وجيحون فلا إجماع على تحديد مكانهما ولا المقصود منهما.

ويظهر لي أن النص انحرف كثيرا عن صورته التي كان عليها في الوحي الإلهي لموسى.. وأن المقصود في الأصل كان أنهار الجنة السماوية، لا أنهارا أرضية.
فمن حديث الإسراء والمعراج، في صحيح البخاري، نعرف أن بالجنة أربعة أنهار: نهران ظاهران ونهران باطنان.
وأن الرسول رأى شجرة سدرة المنتهى، وأن "في أصلها أربعة أنهار. نهران باطنان، ونهران ظاهران"، فسأل جبريل فقال: **"أما الباطنان: ففي الجنة، وأما الظاهران: النيل والفرات"**
(أي أن مصدر مياه نهري النيل والفرات هو مطر جاء أصلا من السماء، من عند سدرة

المنتهى)

قصة آدم

"وأخذ الرب الإله آدم ووضعه في جنة عدن، ليفلحها ويحرسها"
وأوصى آدم قائلا: **"من جميع شجر الجنة تأكل أكلا، أما شجرة معرفة الخير والشر فلا تأكل منها، لأنك يوم تأكل منها موتا تموت"**
(تكوين 2: 15-17)
مع هذا النص التوراتي – وما بعده – ستبدأ سلسلة من الاختلافات بين قصة آدم في القرآن وقصته في التوراة الحالية.
ستلاحظ من البداية أن النص يجعل وجود آدم في الجنة "وظيفة"، هي العمل والحراسة.. ولن تجد هذا المعنى في النصوص الإسلامية.
وستلاحظ أن النص يصف الشجرة المحرمة بأنها شجرة معرفة.. شجرة العقل الذي يؤدي للتمييز بين الخير والشر.
فمؤلفو التوراة يقولون للقارئ أن آدم كان "ساذجا"، كطفل...
وأن معرفة الصواب والخطأ كانت ميزة تحاول المخلوقات العلوية أن تحتفظ بها لنفسها فقط، وأن تحجبها عن الإنسان، كما سيظهر في النص فيما بعد.. (تكوين 3: 22).
وستلاحظ أيضا أن شجرة الحياة، (أي الحياة الأبدية الخالدة)، لم تكن محرمة. بل لم يمانع الرب أن يكون آدم خالدا، ما دام سيظل في حالة الطفولة العقلية، وواقعا تحت سيطرة المخلوقات العلوية!
أما عندما "خرج آدم عن السيطرة"، ونال "المعرفة"، تحول لـ "منافس" للرب، ولمخلوق صاحب طموح وتطلعات.. فكان يجب إبعاده عن المنافسة، وطرده من الجنة!

كل هذا ستجده في النصوص القادمة. وواضح أن مغزى القصة التوراتية يختلف تماما عن مغزى القصة القرآنية.
فكأن مؤلفي التوراة كانوا يكنون في صدورهم حقدا ما تجاه الإله، فجعلوا النص ينضح بكراهية دفينة له، ووضعوا حبكة القصة وحواراتها كي تصوره وكأنه "إله شرير".
(وهذه العقيدة ظهرت أيضا عند الطوائف الغنوصية الباطنية)

***

"أوقع الرب الإله سباتا على آدم فنام، فأخذ واحدة من أضلاعه وملأ مكانها لحما.
وبنى الرب الإله الضلع التي أخذها من آدم امرأة، وأحضرها إلى آدم.
فقال آدم: هذه الآن عظم من عظامي ولحم من لحمي. هذه تُدعى امرأة، لأنها من امرءٍ أُخذت"
"وكانا كلاهما عريانين، آدم وامرأته، وهما لا يخجلان"

هذه الجملة الأخيرة محرفة. فآدم وحواء في الحقيقة لم يكونا عريانين في الجنة.. بل على العكس، أحد أهداف إبليس من إيقاعهما في المعصية هو نزع ما كان عليهما من ملابس، وكشف عورتهما.
ففي القرآن:
"فوسوس لهما الشيطان ليبدي لهما ما ووري عنهما من سوآتهما"
"فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوآتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة"
"يا بني آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوآتهما"
"فأكلا منها فبدت لهما سوآتهما"
"إن هذا عدو لك ولزوجك فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى. إن لك ألا تجوع فيها ولا تعرى"

أما مؤلفو التوراة فأرادوا جعل آدم وحواء عرايا، كي تستمر "الثيمة" السابقة التي تصف

آدم وحواء بالسذاجة الطفولية، وأن الرب كان "يحرمهما من المعرفة"!
فالطفل قد لا يخجل من العري، لكن الإنسان العاقل البالغ يحب أن يكون مكسوا ومستورا.
***
"وكانت الحية أحيل جميع حيوانات البرية التي عملها الرب الإله. فقالت للمرأة: أحقا قال الله لا تأكلا من كل شجر الجنة؟
فقالت المرأة للحية: من ثمر شجر الجنة نأكل، وأما ثمر الشجرة التي في وسط الجنة فقال الله: لا تأكلا منه ولا تمساه لئلا تموتا"

ستلاحظ في هذا النص أن الشيطان غير مذكور! بل أن مؤلفي القصة قد أعطوا دور الشيطان لشخصية أخرى، هي الحية.
وقاموا بتأكيد هذه النقطة، فوصفوا الشخصية بأنها أحد "حيوانات البرية".. كي لا يظن القارئ أن الأكل من الشجرة كان بسبب إغواء من "شيطان" شرير.
وستلاحظ أيضا أن النص لا يشير لأي عداوة مسبقة بين "الحية" وآدم.. مما يضع القصة التوراتية في سياق مختلف كثيرا عن القصة القرآنية.
ففي القرآن نرى أن الشيطان كان يضمر شرا لآدم، ويريد إيقاعه في معصية، بسبب ما حدث في السابق من رفضه للسجود لآدم وبالتالي تعرضه للطرد من رحمة الله.
أما في نص التوراة فلا وجود لهذا التمهيد، وبالتالي لا وجود لسبب منطقي يجعل القارئ ينظر لكلام الحية مع حواء على أنه "إغواء".. بل يتم تقديمه للقارئ وكأنه "نصيحة من فاعل خير" كان يريد لآدم وحواء أن ينالا المعرفة!

فيما بعد، اضطر المؤمنون بالنص إلى تأويله.. فاعتبروا أن الحية المذكورة هي رمز للشيطان.
لكن هذا التأويل أوقعهم في مشكلة، حيث قال لهم الملحدون: "طالما أن الحية في القصة مجرد رمز، وأن المعنى الظاهر ليس هو المعنى المقصود، فما الذي يمنع أن تكون باقي شخصيات القصة وأحداثها هي أيضا مجرد رموز؟!.. فقد لا يكون هناك آدم أصلا ولا حواء ولا عملية خلق!.. فعليكم الالتزام بحرفية النص كله أو لا"

وهناك فئة من اليهود حاولوا حل الإشكال، فاقترحوا أن الشيطان كان راكبا على ظهر الحية، حتى وإن لم يكن الشيطان مذكورا في النص.
وقد نقل بعض مفسري القرآن هذا الرأي، فقالوا أن الشيطان كان في فم حية عندما تكلم مع آدم وحواء، (على الرغم من أن القرآن لا يذكر أي وجود للحية في القصة).. وربما ساعد في انتشار هذه الفكرة ما ورد في بعض الأحاديث الصحيحة عن قدرة الجن على التشكل في شكل ثعابين.
***
إن مؤلفي النص التوراتي صاغوه بخبث. فإن قرأه الإنسان بحياد، ودون آراء دينية مسبقة، فسيفهم منه أن الإله كان يحجب المعرفة عن البشر، وأن بطل القصة هو الحية التي "حررتهم من سجن الجهل"، وعرضت نفسها لسخط الرب كنوع من التضحية بالنفس، مقابل أن تنقل البشر من السذاجة إلى النضج العقلي!
فإن كانت هي الشيطان في القصة فإنها أيضا "صديق البشرية".
(وهذه العقيدة تجدها بوضوح في كتب كنيسة الشيطان الأمريكية، أو ما يعرف إعلاميا في صحافة الإثارة بـ "عبدة الشيطان"، التابعة لأنطون لافاي.
وهم مجموعة من الشباب والفتيات، يغلب عليهم الهدوء والانكسار النفسي، لكنهم يصدمون المجتمع بملابسهم السوداء وبحبهم للوشوم ولأنواع معينة من الموسيقى.
طقوسهم الشيطانية ما هي إلا إيقاد لشموع وترديد لأشعار كئيبة.. على العكس من صورتهم في الإعلام التهييجي في فترة الثمانينيات والتسعينيات، والتي صورتهم لعامة

الناس وكأنهم يأكلون الأطفال ويشربون دماء الحيوانات! لكنهم في الحقيقة من الليبراليين، وكثير منهم نباتيون يرفضون ذبح الحيوانات، وتغلب عليهم السذاجة.
ويقولون أن كلمة "الشيطان" في قاموسهم تعني الحرية الليبرالية، أي عدم الالتزام بالشرائع الإلهية، بل التحرر منها ومما يصفونه بأنه أوامر "وحشية" وردت في التوراة، كأمر الرب لبني إسرائيل أن يحاربوا الشعوب الوثنية وأن يقتلوهم، وكأمره لهم بعقاب من يمارس الزنا أو الشذوذ الجنسي. ويقولون أن صديقهم الشيطان قام بتحرير عقولهم، وأفهمهم أن الخير والشر هو ما يقوم البشر بتحديده لا ما يقوم الإله بتحديده.
وهذه الأفكار واضح أنها ليست مقتصرة على طائفة كنيسة الشيطان، بل تكاد تكون الأفكار السائدة في المجتمع الأمريكي والغربي عموما. لكن الفارق هو أن الليبراليين لا يستخدمون كلمة "شيطان"، بل يستخدمون كلمات مثل "حقوق الإنسان" أو "الأخلاق الحديثة")

***

دور "الحية" في القصة التوراتية يشبه دور بروميثيوس في الأساطير الإغريقية.
حيث تقول الأسطورة أنه سرق شعلة نار من كبير الآلهة، وأعطاها هدية للبشر كي يستخدموها في طهي الطعام وفي التدفئة.. فعاقبه كبير الآلهة بأن ربطه في جبل وحكم عليه بعذاب يومي متكرر ومستمر.
ولهذا صارت شعلة بروميثيوس رمزا للحرية والمعرفة عند الليبراليين.

***

نقرأ في النص التوراتي أن الإله حذر آدم من عاقبة الأكل من الشجرة المحرمة، قائلا:
"لا تأكل منها، لأنك يوم تأكل منها موتًا تموت"
وهو تهديد متكرر كثيرا في التوراة. فالمؤلفون يعتبرون أن أكبر عقاب ممكن أن يحل بالإنسان هو أن يموت وتنتهي حياته!
وهذا بسبب النزعة المادية والدنيوية المسيطرة على اليهود. فجعلوا العقاب في النص هو الموت، دون الاهتمام بأن المعاصي تؤدي لغضب الله، ولعذاب أخروي إن لم يتب المرء من الذنب.

أما الحقيقة فإن الله لم يهدد آدم بالموت إن أكل من الشجرة.. بل قال له أن المعصية ستكون ظلما، وستؤدي لشقائه وخروجه من الجنة:
"ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين"
"يا آدم إن هذا عدو لك ولزوجك فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى"

أما التوراة الحالية فقد جعلت العقاب المتوقع لهذه المعصية هو أن آدم وحواء سيموتان في اليوم الذي يأكلان فيه من ثمر الشجرة.
وهنا تدخل الحية إلى المشهد، بصفتها الحيوان الحكيم الذي يعرف "الحقيقة المخفية عن آدم وحواء":
"فقالت الحية للمرأة: لن تموتا! بل الله عالم أنه يوم تأكلان منه تنفتح أعينكما، وتكونان كالله عارفين الخير والشر"
"فرأت المرأة أن الشجرة طيبة للأكل ومتعة للعيون، وأن الشجرة مُنية للتعقل. فأخذت من ثمرها وأكلت، وأعطت أيضا زوجها الذي معها فأكل.
فانفتحت أعينهما فعرفا أنهما عريانان. فخاطا من ورق التين وصنعا لهما منه مآزر"

ما أراد مؤلفو النص أن يوصلوه للقارئ هو أن الحية صدقت!
قالت "لن تموتا"، وفعلا لم تكن الشجرة تؤدي للموت في نفس اليوم كما قال الرب.
وقالت "ستنفتح أعينكما"، وفعلا انفتحت أعينهما وعرفا أن حالة العري غير مناسبة للإنسان، واستطاعا التمييز بين الخير والشر.

وهكذا تم تحويل القصة الأصلية إلى قصة مختلفة تماما. ففي القصة الأصلية الحقيقية أدت المعصية إلى انكشاف العورة بعد أن كانت مستورة.
أما في القصة المحرفة فقد أدت المعصية إلى الخروج من الجهل، والصعود لمرتبة معرفية وعقلانية أعلى، ولاكتساب القدرة على التمييز بين الخطأ والصواب!

***

"وسمعا صوت الرب الإله ماشيا في الجنة، عند هبوب ريح النهار، فاختبأ آدم وامرأته من وجه الرب الإله في وسط شجر الجنة.
فنادى الرب الإله آدم وقال له: أين أنت؟
فقال: سمعت صوتك في الجنة فخشيت، لأني عريان فاختبأت.
فقال: من أعلمك أنك عريان؟! هل أكلت من الشجرة التي أوصيتك أن لا تأكل منها؟"
"وقال الرب الإله: هو ذا الإنسان قد صار كواحد منا، عارفا الخير والشر. والآن لعله يمد يده ويأخذ من شجرة الحياة أيضا ويأكل ويحيا إلى الأبد"
فأخرجه الرب الإله من جنة عدن.

ويقول النص أيضا أن رد فعل الإله على المعصية كان إلقاء عدة لعنات على الشخصيات الثلاث: آدم وحواء والحية.
فقد قال للحية:
"لأنك فعلتِ هذا، ملعونة أنتِ من جميع البهائم ومن جميع وحوش البرية. على بطنك تسعين وترابا تأكلين كل أيام حياتك"
أي أن المؤلفين يحاولون تفسير عدم وجود أرجل للثعابين، فقالوا أنها لهذا السبب تحولت لحيوانات زاحفة.
ولاحظ أن اللعنة غير موجهة للشيطان، فهو غير مذكور في القصة أصلا.

أما حواء فقال لها:
"تكثيرا أكثر أتعاب حبلك، بالوجع تلدين أولادا. وإلى رجلك يكون اشتياقك، وهو يسود عليكِ"
أي أن المؤلفين ينظرون لآلام الولادة ولقوامة الرجل على المرأة وكأنها "عقاب إلهي"، لا اختلافات طبيعية بين الذكور والإناث!
وتلك النظرة نراها اليوم عند كثير من الليبراليين وأتباع الفيمينزم (الحركة النسوية).
(قارن هذا المفهوم التوراتي بما جاء في القرآن:
ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة)

أما آدم فقال له الرب، حسب ما جاء في التوراة الحالية:
"ملعونة الأرض بسببك. بالتعب تأكل منها كل أيام حياتك. وشوكا وحسكا تنبت لك، وتأكل عشب الحقل. بعرق وجهك تأكل خبزا، حتى تعود إلى الأرض التي أُخذت منها. لأنك تراب وإلى تراب تعود"
ثم صنع الرب لآدم وامرأته أقمصة من جلد وألبسهما، ثم طردهما من جنة عدن الأرضية، و"أقام شرقي جنة عدن الكروبيم، ولهيب سيف متقلب لحراسة طريق شجرة الحياة"
والكروبيم في التوراة هم نوع من الملائكة، ومفردها كروب Cherub
واللهب المتقلب هو سيف ناري متحرك، تخيله المؤلفون، ومهمته إخافة آدم ومنعه من العودة لمكان الجنة، كي لا يأكل من شجرة الحياة ويصبح خالدا.

أما في الإسلام فإن الشجرة لم تكن شجرة خلد. بل هي كذبة قالها الشيطان لاستدراج آدم وحواء وإيقاعهما في المعصية.
"فوسوس إليه الشيطان قال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد ومُلك لا يبلى"

"وقال ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا مَلَكين أو تكونا من الخالدين"

***

تأثرت الكنيسة الكاثوليكية كثيرا بقصة آدم التوراتية، وتأثر بها الفن الإيطالي والمخيلة الشعبية للأوروبيين بشكل عام.
فلهذا مثلا تجد أن لوحاتهم يظهر فيها آدم وحواء عرايا، ومعهما ثعبان له وجه إنسان.
(أما بعض التفاسير اليهودية فتقول أن آدم وحواء كانت لهما ملابس من نور، ثم زالت عنهما بعد المعصية.
ورد هذا في الفصل 11 من مدراش Genesis Rabbah.
وهو رأي انتقل لبعض كتب التفسير الإسلامية، والتي زادت عليه احتمال آخر هو أن الملابس ربما كانت من نفس مادة الأظافر، تغطي الجسم كله وتستره كما يفعل فراء الحيوانات، ثم انحسرت المادة عن الجسم بعد المعصية ولم يبق منها إلا ما نراه اليوم على أطراف الأصابع)

***

عندما جعلت الكنيسة اللغة اللاتينية هي اللغة الدينية الرسمية، لا العبرية ولا الآرامية ولا اليونانية، ظهر تشابه لفظي بين كلمة "شر" وكلمة "تفاح" mali
مما أدى لظهور تصور شعبي يقول أن شجرة معرفة الخير والشر المذكورة في النص كانت شجرة تفاح.
ولهذا تجد في اللوحات الكنسية، التي تصور آدم وحواء، أن الثمرة المحرمة هي ثمرة تفاح.
ولهذا أيضا تحول التفاح إلى رمز للمعرفة في الثقافة الغربية، ورمز للإغواء والإغراء.
وقصة نيوتن والتفاحة – كما يعرف المؤرخون – لم تحدث فعلا، ولم تكن سببا في وضعه لمعادلات الجاذبية.. بل هي قصة اخترعها أحد المؤلفين فيما بعد، وانتشرت لبساطتها.
وفيها تم اختيار التفاحة كرمز للعلم والمعرفة.
ولهذا السبب اختارت شركة Apple – المعروفة بإنجازاتها التقنية – أن تكون التفاحة رمزا لها.
(بل ونجدها أيضا تفاحة "مقضومة".. وكأنها إشارة إلى أن الأكل منها أدى إلى المعرفة)

وقد بالغ أحد اليهود جدا في قصة الشجرة، فقال أنها تحوي المعرفة التي أعطت للرب القدرة على الخلق!
ورد هذا النص في كتاب الزوهار، وهو أحد كتب القبالا اليهودية الباطنية:
"كانت الشجرة هي الأداة التي استخدمها الرب لخلق العالم. أما الحية فقد قالت لحواء: إن الرب أكل من ثمار الشجرة ولهذا استطاع خلق العالم.. فكلي أنتِ منها أيضا فتصبحي مثله قادرة على الخلق.. فلهذا السبب حرمها عليكما، إذ كل صانع يكره وجود أقران منافسين له"

Zohar, Bereshith 36a

أبناء آدم

لا توجد آية قرآنية ولا حديث صحيح يخبرانا باسم ابني آدم. أما التوراة فتسمي الأول قايين، والثاني هابيل.
وعند العرب تحول الاسم الأول إلى قابيل، وانتشر بهذه الصيغة.
يقول نص التوراة، في الإصحاح الرابع من سفر التكوين:
"وعرف آدم حواء امرأته، فحبلت، وولدت قايين. وقالت: اقتنيت رجلا من عند الرب"
كلمة "عرف" في التوراة هي كناية عن المعاشرة الزوجية. والنص يحاول تقديم أصل لغوي لاسم قايين، على عادة مؤلفي التوراة في افتعال أسباب للأسماء ومحاولة ربطها بالشخص بأثر رجعي.
فوجدوا شبها بين فعل (قنه) العبري وبين اسم قايين، فربطوا الاثنين في جملة ونسبوها لحواء.
وبهذا هم يفترضون ضمنا أن لغة آدم وحواء كانت العبرية.. وهو فرض لا دليل عليه.

وبالإضافة لذلك، فإن الفعل العبري (قنه) له معنيان. أحدهما: اقتنى، أما الآخر فهو: صنع وكوّن.
ولهذا تجد ترجمة الـ NET اختارت أن تصيغ الجملة هكذا:
"وقالت: صنعت إنسانا"
أي أنها شعرت بالفرح والدهشة عندما رأت أن إنسانا تكون داخل جسدها، لأول مرة في التاريخ.
ثم اختلف المترجمون أيضا في معنى باقي الجملة. فكلمة "رجلا من عند الرب" بها مشكلتان في النص العبري.
الأولى: لا يوجد اتفاق بين المترجمين على الترجمة الصحيحة لكلمة "من عند".
فقد يقال "اقتنيت رجلا مع الرب"، أو "صنعت رجلا كما صنع الرب!"، أو "... بعون الرب".
فالاحتمالات كثيرة. بل أن بعض التفسيرات الكنسية اختارت أن تفهم الجملة هكذا:
"اقتنيت رجلا هو الرب".. أي أرادوا جعل النص نبوءة باحتمالية تجسد الرب في صورة إنسان مولود.

أما المشكلة الثانية فهي أن كلمة "الرب" المذكورة في الجملة على لسان حواء هي (יהוה يهوه) في النص العبري.
ومعروف في التوراة أن هذا الاسم من أسماء الإله لم يكن معروفا للبشر قبل فترة موسى.. وبالتالي يستحيل أن تقوله حواء، لأنها قبل موسى بآلاف السنين!
أما لو افترضنا أن التوراة محرفة، وأن نصها الحالي تمت إعادة كتابته على يد مؤلفين يهود عاشوا بعد موسى، فستنحل هذه الإشكالات الخاصة باللغة العبرية للنص.

***

بعد قايين ولدت حواء أخاه هابيل. ويقول النص أن قايين كان مزارعا، أما هابيل فكان راعيا للغنم.
وحدث أن كل واحد منهما قدم قربانا للرب، فتقبل الرب قربان هابيل ولم يتقبل قربان قايين. فاغتاظ قايين وقتل أخاه.
"فقال الرب لقايين: أين هابيل أخوك؟
فقال: لا أعلم. أحارس أنا لأخي؟!"
فقال الرب: ماذا فعلت؟ إن صوت دماء أخيك صارخ إليّ من الأرض. فالآن ملعون أنت من الأرض التي فتحت فاها لتقبل دماء أخيك من يدك. وإذا حرثت الأرض فلا تعود تعطيك ثمرها. تائها شاردا تكون في الأرض.

"فقال قايين للرب: عقابي أشد من أن يطاق. ها قد طردتني اليوم عن وجه الأرض، ومن وجهك أستتر، وأكون تائها شاردا في الأرض، فيكون أن كل من يجدني يقتلني.
فقال له الرب: لذلك كل من قتل قايين فسبعة أضعاف يؤخذ بثأره منه.
وجعل الرب لقايين علامة، لكي لا يقتله كل من وجده.
وخرج قايين من أمام الرب، فأقام بأرض نود شرقي عدن"

في الإسلام لا توجد آية ولا حديث صحيح يخبرانا بالمصير الدنيوي للأخ القاتل، ولا أن الله أسبغ عليه حمايته فوضع عليه علامة تحذر الناس من القصاص منه، ولا أنه كانت له سلالة وذرية.
ما نعرفه عنه هو أنه موصوف في القرآن بأنه "أصبح من الخاسرين" و"أصبح من النادمين".
وورد في صحيح مسلم: "لا تُقتل نفس ظلما، إلا كان على ابن آدم الأول كِفل من دمها، لأنه كان أول من سن القتل"

أما النص التوراتي فيقول أن اللعنة الإلهية أصابت قايين وحكمت عليه بأن يكون "تائها شاردا في الأرض".. ثم بعد بضعة سطور يخبرنا النص أن قايين استقر وتزوج وأنجب ثم بنى مدينة وأسماها على اسم ابنه!
"وعرف قايين امرأته فحبلت وولدت حنوك. وكان يبني مدينة، فدعا اسم المدينة كاسم ابنه حنوك"

ثم يسرد النص أسماء ذرية قايين. فحنوك ولدَ عيراد. ثم ولد عيراد محويائيل. ومحويائيل ولد متوشائيل . ومتوشائيل ولد لامك.
ثم تزوج لامك امرأتين: عادة وصِلّة.
أما عادة فولدت يابَل: وهو أبو ساكني الخيام وأصحاب المواشي.
وولدت له أخا هو يوبَل: وهو أبو كل عازف بالعود والمزمار.
أما صلة فولدت توبل-قايين: وهو أبو جميع النحاسين والحدادين.
وولدت له أختا تسمى نَعمة.

أي أن مؤلفي النص متعاطفون بدرجة ما مع الأخ القاتل.. فجعلوه أبا لمؤسسي "الحضارة" والمخترعين!

***

وردت قصة ابني آدم في سورة المائدة، في سياق الكلام عن بني إسرائيل:
"قال فإنها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون في الأرض فلا تأس على القوم الفاسقين.
واتل عليهم نبأ ابني آدم بالحق إذ قربا قربانا فتُقُبِّل من أحدهما ولم يُتَقَبَّل من الآخر قال لأقتلنك قال إنما يتقبل الله من المتقين.
لئن بسطت إلي يدك لتقتلني ما أنا بباسط يدي إليك لأقتلك إني أخاف الله رب العالمين.
إني أريد أن تبوء بإثمي وإثمك فتكون من أصحاب النار وذلك جزاء الظالمين.
فطوعت له نفسه قتل أخيه فقتله فأصبح من الخاسرين.
فبعث الله غرابا يبحث في الأرض ليريه كيف يواري سوءة أخيه قال يا ويلتا أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأواري سوءة أخي فأصبح من النادمين.
من أجل ذلك كتبنا على بني إسرائيل أنه من قتل نفسا بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعا ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا ولقد جاءتهم رسلنا بالبينات ثم إن كثيرا منهم بعد ذلك في الأرض

لمسرفون"

أي من أجل قصة القتل هذه كتب الله على بني إسرائيل أنه من قتل نفسا بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعا، ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا.
لكن لن تجد هذا النص في التوراة الحالية.. بل هو في التلمود البابلي!
Talmud, Sanhedrin 37a
والنص ترجمته كالآتي:
"في الشهادة على جرائم القتل فإن الشاهد لا يكون مسؤولا فقط عن دم المتهم، بل عن دم كل سلالة المتهم التي كانت ستأتي منه في المستقبل، إلى نهاية الزمان.
ولهذا نجد أنه في قصة قايين، الذي قتل أخاه، مكتوب: إن صوت دماء أخيك صارخ إليّ من الأرض..
دماء، بالجمع، لا "دم" بالمفرد. أي دمه ودم ذريته المتوقعة.
ولهذا السبب خُلق آدم كشخص وحيد في البداية، لتتعلموا أن من دمر نفسا واحدة من شعب إسرائيل فإن الكتاب يقتضي عقابه كما لو أنه قد دمر عالما بأكمله.
ومن حفظ نفسا واحدة من شعب إسرائيل فإن الكتاب يقتضي إثابته كما لو كان قد حفظ العالم كله"
(في هامش طبعة Soncino ملاحظة تقول: كلمة "من شعب إسرائيل" غير موجودة في بعض النسخ)

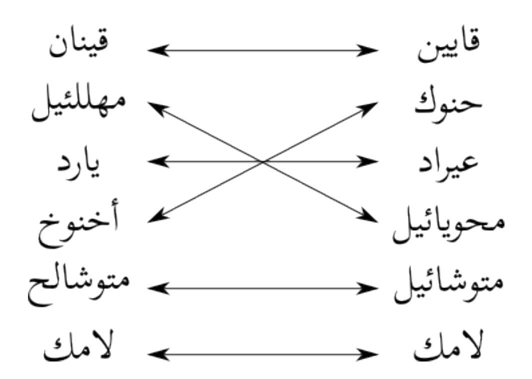
شيث وأخنوخ

تقول التوراة أنه عندما كان عمر آدم 130 سنة أنجبت له حواء ابنا ثالثا، "ودعت اسمه شيثًا، قائلة: لأن الله قد وضع لي نسلا آخر عوضا عن هابيل"..
لأن كلمة شيث بالعبرية قريبة من كلمة تعني "إقامة/تنصيب/وضع في مكان".. فربط النص بين الكلمتين، ليحاول - كالعادة - تفسير أسماء الأشخاص القدماء بالاعتماد على اللغة العبرية.

"ولشيث أيضا وُلد ابن، فدعا اسمه: أنوش.. حينئذ ابتُدئ أن يُدعى باسم الرب"
ما يريد النص أن يقوله هنا هو أن الشعائر الدينية والعبادات بدأت في تلك الفترة على الأرض لأول مرة في التاريخ.
والجملة تمهد لتقديم فكرة وجود نوعين من الناس وقتها: من يطبقون الشرائع الإلهية ومن لا يطبقون.
النوع الأول هم سلالة شيث الصالحة، والنوع الثاني هم سلالة قايين الطالحة.
لكن في الإسلام نعرف أن الكفر لم يبدأ في البشرية إلا مع قوم نوح عليه السلام.. وكان بين آدم ونوح عشرة قرون – إما بمعنى ألف سنة أو بمعنى عشرة أجيال - وكل الناس في هذه القرون كانوا مسلمين، يعبدون الله، ويتبعون ديانة آدم التوحيدية.

***

تسرد التوراة قائمة طويلة لسلالة شيث وأعمارهم، تجدها في الإصحاح 5 من سفر التكوين.. وملخصها كالآتي:
شيث (912 سنة) – أنوش (905) – قينان (910) – مهللئيل (895) – يارَد (962) – أخنوخ (365) – متوشالَح (969) – لامَك (777) – ثم نوح.
وهنا قد يلاحظ القارئ أمرين:
- عمر أخنوخ يعتبر "قصير نسبيا" بالمقارنة بالباقين.
- أسماء سلالة شيث تشبه بشكل مريب أسماء سلالة قايين!



و"حنوك" و"أخنوخ" هما نفس الكلمة في النص العبري، חנוך، لكن الترجمات أرادت التمييز بينهما فكتبت هذا بطريقة وذاك بطريقة أخرى.
ولا نعرف على وجه اليقين سبب تشابه أسماء السلالتين. لكن هناك احتمال أن قايين لم تكن له سلالة في الأصل، ولهذا اعتمد مؤلفو النص على أسماء سلالة شيث، مع بعض التغيير البسيط.
فهناك في النص - على سبيل المثال - لامك "شرير" ولامك طيب.
الطيب هو أبو نوح ومن سلالة شيث، أما الشرير فهو من سلالة قايين، وتنسب له التوراة مقطوعة شعرية للتدليل على غروره وحبه للعنف:
"قال لامك لامرأتيه، عادة وصلة: اسمعا قولي يا امرأتي لامك، وأصغيا لكلامي.
إني قتلت رجلا بسبب جرح.. وفتى بسبب شدخ.

إنه يُنتقم لقايين سبعة أضعاف.. وأما للامك فسبعة وسبعين"
وهو هنا يشير لحادثة قايين، عندما أسبغ الرب عليه حمايته ومنع الناس من قتله قصاصا لأخيه هابيل، وقال أن من سيقتل قايين سيكون عقابه سبعة أضعاف.
فلامك هنا يقول أنه في حماية أقوى حتى من حماية قايين..
فله أولاد أقوياء يمنعون الناس من القصاص منه مهما فعل. وإن قتله أحد فإن أولاده من بعده سينتقمون من القاتل ومن عائلة القاتل 77 ضعفا، أخذا بالثأر لأبيهم.

***

عندما ذكر النص اسم أخنوخ/حنوك في سلالة قايين وفي سلالة شيث، جعل لكل منهما صفة مميزة، مختلفة عن باقي السلالة.
فأخنوخ المذكور ضمن سلالة قايين قيل عنه في النص أن أباه قايين كان يبني مدينة ودعا اسم المدينة على اسم ابنه هذا.
أما أخنوخ المذكور ضمن سلالة شيث فقد ورد ضمن قائمة أسماء مذكور أنها عاشت وماتت، إلا أن صيغة النص تغيرت عندما وصلت لاسمه، ولم يذكر أنه مات، بل:
"كانت كل أيام أخنوخ ثلاث مئة وخمسا وستين سنة، وسار أخنوخ مع الله، ولم يوجد، لأن الله أخذه"
أي تم رفعه للسماء قبل موته.
ولليهود أساطير كثيرة نسجوها حول شخصية أخنوخ.. ونقل المفسرون القرآنيون بعضها ضمن الإسرائيليات، على الرغم مما فيها من مبالغات.

وهناك ربط بين أخنوخ وبين النبي إدريس المذكور في القرآن.. فحاول بعض المفسرين تفسير آية "ورفعناه مكانا عليا" بأنها تتحدث عن رفع حقيقي جسدي، لا رفع معنوي في المكانة والمنزلة.

***

كلمة "أخنوخ/حنوك" مشتقة في العبرية من "ح ن ك"، ولها معنيان:
- التدشين والتكريس، وافتتاح المباني للاستخدام لأول مرة
- التدريس والتدريب والتعليم
فلا يستبعد أن يكون اسم إدريس في القرآن هو تعريب لكلمة أخنوخ، ومشتق من الدراسة.

***

لاحظ البعض أن عدد سنوات عمر أخنوخ المذكور في التوراة هو 365 ، وهو عدد أيام السنة الشمسية..
وربطوا هذا بالقصة التي تقول أنه صعد في الفضاء "تحت جناح أحد الملائكة أصدقائه" إلى أن وصلا للشمس "في الفلك الرابع أو السماء الرابعة"!
(كان هناك خلط قديما بين أفلاك "الأجرام السبعة" وبين السماوات السبع)

النيفيليم

بعد أن انتهى السرد التوراتي من توضيح الفارق الأخلاقي بين سلالة قايين وسلالة شيث، بدأ يمهد لقصة طوفان نوح.. فقال:
"وحدث لما ابتدأ الناس يكثرون على الأرض، ووُلد لهم بنات، أن أبناء الله رأوا بنات الناس أنهن حسنات، فاتخذوا لأنفسهم نساء من كل ما اختاروا.
فقال الرب: لا يدين روحي في الإنسان إلى الأبد، لزيغانه، هو بشر. وتكون أيامه مئة وعشرين سنة"

بهذه السطور تبدأ أصعب فقرات سفر التكوين وأكثرها غموضا. احتار فيها المفسرون والمترجمون، ونسج اليهود حولها خرافات كثيرة، وانقسم النصارى حول معناها، وأصبحت مادة خصبة للنظريات الغريبة، ولمؤلفي الأفلام والمسلسلات الخرافية!

يبدأ الخلاف بسؤال بسيط: من هم "أبناء الله" المذكورون في النص؟
كان اليهود قديما يرون أن المقصود هو الملائكة، وأن النص يشير لهبوط بعض الملائكة للأرض في صورة جسدية، ثم معاشرتهم لنساء البشر.
واقتنع النصارى في القرون الميلادية الأولى بهذا المعنى. بل أن بعض أسفار الإنجيل المنسوبة لبطرس ويهوذا تقتبس من كتابات اليهود في هذا الشأن، أي مما يعرف بـ سفر أخنوخ الأول.. على الرغم من أنه كتاب إضافي وغير معتمد، ولن تجده في نسخ التوراة والإنجيل الحالية.
ثم تغير رأي اليهود والنصارى مع مرور الوقت.
ويقول هامش الترجمة اليسوعية:
"جميع المؤلفين المسيحيين الأولين تقريبا فهموا "أبناء الله" على أنها ملائكة مذنبين. لكن آباء الكنيسة منذ القرن الرابع فسروا جميعا "أبناء الله" بأنهم ذرية شيث.. وفسروا "بنات الناس" بأنهن ذرية قايين"
(انظر أيضا Peake's commentary on the Bible, p 142)

والمسلمون والنصارى متفقون على أن الملائكة لا تتزوج ولا تتناسل.. إلا أن بعض النصارى المؤيدين لتفسير "أبناء الله" على أنها تعني الملائكة لهم ردود على هذا.
فيقولون ربما كانت هذه الواقعة استثناء.. أو ربما لم يتجسد الملائكة مباشرة في شكل آدمي، بل "حلوا" في أجساد بعض الرجال، كنوع من المس الشيطاني، ثم عاشروا النساء باستخدام هذا الوسيط!
(هذه الفكرة اقتبسها مؤلفو مسلسل الفانتازيا الأمريكي الشهير Supernatural)
أما من وجهة نظر إسلامية فإن هذا التفسير خرافة واضحة. فالملائكة "لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون"، "عباد مكرمون لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون"، وليسوا مخيرين بين الخير والشر، على عكس الإنس والجن.
والملائكة بالإضافة لذلك لا تتناسل ولا تتناكح.

كيف إذن دخل هذا التفسير في عقول بعض اليهود والنصارى؟
الإجابة باختصار هي:
- يؤمن النصارى بعقيدة ما يسمى الملائكة الساقطون Fallen Angels، أي الذين أذنبوا فسقطوا للأرض وتحولوا لشياطين. والشيطان عندهم كان في الأصل أحد الملائكة.
ولهذا يسهل على بعضهم الاقتناع بفكرة معاشرة الملائكة للبشر.
- التوراة نفسها أوردت كلمة "أبناء الله" في موضع آخر، هو سفر أيوب. وفي هذا الموضع الثاني واضح جدا من السياق أن المقصود هو الملائكة.

وبالتالي ربط البعض بين الكلمة الموجودة في سفر التكوين وبين الموجودة في سفر أيوب. فكلما وجدوا نصا يقول
בני האלהים (بني ها إلوهيم) فسروه بأنه يعني الملائكة.

أما الرأي الثاني فيعتبر أن "أبناء الله" المقصودين في النص هم من البشر الصالحين.
فاليهود مثلا كانوا يعتبرون أنفسهم "أبناء الله وأحباؤه"، فليس غريبا أن يصفوا سلالة شيث الصالحة بأنهم أبناء للرب.
خصوصا وأن سياق السفر قبل هذه الفقرة كان يركز على سلالة قايين وسلالة شيث، ولم يذكر الملائكة.
ثم أن الفقرة هي تمهيد لقصة الطوفان، وتحاول تقديم تفسير وتبرير لقضاء الرب على أغلبية البشرية وقتها.. فليس من المنطقي أن يكون النص يتكلم عن ذنب اقترفه الملائكة، بل الطبيعي أن يكون عن ذنب اقترفه البشر.

وتبعا لهذا الرأي فإن تفسير النص يكون كالتالي:
كان هناك صالحون وطالحون في ذلك الزمان، وهم في حالة انفصال.. سلالة شيث معتزلة لسلالة قايين. لكن مع تزايد عدد السكان بدأ بعض رجال قبيلة شيث يميلون لنساء جميلات من قبيلة قايين، (ربما مثل "نَعمة" المذكورة في تك 4: 22)، فحدث اختلاط بين القبيلتين.. فغضب الرب.

ويقترح بعض الأكاديميين أن النص وضعه المؤلف اليهودي متأثرا بشريعة الانعزال اليهودية، التي ظهرت فيما بعد.
حيث تقول التوراة في الأسفار التالية أن تزاوج بني إسرائيل مع نساء الأمم الوثنية المحيطة بهم في كنعان كان محرما تحريما قاطعا.. وأن أي اختلاط من هذا النوع سيؤدي لتسرب الوثنية لبني إسرائيل ولانحرافهم.
وعلى هذا فإن النص يصف التزاوج الذي حدث بين رجال قبيلة شيث ونساء قبيلة قايين بأنه تم بلا تمييز بين القبيلتين، "فاتخذوا لأنفسهم نساء من كل ما اختاروا".
وحسب ما تقوله التوراة فإن هذا كان الخطيئة الأولى الممهدة للطوفان. وكان عقابها هو أن قال الرب:
"لا يدين روحي في الإنسان إلى الأبد، لزيغانه، هو بشر. وتكون أيامه مئة وعشرين سنة"
أي أن البشر اتبعوا شهواتهم الجسدية وانحرفوا، فلا يستحقون وجود نفخة الروح التي نفخها الله في آدم.. ولهذا سيتم القضاء عليهم بعد مهلة، هي 120 سنة.

واجهت المترجمين مشكلة في ترجمة هذه الجملة. فالنص العبري لا يقول "لا يدين روحي"، بل "لا يـ د و ن ידון"
وهي كلمة غامضة المعنى، ولم ترد في التوراة في أي موضع آخر.
البعض يحولها إلى الفعل العبري الشهير "ידין يـ د يـ ن"، والذي يعني: يقاضي، يحاسب، يدخل في نزاع أو خصام قانوني..
وبالتالي يترجمون الجملة على أنها تعني: "لن أنازع نفسي في شأن الإنسان إلى الأبد" أو "لن تتصارع روحي داخل الإنسان إلى الأبد"
وهوامش الترجمة الإنجليزية NET تعرض بأسلوب جيد لاختلافات المترجمين، ثم تصل إلى أن أقرب الأقوال للصحة هي أن يبحث المترجم عن جذر الكلمة في اللغة العربية، لا العبرية.. وأن المعنى المقصود هو "يدوم".
أي "لن تدوم روحي في البشر للأبد"، بل نهاية أجلهم قريبة.
***
ثاني مشكلة واجهت مترجمي النص هي كلمة "لزيغانه".

فهي ترجمة ممتازة ودقيقة، لكن لن تجدها إلا في عدد قليل من الترجمات. أما الأغلبية، وخصوصا الترجمات الإنجليزية، فتضع بدلا منها كلمة "أيضا".
وواضح أنه لا علاقة بين "أيضا" وبين "زيغانه"!.. فما سبب الإشكال؟

الكلمة في النص العبري هي (بشجم בשגם). فلما احتار المترجمون فيها قسموها لثلاثة أقسام، وقالوا هي عبارة عن:
حرف الجر، باء + حرف الاختصار شين + كلمة "جم" والتي تعني "أيضا".
لكن اتضح للمدققين أن هذا التقسيم مفتعل. ولهذا تجد في تعليقات K&D اللغوية (وفي ترجمة Young الحرفية) أن المعنى المقصود هو: بضلالهم.
واشتقوها من الفعل (ش ج هـ)، والذي يعني: انحرف وضل.
وبهذا تكون الباء حرف جر، والميم هي الضمير المعتاد في العبرية والذي يقابل الضمير "ـهم" في العربية، ويكون عائدا على "البشر" ككل، أي على الإنسان بشكل عام.

(وأنا هنا أستخدم النطق العربي لأسماء الحروف العبرية، للتيسير، كي لا تتعقد الأمور أكثر من اللازم.
واللغة العبرية مكونة من 22 حرفا، مجموعة في جملة: أبجد هوز حطي كلمن سعفص قرشت
وتقرأ كاللغة العربية من اليمين لليسار
אבגד הוז חטי כלמנ סעפצ קרשת)
***
"كان في الأرض طغاة في تلك الأيام، وبعد ذلك أيضا، حين دخل بنو الله على بنات الناس وولدن لهم أولادا. هؤلاء هم الجبابرة الذين منذ الدهر ذوو اسم"
هذا هو الجزء الثاني من الفقرة الغامضة التي احتار فيها المفسرون طوال قرون.
النص العبري لا يقول "طغاة"، بل "نيفيليم".. وهي كلمة غامضة، ونادرة الاستخدام، حتى أن بعض الترجمات الإنجليزية الحديثة ترفض ترجمتها، بل تضع منطوقها كما هو: Nephilim، كنوع من الأمانة العلمية.. وتترك للقارئ مهمة البحث عن المعنى بنفسه، دون أن تفرض عليه رأي المترجم.

بسبب غموض تراكيب هذه الفقرة، والفقرة التي سبقتها، انقسم المفسرون لقسمين:
القسم الأول، وهو السائد، فهم النص على أنه يقول: النيفيليم هم نتاج تزاوج "أبناء الله" وبنات الناس.
والقسم الثاني رأى أن الأمرين منفصلين.. وأن سبب ذكرهما مع بعضهما في النص هو أن كل واحد منهما كان ذنبا من الذنوب التي ستؤدي للطوفان.
أي أن التزاوج المختلط (بين قبيلة شيث وقبيلة قايين) كان يحدث في نفس الوقت الذي كان يوجد فيه النيفيليم الجبابرة.. فأدى مجموع هذه الخطايا إلى غضب الرب على البشر.

وهذا الرأي الثاني لم يظهر إلا في العصر الحديث.. عندما بدأ المترجمون والمفسرون ينظرون لنصوص التوراة بدقة أكبر، وبدرجة من الحيادية.
وتجده في تفسير K&D ، وأيضا في هامش الـ NET الذي يقول: على الرغم من أن مؤلف النص قد يكون يلمح إلى أن النيفيليم هم سلالة "أبناء الرب"، إلا أنه لا يصرح بهذا.
ويقول تفسير K&D أن أي قارئ محايد للنص، دون التقيد بأي أفكار مسبقة، سيرى أن الحادثتين منفصلتين، وأن النيفيليم لا علاقة لهم بعملية التزاوج المذكورة.

كلمة نيفيليم נפלים وردت مرة في هذا النص من سفر التكوين، ومرتين متجاورتين في سفر العدد..

وفي كل موضع من هذه المواضع كان يقصد بها: محاربون أشداء، أقوياء جسديا وعسكريا، ذوو بأس.
وحسب رأي بعض اليهود قديما، فإن النيفيليم كانوا عمالقة Giants ، وأن سبب ضخامة حجمهم هو أنهم سلالة تزاوج الملائكة بنساء البشر.
أما إسلاميا، فإن وجود عمالقة في قديم الأزل لا يحتاج لربطهم بالملائكة..
فآدم نفسه كان طوله حوالي 30 مترا، ثم نقص حجم أبناء آدم فيما بعد.
(ورد في البخاري ومسلم أن آدم كان طوله ستين ذراعا، ولم يزل الخلق ينقص إلى الآن)

ما يقصده نص التوراة هو أنه قبل طوفان نوح كان بعض الناس يستغلون قوتهم الجسدية في ظلم الآخرين وفي التجبر عليهم.
لكن صياغة النص قد توحي أيضا بدرجة من الإعجاب الخفي بهؤلاء، إذ يصفهم بأنهم الأبطال المشاهير أصحاب السير المعروفة والأفعال شبه الأسطورية.
ويقول بعض الأكاديميين العلمانيين أن المؤلف التوراتي متأثر هنا بخرافات شعبية وأسطورية.. مثلما اعتقد الإغريق أن هرقل كان بطلا حقيقيا، وأنه نتاج تزاوج كبير الآلهة مع إحدى نساء البشر.

***

كثير من اليهود والنصارى المعاصرين يترجمون الكلمة على أساس أنها مشتقة من الفعل العبري "ن ف ل"، بمعنى سقط.
وهو فعل مستخدم كثيرا في التوراة، ويأتي بمعنى:
- سقط على القوم: أي هجم عليهم ونزل بساحتهم للحرب
- سقط صريعا
لكن لو كانت ترجمة الكلمة هي بهذه البساطة لما احتار فيها المترجمون ولما اضطروا لتركها أحيانا دون ترجمة.
فما سبب الغموض والحيرة؟
السبب هو أن قواعد الصرف في اللغة العبرية معروفة وواضحة. فإذا اشتققت من الجذر "ن ف ل" كلمة بمعنى "نزلوا بساحة قوم للحرب، أو هاجموا" فستكون الصيغة هي: نوفيليم، لا "نيفيليم".
وإذا اشتققت كلمة بمعنى "الذين سقطوا صرعى" أو "الذين زلوا وسقطوا"، فستكون الصيغة هي: نيفوليم، لا نيفيليم.
(وقد أوضح د/ مايكل هايزر Heiser هذا الأمر في رسالة بعنوان:
The Meaning of the Word Nephilim: Fact vs. Fantasy)

ولهذا اتجه البعض للبحث عن أصل الكلمة في لغة أخرى كان يستخدمها اليهود بالإضافة للعبرية، وهي اللغة الآرامية.
ففي الآرامية، والتي تكتب بنفس الحروف العبرية، توجد كلمة "نيفيلين".
وتنتهي بحرف النون لأنه أداة الجمع في الآرامية، والتي تقابل حرف الميم في العبرية.
فتحولت نيفيلين إلى نيفيليم.

معنى نيفيلين هو:
1- عمالقة Giants
2- أبناء أوريون (كوكبة نجوم الجبار/الصياد)
(Dictionary of the Targumim, by Jastrow, p 924
Hebrew and Chaldee Lexicon, by Gesenius, p 556)

فيصبح المقصود من النص التوراتي هو أنه:

في ذلك الزمان كان يعيش عمالقة جبارون، اشتهروا بالبطولات العسكرية والإنجازات الفردية.. وأثاروا غضب الرب بسبب تجبرهم وطغيانهم، فكانوا من أسباب عقابه للبشرية بالطوفان، بالإضافة للسبب الأول الذي كان يحدث في نفس الزمن، وهو الاختلاط بين سلالة شيث وسلالة قايين.

***

قام بعض أحبار اليهود بترجمة التوراة إلى اليونانية، قبل ميلاد المسيح، لأنها كانت اللغة المعاصرة المتداولة أيام البطالمة..
وهي الترجمة المعروفة بالسبعينية Septuagint ، والتي يرمز إليها بـ LXX
(حيث حرف L اللاتيني له قيمة عددية = 50 ، وحرف X له قيمة = 10)
وأهمية هذه الترجمة هي أنها تعطي الباحثين فكرة عن فهم اليهود وقتها لنص التوراة.. وهو فهم قد يختلف قليلا أو كثيرا عن فهم المؤلفين القدماء للتوراة، وعما كانوا يقصدونه.

وعندما ترجم يهود السبعينية كلمة نيفيليم إلى لغة الإغريق، اختاروا لها الكلمة اليونانية " Γιγαντες/gigantes"
ولن تحتاج لأن تكون متخصصا في اليونانية كي ترى شبهها بكلمة "عمالقة giants" الإنجليزية.
(لكن الـ gigantes اليونانية ربما لم يكن معناها دائما عند الإغريق هو "عمالقة"، بالمعنى الحرفي للكلمة. بل هي جزء من أسطورة إغريقية ملحمية، والترجمة الحرفية لها هي: المولودون من الأرض..
أي الناتجون عن نزول "دماء خصية المعبود أورانوس/السماء" على المعبودة الأرض "جايا"!
وحسب المخيلة اليونانية القديمة فإن **الجيجانتس**، أبناء **جايا**، كانوا في بعض الروايات جنسا بشريا، وفي روايات أخرى مخلوقات ضخمة. وكانوا يتميزون بالقوة الجسدية والمهارة العسكرية. ومسرفين في القتل، ودخلوا في حرب ضد الآلهة الجديدة، آلهة الأوليمب، لكن انتهت بهزيمتهم)

وهكذا يظهر السبب وراء ترجمة اليهود لكلمة نيفيليم بكلمة gigantes. فقد رأوا تشابها بين تصورهم لمعنى النيفيليم وبين أسطورة الجيجانتس عند الإغريق، فربطوا بين الاثنين في الترجمة السبعينية التي كانت تستخدم لغة الإغريق ومتأثرة بثقافتهم.
فإذا ظنوا أن النص العبري يقول أن النيفيليم كانوا مولودين نتيجة تلاقح بين الملائكة والبشر، فإن الجيجانتس مولودون نتيجة امتزاج بين السماء أورانوس والأرض جايا.
وإذا كان النيفيليم جبابرة وذوي بأس عسكري وبطولات، فكذلك الجيجانتس في الأساطير الإغريقية.
وإذا كانت نهاية هؤلاء وأولئك هي الهزيمة على يد الإله، فطبيعي أن يربط اليهود بين الـ Nephilim والـ gigantes.

***

من غير المستبعد أن يكون مؤلف النص التوراتي قد اختلط عليه الأمر، فخلط بين أسطورة النيفيليم وبين قصة قوم عاد الحقيقيين.
فقوم عاد ونبيهم هود كانوا بعد طوفان نوح، لا قبله.. لكن تتشابه بعض جوانب قصتهم مع ما يقوله النص عن النيفيليم.
فقوم عاد تعرضوا للغضب الإلهي بسبب كفرهم، وأهلكهم الله.
وكانوا جبابرة وظالمين، وأقوياء جسديا وعسكريا.
"فأما عاد فاستكبروا في الأرض بغير الحق وقالوا من أشد منا قوة"
"وإذا بطشتم بطشتم جبارين"
"ويا قوم استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يرسل السماء عليكم مدرارا ويزدكم قوة إلى

قوتكم"
"وتلك عاد جحدوا بآيات ربهم وعصوا رسله واتبعوا أمر كل جبار عنيد"
"واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح وزادكم في الخلق بسطة"

وقد قضى الله عليهم تماما، "وقطعنا دابر الذين كذبوا بآياتنا"، وتسميهم العرب: العرب البائدة.
وهم موصوفون أيضا في القرآن بأنهم "عادا الأولى".
واختلف المفسرون في معنى الأولية المذكورة هنا:
فقيل كانت هناك قبيلة أخرى فيما بعد اسمها عاد أيضا.
وقيل أن كلمة "الأولى" تعني: أول الأمم التي أهلكها الله بعد الطوفان. أو أول أمم العرب القديمة وأقواها.

***

قد يسأل القارئ: من وجهة نظر مؤلف النص التوراتي، لماذا استحق النيفيليم أن يتعرضوا لغضب الرب والطوفان؟
وهناك احتمالان. فإما لأنهم كانوا أشرارا، أو أن القصة هي استكمال لـ "ثيمة": خوف الرب من منافسة البشر له، والتي رأينا أنها بدأت في سفر التكوين عندما منعهم من المعرفة ثم من الخلود.
وحسب هذا الاحتمال الثاني، فإن شر النيفيليم المتجبرين كان خروجهم عن "سيطرة الإله"، وتطلعهم للزعامة والقوة.
وستظهر هذه الفكرة مرة أخرى في سفر التكوين، في قصة برج بابل.

***

يعرض سفر التكوين قصة نوح وإبراهيم وإسحق ويعقوب ويوسف عليهم السلام، والأحداث التي ارتبطت بسيرتهم، من وجهة نظر مؤلفي التوراة.. ثم ينتهي السفر بموت يوسف، واستقرار بني إسرائيل في مصر.
أما سفر الخروج الذي يليه فيبدأ بقصة موسى عليه السلام، ويحكي خروج بني إسرائيل من مصر. ويليه سفر اللاويين الأحبار، ثم سفر العدد (إحصاء قبائل الأسباط)، ثم سفر تثنية الشريعة.
وهي أسفار فيها الكثير من التفاصيل عن التشريعات والعبادات والطقوس اليهودية.. إلا أن سفر العدد فيه أيضا إحدى القصص الهامة والمحورية في تاريخ بني إسرائيل، وهي قصة جبنهم عن الجهاد، وبالتالي حكم الله عليهم بالتيه لأربعين سنة.
وفي هذه القصة ترد كلمة نيفيليم للمرة الثانية في التوراة.

كان بنو إسرائيل قد خرجوا من مصر مع موسى منتصرين. أغرق الله عدوهم فرعون وجنوده، ووعدهم بامتلاك أرض فلسطين، وفضلهم على سكان العالم في ذلك الزمان.
وفي الطريق وقعت لهم أحداث مشهورة.. ثم لما وصلوا لحدود "فلسطين/الشام/كنعان" قال لهم موسى:
"يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم ولا ترتدوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين
قالوا يا موسى إن فيها قوما جبارين وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها فإن يخرجوا منها فإنا داخلون
قال رجلان من الذين يخافون أنعَمَ الله عليهما ادخلوا عليهم الباب فإذا دخلتموه فإنكم غالبون وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين
قالوا يا موسى إنا لن ندخلها أبدا ما داموا فيها فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون
قال رب إني لا أملك إلا نفسي وأخي فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين
قال فإنها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون في الأرض فلا تأس على القوم الفاسقين"

خافوا من الجهاد والحرب فعاقبهم الله بالتيه في الأرض 40 سنة، ولم يدخلوا فلسطين إلا بعد أن مات هذا الجيل، ومات هارون وموسى، وتولى أمرهم يوشع بن نون، والذي أخذ الجيل الثاني وانتصر بهم على الوثنيين الذين كانوا بتلك الأرض.
وأعانهم الله خلال تلك الحرب بمعجزة شهيرة، أخبرنا عنها الرسول في حديث صحيح، حيث وقفت الشمس في السماء استجابة لدعاء النبي يوشع، وتأخرت في الغروب حتى يستطيع جيش بني إسرائيل إنهاء المعركة قبل أن يحل الليل.

وقصة جبن اليهود عن دخول الأرض المقدسة أيام موسى موجودة في سفر العدد، الإصحاح 13 و 14.
فتقول التوراة أن موسى أرسل 12 رجلا في مهمة تجسسية، لجمع المعلومات عن أرض كنعان وسكانها.. واختار رجلا من كل سبط من أسباط بني إسرائيل الـ 12.
فكان منهم "كالب بن يفنة" من سبط يهوذا، و"هوشع بن نون" من سبط أفرايم، وعشرة آخرون من باقي الأسباط.
وقام موسى رسول الله بتغيير اسم هوشع إلى "يشوع"، والتي ينطقها العرب: يوشع، وينطقها الأجانب اليوم: جوشوا.
ودلالة تغيير الاسم هي أن هوشع تعني: هو ينجي/ينقذ/يخلّص، أما يشوع فتعني: الرب ينجي/ينقذ/يخلّص.
وهو تغيير فيه إشارة إيمانية تجعل النجاح والتوفيق بيد الله لا بيد البشر.

ويوشع هذا صار نبيا من أنبياء بني إسرائيل، ويقول البعض أيضا أنه هو "فتى موسى" الذي كان معه في قصة الخَضِر ومجمع البحرين.
وانتشر الاسم في بني إسرائيل، حتى أنه يقال أن آخر نبي ظهر من بني إسرائيل، عيسى عليه السلام، كان النطق العبري الأصلي لاسمه هو مجرد صيغة أخرى لكلمة يوشع.. ومنها جاء النطق الشهير: يسوع.

***

يقول النص التوراتي أن موسى أرسل الجواسيس للاستطلاع، ولينظروا ما هو حال هذه الأرض: الشعب الساكن فيها قوي أم ضعيف؟ قليل أم كثير؟ التربة الزراعية جيدة أم رديئة؟ المدن هل هي مخيمات أم حصون؟
ورجع الاثنا عشر رجلا بعد 40 يوما، وأعطوا تقريرا لموسى وهارون، وقالوا:
قد دخلنا إلى الأرض التي أرسلتنا إليها، فإذا هي بالحقيقة تدر لبنا حليبا وعسلا. إلا أن الشعب الساكن فيها قوي، والمدن محصنة وعظيمة جدا. ورأينا هناك بني عناق.
عماليق مقيم بأرض النقب، والحثي واليبوسي والأموري مقيمون بالجبل. والكنعاني مقيم عند البحر وعلى ضفة الأردن.

تحمس كالب ويوشع للقتال، وقالا أن الرب سينصر بني إسرائيل إن أطاعوه.. إلا أن الـ 10 الآخرين خافوا، وقالوا "لا نقدر أن نخرج على هذا الشعب، لأنه أقوى منا"، ثم أرادوا إقناع باقي بني إسرائيل بنفس الرأي، فنشروا بينهم إشاعة تقول أن الأرض التي استطلعوها هي "أرض تأكل سكانها" لصعوبة الأحوال بها، وأن سكانها طوال القامات.
وقالوا: "وقد رأينا هناك الجبابرة، بني عناق من الجبابرة، فكنا في أعيننا كالجراد، وكذلك كنا في عيونهم"
فانهار الشعب وصرخوا "ليتنا متنا في مصر! لماذا أتى بنا الرب لهذه الأرض؟! هيا نعود إلى مصر"
فسجد موسى وهارون ويوشع وكالب خوفًا من غضب الله ومن نتيجة هذا العصيان والتمرد.
وحكم الرب على بني إسرائيل بالتيه لأربعين سنة، وعلى الجواسيس العشرة الذين نشروا

الافتراء والإشاعة بأن يموتوا فورا بالوباء.

***

هناك عدة ملاحظات بخصوص هذه القصة:

- كلمة "الجبابرة" الموجودة في الترجمات العربية هي "نيفيليم" في النص العبري.
فعندما أراد الجبناء إشاعة الذعر في بني إسرائيل أخبروهم أن سكان تلك الأرض هم من جنس النيفيليم، وأن الشخص أمامهم يعتبر نفسه مجرد جرادة.. أي أن أحجامهم الجسدية ضخمة.
أي أن النص يشير إلى أن معنى كلمة نيفيليم المذكورة في سفر التكوين وقصة الطوفان هو "عمالقة Giants".
لكن الحقيقة هي أن البشر أيام موسى لم يكونوا عمالقة. وحتى لو كان بين الناس بعض مفتولي العضلات وضخام الأجسام فإن حجمهم سيكون أكبر من المتوسط بقدر ضئيل.
فيكون الشخص الاستثنائي طوله 2.5 متر أو 3 أمتار، وبالتأكيد لن يصل لطول آدم (30 متر) ولن يفوقه طولا، حيث أن حديث طول آدم يشير إلى أن طول البشر يقل منذ أيام آدم.
جالوت مثلا يقال أن طوله كان ثلاثة أمتار، فكان يعتبر ضخما وطويل القامة، ويوجد ناس مثله في العصر الحديث ومسجلين في موسوعات الأرقام القياسية. لكن هذا لا يعني أن سكان فلسطين أيام موسى كانوا على نفس درجة العملقة التي كان عليها البشر أيام آدم ونوح.

وبالإضافة لذلك فإن النص التوراتي وقع في تناقض. ففي سفر التكوين يقول أن الطوفان قضى على كل الأحياء إلا نوح ومن معه، وبالتالي فالنيفيليم لم يعد لهم وجود ولا نسل.
لكنه في نفس الجملة يقول أن النيفيليم كانوا في الأرض في تلك الأيام "وبعد ذلك أيضا".
فهل هذه الجملة تم وضعها في سفر التكوين، كإضافة لاحقة، كي تبرر للقارئ جبن قوم موسى، وتوحي له أنه يجب التماس العذر لهم، وأن الإشاعة لم تكن تهويلا ومبالغة، وأن الله كان يكلفهم بما لا يطيقون: أي قتال عمالقة حقيقيين؟!

- وصف بنو إسرائيل سكان فلسطين وقتها بأنهم "جبارين". والجبار في العبرية تعني المقاتل شديد البأس، وفي العربية تعني المتسلط والمسيطر بقوة.

- على الرغم من أن سكان تلك الأرض لم يكونوا عمالقة بالمعنى الحرفي للكلمة إلا أنهم كانوا يتميزون بالقوة الجسدية والأجسام الضخمة إلى حد ما.
ويمكن الاستدلال على هذا بأن اسم إحدى قبائلهم كان "بني عناق"، أي ذوي الأعناق الطويلة.
فما فعله العشرة الجبناء هو أن بالغوا في هذه الصفة، فأخبروا الشعب أن بني عناق هم نيفيليم.

قد تكون لاحظت ورود كلمة "عماليق" في النص: "عماليق مقيم بأرض النقب".
وبعض الترجمات تترجمها "العمالقة". لكن هذه الكلمة ليست وصفا لعمالقة فعليين.. بل هي اسم لقبيلة من القبائل، معروفة عند اليهود وعند العرب، ومنسوبة إلى جدها الأول: عمليق.
وفي الإنجليزية تكتب هكذا Amalikites ، لا Giants.
تماما كما أن قبيلة "بني أسد" مثلا لا تعني حرفيا أنهم من سلالة الأسود.
ويختلف المؤرخون حول قبيلة عماليق. فمؤرخو اليهود يقولون أن عمليق كان من أحفاد إسحق بن إبراهيم. أما المؤرخون العرب فيقولون أن عمليق أقدم من هذا بكثير، وأنه من أحفاد سام بن نوح.

والقبيلة تعتبر من العرب القدماء، العرب العاربة. ويرى بعض المؤرخين الإسلاميين أنهم انتشروا في البلاد، فسكنوا في الشام وكان منهم فرعون مصر.. وكانوا يتسمون بالظلم وبالإسراف والتكبر.
أما التوراة فتعتبرهم العدو الأول لبني إسرائيل. فيروي سفر الخروج، الإصحاح 17، قصة تقول أن البدو العماليق هاجموا بني إسرائيل وموسى في طريق الخروج من مصر. فقاد يوشع القتال ضدهم، ووقف موسى يدعو الله بالنصر، رافعا يديه للسماء.
وكلما تعبت يده وانخفضت يقترب عماليق من الانتصار، فيرفع موسى يده أكثر، فينهزموا.
وتقول التوراة أنه بعد انتصار بني إسرائيل في تلك المعركة قال الرب: "سوف أمحو ذكر عماليق من تحت السماء"، أي سيقضي عليهم تماما فيما بعد.

أما سفر العدد، الإصحاح 24، فيروي قصة بلعام بن باعوراء، وفيها أنه تنبأ بوحي إلهي وقال: "عماليق أول الشعوب.. أما آخرته فإلى الهلاك"
وقبيلة عماليق مذكورة أيضا في سفر التثنية، الإصحاح 25:
"اذكر ما صنع بك عماليق في الطريق، عند خروجكم من مصر. كيف لقيك في الطريق وقطع من مؤخرك كل المستضعفين الذين وراءك، وأنت كليل ومتعب، ولم يخف الله.
فإذا أراحك الرب إلهك من جميع أعدائك الذين حواليك في الأرض التي يعطيك الرب إلهك إياها ميراثا لترثها، فامح ذكر عماليق من تحت السماء. لا تنس"

وفي سفر صموئيل الأول، الإصحاح 15، تنسب التوراة لصموئيل النبي أنه قال للملك شاول/طالوت:
"اذهب واضرب عماليق، وحرموا كل ما له. ولا تعف عنهم، بل اقتل رجلا وامرأة، طفلا ورضيعا، بقرا وغنما، جملا وحمارا"

فواضح من هذه النصوص العداء التاريخي بين بني إسرائيل وبني عمليق.
والقبيلة غير موجودة اليوم، لكن الفكرة يتم القياس عليها.
فالمستوطنون الأوروبيون في أمريكا الشمالية اعتبروا أن الهنود الحمر تسري عليهم نفس الأحكام التوراتية الخاصة بعماليق، وبالتالي يجب القضاء عليهم تماما.
وفي الدولة الصهيونية تصدر فتاوى يهودية تشجع على التعامل مع المسلمين على أنهم عماليق.
وإن أردت الاستزادة من موضوع قبيلة عماليق، وصلتها التاريخية ببني إسرائيل، وعلاقتها بالهكسوس وفرعون، فعليك بكتاب أحمد سعد الدين، "فرعون ذو الأوتاد".

نوح

يقول مؤلفو التوراة: "ورأى الرب أن شر الإنسان قد كثر في الأرض، وأن كل تصور أفكار قلبه إنما هو شرير كل يوم. فحزن الرب أنه عمل الإنسان في الأرض، وتأسف في قلبه"
"وفسدت الأرض أمام الله، وامتلأت الأرض ظلما. ورأى الله الأرض فإذا هي قد فسدت، إذ كان كل بشر قد أفسد طريقه على الأرض"
"فقال الرب: أمحو عن وجه الأرض الإنسان الذي خلقته.. الإنسان مع البهائم والدبابات وطيور السماء، لأني حزنت أني عملتهم.
وأما نوح فنال حظوة في عيني الرب"
"فقال الله لنوح: نهاية كل بشر قد أتت أمامي، لأن الأرض امتلأت ظلما منهم، فها أنا مهلكهم مع الأرض. اصنع لنفسك فُلكا"
"فها أنا آت بطوفان الماء على الأرض لأهلك كل جسد فيه روح حياة من تحت السماء. كل ما في الأرض يموت، لكن أقيم عهدي معك، فتدخل الفلك أنت وبنوك وامرأتك ونساء بنيك معك.
ومن كل حي من كل ذي جسد، اثنين من كلٍ تدخل إلى الفلك، لاستبقائها معك"

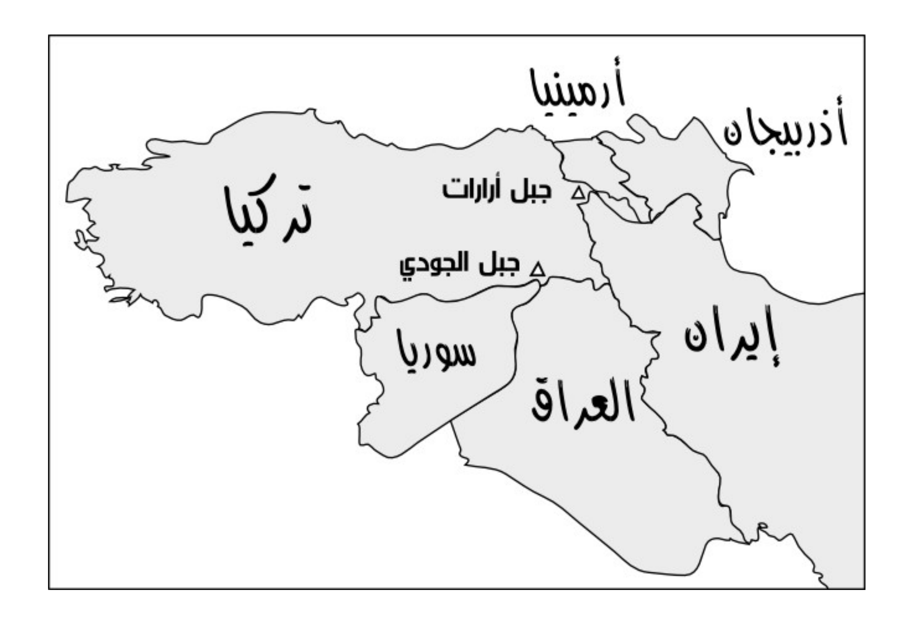
القراءة السريعة للنص قد توحي بتشابه الهيكل العام للقصة التوراتية مع القصة القرآنية.. لكن القراءة المتأنية تظهر لنا اختلافا جوهريا.
فالنص التوراتي الحالي لا يذكر ولا كلمة واحدة عن مهمة نوح الأساسية: الدعوة!
بل ما نراه في النص هو أن الإله قد عاقب البشر دون إنذار.
أما الحقيقة فهي أن نوح عليه السلام استمر يدعو قومه ويذكرهم بالله وينصحهم بترك عبادة الأصنام طوال 950 سنة..
وهو عدد هائل من السنوات، بحيث لم يعد لهم أي عذر أو حجة.. فاستحقوا تماما ما حدث لهم من إغراق.

الملاحظة الثانية على النص هي أنه لا يذكر الابن الرابع لنوح، والذي كفر برسالة أبيه وقرر أن يصعد لجبل يعصمه من الماء، فغرق مع الباقين. ونفس الشيء مع زوجة نوح.
فالنص التوراتي يقول أنها نجت في السفينة، أما في القرآن فقد كانت من الكافرين:
"ضرب الله مثلا للذين كفروا امرأت نوح وامرأت لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما فلم يغنيا عنهما من الله شيئا وقيل ادخلا النار مع الداخلين"

ومن الاختلافات أيضا بين القصة القرآنية والتوراتية أن عمر نوح في التوراة هو 950 سنة: 600 قبل الطوفان و350 بعد الطوفان.. أما في القرآن فعمره أكثر من هذا، حيث مذكور أنه ظل يدعو قومه 950 سنة قبل الطوفان..
"ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما فأخذهم الطوفان وهم ظالمون"
فإن أضفنا لهذا سنوات عمره التي مضت قبل أن ينزل عليه الوحي ويصبح رسولا، ثم سنوات عمره التي قضاها مع ذريته بعد الطوفان، فنستنتج أن عمره يزيد حتما عن 950.

الملاحظة الرابعة على قصة نوح التوراتية هي أن النص يقول:
"واستقر الفلك في الشهر السابع، في اليوم السابع عشر من الشهر، على جبل أراراط"
أما في القرآن فإن السفينة استوت على الجودي.
ومكان أرارات هو الحدود الشرقية لتركيا، بقرب حدودها مع إيران وأرمينيا.
أما مكان الجودي فهو الحدود الجنوبية لتركيا، بقرب حدودها مع العراق وسوريا، في منطقة جزيرة ابن عمر، ولاية شرناق.

والاختلاف بين المكانين كبير جدا.



بعد انحسار المياه وخروج نوح ومن معه من السفينة، يقول النص أن الرب أحل للبشر أكل اللحم، سواء لحم حيوانات أو طيور أو أسماك، بعد أن كان البشر نباتيين منذ أيام آدم.
"كل دابة حية تكون لكم طعاما.. كالعشب الأخضر دفعت إليكم الجميع"
ثم تعهد الرب لنوح أنه لن يكرر واقعة الطوفان أبدا، وأن علامة هذا التعهد هي قوس قزح الذي يظهر في السماء عند نزول الأمطار. فـ "متى أنشر سحابا على الأرض وتظهر القوس في السحاب، أذكر ميثاقي الذي بيني وبينكم"

***

اختلف الناس في طوفان نوح: هل كان محليا أم عالميا؟
فالإجماع عند المسلمين هو أن نوح هو الأب الثاني للبشرية، أي أن كل البشر الحاليين هم من سلالة أبناء نوح، ولم يبق على الأرض وقت الطوفان إلا من كانوا في السفينة.
وأن النفر القليل الذين آمنوا بنوح - ونجوا معه ولم يكونوا من عائلته - لم يبق لهم نسل فيما بعد، أو كانوا نساء فتزوجن من أبناء نوح.
لكن لا يعني هذا بالضرورة أن الطوفان عم الأرض كلها. فهناك احتمال – وإن كان ضعيفا – أن الطوفان كان محليا، في مكان محدد محفوف بالجبال.
فقوم نوح كانوا وقتها هم كل البشرية، وكانوا مجتمعين في مكان واحد، فحتى لو كان الطوفان محليا فإنه كان سيقضي على البشرية كلها.
ومن ينشرون هذا الرأي يقصدون منه شيئا محددا، هو أن الطوفان لم يقض على كل حيوانات الأرض، بل على الحيوانات المحلية المحيطة بقوم نوح فقط.. وبهذا لا توجد ضرورة لأن تكون السفينة ضخمة جدا بحيث تتسع لعينات من كل الحيوانات البرية.
أما من يقولون أن الطوفان كان عالميا لا محليا، فيرون أن عدد أجناس الحيوانات وقتها لم يكن ضخما، بل كانت الحياة في بداياتها.. وبالتالي فكل ما كان على نوح أن يفعله هو أن يوفر مكانا لذكر وأنثى كلب – على سبيل المثال – ثم بعد الطوفان سيتفرع منهما ومن سلالتهما آلاف أنواع الكلاب الأخرى، ذات الأحجام والأشكال المختلفة..
تماما كما أن البشرية بدأت من آدم وحواء ثم مع مرور الزمن انقسمت لشعوب سمراء وشعوب بيضاء وشعوب آسيوية، وهكذا.

***

لا يوجد في القرآن ولا في الأحاديث الصحيحة تحديد لأسماء أبناء نوح. إلا أن المفسرين والمؤرخين المسلمين اعتمدوا على الأسماء المذكورة في التوراة، والموجودة في أحد

الأحاديث ضعيفة الإسناد، فقالوا أن أبناء نوح في السفينة كانوا ثلاثة: سام، وحام، ويافث.
وسام عند المؤرخين هو أبو العرب واليهود..
ويافث هو أبو الترك، والصينيين، ويأجوج ومأجوج..
وحام هو أبو الزنوج والبربر والمصريين القدماء.
وأحيانا يعتبرون الروم من سلالة سام وأحيانا أخرى من سلالة يافث.
أما الكنعانيون الشوام فإن المؤرخين المسلمين يعتبرونهم من سلالة سام، أما التوراة فتعتبرهم من سلالة حام.
وكل هذه المسائل لا يمكن الحكم عليها بدقة، لعدم وجود مصادر موثوقة، ولبعد الفترة الزمنية. وفائدتها العملية قليلة على أية حال.
إلا أنها فائقة الأهمية عند ذوي الميول العنصرية، والذين يقسمون البشر لا حسب العقائد والديانات التي اختارها الأشخاص لأنفسهم بل حسب القوميات والعرقيات التي لا حيلة للشخص في اختيارها..
ويعتبرون القومية أهم من الدين.
ولهذا أضاف مؤلفو التوراة قصة حام وشرب نوح للخمر.

ففي الإصحاح 9 من سفر التكوين تروي التوراة قصة عن نوح وسام وحام ويافث، تقول أن نوح بعد الطوفان أصبح مزارعا، وزرع شجر عنب ثم صنع منه خمرا، وشربه فسكر.
ووصلت درجة سكره إلى أن ثيابه انكشفت عن جسده فتعرى.
وهنا دخل عليه ابنه حام فرأى المشهد وذهب ليخبر أخويه.
فلما جاء سام ويافث لم ينظرا لعورة أبيهما، بل ستراه برداء من وراء ظهورهما. فلما استيقظ نوح وعلم بالقصة ألقى لعنة على كنعان!
وهنا قد يتعجب القارئ، حيث أن كنعان ليس طرفا في هذه القصة المزيفة أصلا. لكن هدف مؤلفي النص التوراتي هو أن يختلقوا قصة في بدايات التوراة كي تكون ممهدة للحروب التي ستحدث فيما بعد بين بني إسرائيل والكنعانيين.
فقالوا أن كنعان هو ابن حام، وأن نوح قال: "ملعون كنعان. عبد العبيد يكون لإخوته".
ثم قال: "مبارك الرب إله سام، وليكن كنعان عبدا لهم. ليفتح الله ليافث فيسكن في مساكن سام، وليكن كنعان عبدا لهم"

فيما بعد استخدم بعض العنصريين الأوروبيين والأمريكان هذا النص بصورة أخرى. فقالوا أن اللعنة يجب أن تكون موجهة لكل سلالة حام، أي كل الشعوب ذات البشرة السوداء، وبالتالي فإن استعبادهم للزنوج هو في الحقيقة امتداد للعنة التي ألقاها نوح!

بابل

لو استخدمنا مصطلحات الطب النفسي في فهم تاريخ اليهود، فإن مرحلة السبي البابلي ستكون مرحلة "صدمة Trauma"، وما أتى بعدها من تشوهات نفسية هو مرتبط بتلك المرحلة.
فأصبحت مدينة بابل العراقية والحضارة البابلية هي رموز للقوة والجبروت عند اليهود.. ربما أكثر من فرعون نفسه.

ولو كانت النفسية اليهودية متوازنة وعاقلة لكانت استوعبت صدمة السبي البابلي وأدركت أنها عقاب رباني، وأن الله يعاقبهم بتسليط هؤلاء الوثنيين عليهم بسبب انحراف اليهود الديني والأخلاقي.
لكن النفسية اليهودية وقتها لم تكن متوازنة ولا عاقلة.. فلما تعرضت للكارثة والصدمة تعاملت مع الأمر بعناد طفولي.

بعض كبار اليهود وقتها نظروا لما حدث على أنه "خيانة" ربانية لهم.. للشعب المختار!
وأن تفضيله لهم وعهده الذي عقده معهم لا يجب أن يكون مشروطا بأخلاقهم.. بل عهدا أبديا لا يجب على الرب أن يخرقه مهما فعلوا.
ولهذا بدؤوا ينظرون للرب على أنه "إله شرير"، ويستمتع بتعذيبهم.
(وهذه الفكرة يستخدمها "اللا أدريون" في الغرب. فيقولون أنه لا يمكن أن يكون الإله الموصوف في التوراة حقيقيا، وأنه إن كان حقيقيا فهو بالتأكيد لا يتصف بالعدل ولا الرحمة، بل بالأنانية وكره البشرية)

ولهذا نجد اليهود يسيئون لله، فيقولون مثلا: يد الله مغلولة.
أي يتهمونه بالبخل.
(وهذا نوع من الإسقاط النفسي. ففي الحقيقة هم المعروفون بالبخل، لكن أرادوا إلصاق الصفة بالله)
ونجدهم يقولون أيضا أنهم أعداء لجبريل، وأنهم يكرهون أنه ينزل بعقاب الأمم وتدميرها.
(مع أن جبريل ينفذ أوامر الله، ولا يتصرف من تلقاء نفسه)

وفي هذا المناخ النفسي السيئ تمت إعادة كتابة التوراة. فبدأ المؤلفون اليهود يحولون قصة آدم الأصلية إلى صورتها المشوهة الحالية، وينفثون غضبهم وحقدهم بين السطور، في إشارات مبطنة، كي لا يدخلوا في صدام صريح مع عامة الشعب.

واستمرت عملية إعادة كتابة التوراة لما بعد السبي البابلي، بحيث كان هناك نصان متوازيان: الأول هو النص الحقيقي والذي يعرفه أنبياء بني إسرائيل وقتها.. والثاني هو نص آخر محرف، يقوم الحاخامات بتغييره دائما، والإضافة إليه والحذف منه، حسب ما تقتضيه الظروف.

وهكذا يمكن بسهولة فهم حالة الصراع داخل المجتمع اليهودي وقتها.
فكلما حاول الكهنة فرض نصهم المحرف، واستتبت لهم الزعامة المالية والسياسية على الشعب، يأتي رسول جديد فيفضحهم..
مما يؤدي لصراع وحالة شد وجذب، انتهت عدة مرات بقتل هذا الرسول أو النبي، لإخراسه!

ولاحظ أن الشعب وقتها لم يكن مغلوبا على أمره، بل كان يميل أحيانا لجانب الكهنة لا

لجانب الرسل.
فالكهنة كانوا يتحكمون في الاقتصاد وفي أموال الزكاة التي يتم تقديمها للهيكل، وبالتالي كانوا طبقة غنية ولها نفوذ.
وكانوا أيضا "عملاء" أو وكلاء للقوى العسكرية الأجنبية.
(عندما كان الفرس المجوس هم قادة المنطقة لم يمانع كثير من الكهنة في الانصياع لهم.. ونفس الشيء مع اليونان والرومان.. إلا استثناءات معدودة ومعروفة للمؤرخين، وهي حركات التمرد والعصيان والكفاح العسكري الشعبي ضد الاحتلال، كما حدث في فترة المكابيين وفترة المؤرخ يوسيفوس)
فاجتمع المال والسلطة في يد الكهنة، بالإضافة لتحكمهم في العقول عن طريق نصوصهم المزيفة التي زعموا أنها وحي رباني.
فكان كثير من الناس يفضلون استمرار هذا الوضع المستقر، ويرفضون أي "تغييرات" يدعو إليها الأنبياء المعادون للكهنة الأغنياء.
***
تأثر مؤلفو التوراة بأساطير بابل والفرس، فنقلوا منها وحاولوا "تهويدها" ووضعها في قالب يهودي.
هذه الفعلة فتحت بابا كبيرا من أبواب الشر.. إذ استغل دارسو التوراة الأكاديميون الملحدون هذه المسألة وقالوا: هذا دليل على أن الأديان الإبراهيمية ما هي إلا تطور للأديان الوثنية.
مع أن الحقيقة هي أن التحريف اليهودي هو المتأثر بأساطير الوثنيين، لا التوراة الأصلية التي نزلت على موسى.
***
استمر ارتباط اليهود ببابل حتى بعد انتهاء السبي البابلي. فالتلمود الذي كتبوه فيما بعد هو "التلمود البابلي Babylonian Talmud".. والمرة الوحيدة التي وردت فيها كلمة "بابل" في القرآن كانت مرتبطة باليهود وبتعلمهم السحر البابلي.

أما في سفر التكوين فإن بابل ترتبط بقصتين، واحدة في الإصحاح 10 والأخرى في الإصحاح 11:
قصة النمرود وقصة برج بابل.
***
لغويا وتاريخيا فإن كلمة بابل تعني "باب إل"، أي باب الإله أو بوابة التواصل مع آلهة البابليين.
لكن مؤلفي التوراة، كالعادة، اخترعوا تفسيرا مختلفا للاسم، وهو القصة المعروفة بـ "برج بابل".
قالوا أن تفسير تباين لغات وألسنة شعوب العالم هو أن الرب "بلبلهم" بعد أن كانوا يتكلمون لغة واحدة.. وأن هذا هو السبب وراء اسم بابل!
وقالوا أن الرب قرر بلبلتهم كي لا يجتمعوا ويتعاونوا على بناء حضارة بشرية واحدة قوية.

ويظهر بوضوح أن القصة هي استمرار لـ "ثيمة" خوف الإله من منافسة الإنسان له، والتي ظهرت في قصة آدم وجنة عدن التوراتية.

"كانت الأرض كلها لسانا واحدا ولغة واحدة. وحدث في ارتحالهم شرقا أنهم وجدوا بقعة في أرض شنعار وسكنوا هناك.
وقال بعضهم لبعض: هلم نصنع لبنا ونشويه شيا.
فكان لهم الطوب اللبن بدلا من الحجر، والقار بدلا من الطين.
وقالوا: هلم نبن لأنفسنا مدينة وبرجا رأسه بالسماء، ونصنع لأنفسنا اسما، لئلا نتبدد على

وجه كل الأرض.
فنزل الرب لينظر المدينة والبرج اللذين كان بنو آدم يبنونهما.
وقال الرب: ها هو شعب واحد ولسان واحد لجميعهم، وهذا ابتداؤهم بالعمل!.. والآن لا يمتنع عليهم كل ما ينوون أن يعملوه. هلم ننزل ونبلبل لسانهم حتى لا يسمع بعضهم لسان بعض.
فبددهم الرب من هناك على وجه كل الأرض، فكفوا عن بنيان المدينة.
لذلك دُعي اسمها بابل، لأن الرب هناك بلبل لسان كل الأرض. ومن هناك بددهم الرب على وجه كل الأرض"

هذا هو نص القصة كما كتبه مؤلفو التوراة.. لكن الإضافات لم تتوقف.
ففي التلمود نرى المزيد من التفاصيل، في عدة مواضع متفرقة (منها مثلا Sanhedrin 109a)
أما المؤرخ يوسيفوس، في القرن الأول الميلادي، فقد أعاد صياغة القصة وأضاف تفاصيل أكثر.
فيقول – في الفصل الرابع من تاريخه – أنه بعد الطوفان خاف الناس من النزول من الجبال إلى الوديان، كي لا يفاجئهم طوفان جديد. لكن الوديان بها الأنهار، وبها التربة الخصبة التي يحتاجونها.. فتشجعوا أخيرا ونزلوا.
ولم يكونوا واثقين في أن الإله سيفي بوعده الذي قطعه على نفسه مع نوح، وهو أنه لن يحدث طوفان آخر على الأرض يبيد الناس كالمرة السابقة.. فقرروا أن يقيموا حضارة تضمن لهم النجاة، بالعلم والصناعة، من أي طوفان مستقبلي!

ويستمر يوسيفوس في سرد القصة الدرامية فيقول:
كان الملك عليهم هو النمرود Nimrod ، ابن كوش بن حام، وكان طاغية وجميع الشعب يطيعه ويرهبه.
وأراد النمرود أن يبعد الشعب عن عبادة الإله، فقرر أن يجمع كل السلطات في يده، وأقنع الناس أن الرخاء الزراعي والحضاري الذي يتمتعون به لم يأت عن طريق عطاء إلهي بل بسواعدهم وبعلمهم.
وأعلن أنه سينتقم من الإله الذي أغرق أجدادهم بالطوفان.. وأنه سيبني برجا عاليا وقويا بحيث لا يصل الماء إليه إن قرر الإله إرسال طوفان جديد.
فتعاون الشعب وعملوا بهمة ونشاط على بناء برج بابل. وصنعوه بالطوب مع القار البترولي كي لا يؤثر فيه الماء.
ويضيف يوسيفوس أن الشعب شك في نوايا الإله، حيث أمرهم بعد الطوفان بالانتشار في الأرض وتعميرها، وألا يزدحموا في مكان واحد كي لا تشتعل الصراعات بينهم وهم يتنافسون على نفس الموارد. إلا أنهم ظنوا أن هذه الأوامر لها هدف آخر، وهو رغبة الإله في تفريقهم وتشتيت وحدتهم وقوتهم، كي يكون إخضاعهم أسهل!

ومما سبق يبدو أن موضوع "تحدي الإله" كان مسيطرا على عقلية اليهود، وأنهم إن كانوا في الظاهر يدينون هذه القصة ويكرهون الطغيان البابلي، إلا أنهم في الباطن منبهرون بالغطرسة البابلية.
فسبي اليهود إلى بابل أدى إلى ما يشبه "متلازمة ستوكهولم" النفسية.. أي تعاطف المخطوف مع الخاطف.

إبراهيم

جاء في سفر التكوين أن نمرود "ابتدأ يكون جبارا في الأرض".. أي كان أول ملك جبار بعد الطوفان.
ويقول النص أيضا أنه كان "جبار صيد أمام الرب، ولذلك يقال: كنمرود، جبار صيد أمام الرب"
أي صار مضرب المثل لبراعته في الصيد. والملوك القدماء معروفون بحبهم للصيد ورحلات القنص.
وكلمة "جبار" في العبرية تعني المقاتل شديد البأس.
و"كان ابتداء مملكته بابل وأرك وأكد وكلنة، في أرض شنعار".. أي أن النص التوراتي يقدم شخصية النمرود على أنه المؤسس الأول لحضارة البابليين، والذي قام بتوحيد مدنهم تحت سلطته.

وعلى الرغم من أن النمرود لا يرد في قصة برج بابل التوراتية، ولا في قصة إبراهيم المذكورة في التوراة، إلا أنه مرتبط بهما أشد الارتباط في النصوص اليهودية الأخرى.. خصوصا المدراش والتلمود.
ونفس الشيء في الكتابات الإسلامية. فعلى الرغم من أن النمرود لا يرد اسمه إطلاقا في القرآن ولا في الأحاديث، إلا أن المفسرين والمؤرخين الإسلاميين نقلوا قصته من الإسرائيليات وربطوها بقصة إبراهيم عليه السلام.
فأصبح من شبه المسلم به عندهم أن قصة الملك الذي "حاج إبراهيم في ربه" مقصود بها النمرود..
وأن الذين ألقوا إبراهيم عليه السلام في النار كانوا تابعين أيضا للنمرود.

وهذا الربط بين إبراهيم والنمرود نراه في Genesis Rabbah (أحد تفاسير المدراش اليهودية)، وفي التلمود:
"نمرود الشرير ألقى أبانا إبراهيم في الفرن الملتهب"
Pesohim 118a

***

قصة إلقاء إبراهيم في النار غير موجودة في النص التوراتي الحالي، لكن موجودة في الكتابات اليهودية الإضافية الأخرى.
ويبدو أن مؤلفي التوراة لم يريدوا وجود نصوص توراتية فيها "دعوة للأمم".
أي أرادوا أن تكون دعوة الأنبياء التوحيدية مقصورة على بني إسرائيل فقط، ولهذا حذفوا الـ 950 سنة التي دعا فيها نوح قومه.. وحذفوا دعوة إبراهيم لقومه الوثنيين.
(ونفس الشيء في قصة تحطيم إبراهيم للأصنام. فلن تجدها في التوراة لكن في كتب اليهود الإضافية وشروحاتهم)

***

تبدأ التوراة قصة إبراهيم فتقول أن أباه كان يسمى تارَح، وأن تارح أنجب ثلاثة أبناء: أبرام وناحور وهاران.
(أبرام هو الاسم القديم لإبراهيم)
وأن هاران "مات قبل تارح أبيه، في أرض ميلاده في أور الكلدانيين"
ثم يقول النص أن تارح وأبرام وبعض أفراد العائلة "خرجوا معا من أور الكلدانيين ليذهبوا إلى أرض كنعان" لكن "أتوا إلى حاران وأقاموا هناك"
أي لم تكتمل الرحلة بالوصول إلى أرض كنعان الموعودة.. الشام وفلسطين.
ثم يقول النص أن الرب أوحى إلى أبرام أن يترك حاران ويذهب إلى كنعان، مع لوط، ابن أخيه.

وهناك يبني إبراهيم مذبحا للرب، كمكان صغير للعبادة، ويتلقى وعدا أن الوثنيين الكنعانيين لن يستمروا للأبد في هذه الأرض المقدسة، بل ستكون لسلالة إبراهيم فيما بعد.

هذه القصة تعتبر أحد النصوص الهامة في التوراة، وعلينا دراستها بعناية، والتعليق على عدة نقاط فيها:
- اسم أبي إبراهيم في القرآن هو آزر، لا تارح.
وقد حاول بعض المفسرين المسلمين التوفيق بين الأمرين بعدة طرق.. مع أننا غير مطالبين بالتوفيق!
فالنص التوراتي ليس معصوما من الخطأ، ومؤلفو التوراة وقعوا في كثير من الأخطاء في مواضع أخرى، فما الداعي لمحاولة التوفيق؟!
(أضف إلى ذلك أنه حتى قبل أن ينزل القرآن كان بعض النصارى يقولون أن الاسم هو: آثر Athar. وقد ورد هذا عن Eusebius، كما أشار محمد أسد في ترجمته الإنجليزية لمعاني القرآن)

- أور الكلدانيين:
إختلف الجغرافيون في تحديد مكانها. لكن السائد هو أنها مدينة Ur العراقية. والبعض يقول أنها في الشام.
لكن المشكلة الحقيقية التي واجهت المؤمنين بالنص هي أن الكلدانيين لم يكن لهم وجود أصلا أيام إبراهيم ولا أيام موسى!
وبالتالي فالنص يعتبر دليلا واضحا على أن التوراة الحالية ليست هي نفس توراة موسى.. بل تم التعديل عليها والإضافة إليها فيما بعد.

- كلمة "أور" تشبه كلمة عبرية، אור، والتي تعني شعلة نار، أو نور.
ولهذا نجد في كتب التفسير اليهودية، المدراش، تفسيرا باطنيا لهذه الكلمة التوراتية، يقول أنها ترمز للنار التي تم إلقاء إبراهيم فيها.
ويقولون أيضا أن هاران، الأخ، مات فيها.
ويبدو هذا الربط بين الكلمتين مستبعدا جدا، إلا أن كلمة "أور الكلدانيين" وردت عدة مرات أخرى في التوراة، ومنها مرة في سفر نحميا 9: 7
"أنت هو الرب الإله الذي اخترت أبرام وأخرجته من أور الكلدانيين وجعلت اسمه إبراهيم"
ولسبب غير مفهوم، ترجم الكاثوليك هذا النص هكذا: "... وأخرجته من نار الكلدانيين"، في الترجمة اللاتينية الشهيرة التي قام بها جيروم.

- قصة عبادة أبي إبراهيم للأصنام غير مذكورة في سفر التكوين.. إلا أنه في سفر يشوع، الإصحاح 24، ورد أن يوشع جمع شعب بني إسرائيل وخطب فيهم، فكان مما قاله في خطبته:
"آباؤكم سكنوا في عبر النهر منذ الدهر.. تارح أبو إبراهيم وأبو ناحور.. وعبدوا آلهة أخرى"

- حاران هي مدينة في تركيا. وأيام الحضارة الإسلامية ارتبطت بالمنجمين وبهياكل عبادة الكواكب، وبالفرقة التي صارت تعرف باسم: الصابئة.

- قال المسعودي، في كتاب "التنبيه والإشراف":
"الكلدانيون هم السريانيون. وقد ذكروا في التوراة بقوله عز وجل لإبراهيم: أنا الرب الذي أنجيتك من نار الكلدانيين، لأجعل هذه البلاد لك ميراثا"

وقال عبد الوهاب المسيري، في موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية:

"أخذ الكلدانيون بالحضارة البابلية القديمة، وأضافوا إليها كثيرا. وظهر بينهم حكماء متبحرون في مختلف جوانب المعارف، كالمهن التعليمية والعلوم الرياضية والكهنوتية. وتوصلوا إلى معروفة حساب الخسوف والكسوف. كما برعوا في فن التنجيم، حتى أصبحت كلمة كلداني مرادفة لكلمة منجم"

***

نعرف عن آزر أبي إبراهيم أنه مات على الكفر.. وكان إبراهيم يتمنى له الهداية.
فقد ورد في صحيح البخاري، عن النبي :
"يلقى إبراهيم أباه آزر يوم القيامة، وعلى وجه آزر قترة وغبرة. فيقول له إبراهيم: ألم أقل لك لا تعصني؟
فيقول أبوه: فاليوم لا أعصيك.
فيقول إبراهيم: يا رب إنك وعدتني أن لا تخزيني يوم يبعثون، فأي خزي أخزى من أبي الأبعد؟
فيقول الله تعالى: إني حرمت الجنة على الكافرين.
ثم يقال: يا إبراهيم، ما تحت رجليك؟
فينظر فإذا هو بذيخ ملتطخ، فيؤخذ بقوائمه فيلقى في النار"

والذيخ هو الضبع. وملتطخ أي ملوث بالدم والقاذورات.
ومعنى الحديث هو أن الله سيمسخ آزر على هيئة قبيحة، قبل أن تأخذه الملائكة وتلقيه في النار.
وهذا رحمة من الله بإبراهيم.. إذ أنه سيرى أباه في صورة منفرة، فلن يحزن عليه وهو يراه يلقى في جهنم.

تاريخ اليهود

يبدأ تاريخ بني إسرائيل بـ إسرائيل عليه السلام، وهو يعقوب بن إسحق بن إبراهيم.
وقصة يعقوب مع أبنائه الـ 12 مشهورة ومعروفة.. إذ شعر بعضهم بالغيرة من مكانة أخيهم يوسف في قلب أبيه، وكانت النتيجة هي أن بيع يوسف لعزيز مصر.
وهكذا انتقل من فلسطين، أرض أبيه يعقوب، إلى مصر.. وبدأ الارتباط التاريخي بين بني إسرائيل ومصر.

ثم حدث ما هو معروف: سجن يوسف، ثم دعوته لاثنين من المساجين أن يتركوا دين الوثنية والأرباب المتعددة وأن يدخلوا في دين الإسلام، ثم إعجاب الملك به وظهور براءته من التهمة التي تم إلصاقها به.
وقد تتابعت أحداق القصة المعروفة، فتم إنقاذ مصر من سنوات المجاعة، ووصل يوسف إلى منصب العزيز، ودعا إخوته وأهله للقدوم إلى مصر. فسكن يعقوب وأبناء إسرائيل في أرض مصر التي تشرفت باثنين من الأنبياء في نفس الوقت: يوسف وأبيه.
وقال يوسف عزيز مصر لبني إسرائيل الجملة المشهورة: ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين.

ويقال أن مُلك مصر خلال تلك الأحداث كان في يد قبائل الهكسوس. وإن كان هذا صحيحا فسينتج عنه أن فرعون وقومه كانوا أيضا من الهكسوس، لأن "مؤمن آل فرعون" ربط بين الأسرة الحاكمة أيام يوسف والأسرة الحاكمة أيام موسى، فقال لقوم فرعون:
"ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات فما زلتم في شك مما جاءكم به حتى إذا هلك قلتم لن يبعث الله من بعده رسولا"

***

بعد موت يوسف وتعاقب الحكام، صعد فرعون للحكم وجاهر بالكفر، واستعبد أبناء النبي إسرائيل، أي القبائل الاثني عشر الساكنة بمصر. فأرسل الله موسى بالمعجزات كي يدعو فرعون وقومه إلى أمرين:
- الإيمان بالله
- ترك الحرية لبني إسرائيل في أن يخرجوا من عبودية مصر وأن يهاجروا للشام التي وعدهم الله بها.
لكن فرعون وجنوده وكبراء قومه رفضوا هذا، وخافوا أن إطلاق بني إسرائيل سيؤدي لإضعاف هيبة فرعون بل وربما خروج السلطة من يدهم تماما.
وعندما أظهر موسى بعض المعجزات ظن سحرة فرعون أن موسى وهارون منافسان للسحرة ويريدان الاستئثار بعقول الشعب.
فالسحرة يخدعون العوام ويتحكمون فيهم بالأوهام والحيل، وظنوا أن الأخين يستخدمان نفس نوعية الحيل.
لكن لما حدثت المواجهة في يوم الزينة تبين للسحرة بوضوح تام أن معجزات موسى ليست حيلا سحرية، بل خوارق حقيقية لا يمكن أن تصدر إلا بأمر الإله الحقيقي المتحكم في الكون والمادة وقوانين الطبيعة.. فآمنوا برب موسى وهارون.

أما فرعون فرفض الاعتراف العلني بهذا، وماطل عندما قال له موسى: "أرسل معي بني إسرائيل".
وتتابعت أحداث القصة المعروفة إلى أن انتهت بخروج بني إسرائيل وبغرق فرعون وجنوده، وبتدمير آثار فرعون:
"ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون"
(فإن وجدنا اليوم مبانٍ عالية أو آثارا ضخمة لأحد الملوك القدماء فهو قطعا ليس فرعون المذكور في القرآن)

***

خرج موسى بالأسباط الـ 12، أي القبائل التي تناسلت من أبناء يعقوب، واتجه ناحية الأرض الموعودة.
لكن جبن الشعب عن القتال تسبب في عقابهم بالتيه في الصحراء لمدة 40 سنة، فلم يدخلوا الشام مع موسى وهارون، بل دخلها أبناؤهم مع يوشع بن نون.

ولقد كان بنو إسرائيل هم شعب الله المختار، وأفضل سكان الأرض في زمانهم، وقال الله عنهم في القرآن:
"ولقد اخترناهم على علم على العالمين"
"ولقد آتينا بني إسرائيل الكتاب والحكم والنبوة ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على العالمين"
لكن التفضيل مشروط بالطاعة، وليس "صكا أبديا لن ينتزع منهم مهما فعلوا" كما يظن اليهود.
ولهذا كان ظهور النبي محمد من وسط العرب أبناء إسماعيل (لا من وسط أبناء يعقوب كما كانت العادة) يعتبر صدمة كبيرة لليهود.. لأن هذا يعني أن اليهود تم "استبدالهم".
وحيث أن اليهود عنصريون ويؤمنون أن الأفضلية يجب أن تكون بالوراثة لا بالتقوى، فرفضوا الخضوع لرسول عربي جاء من خارج سلالة إسحق ويعقوب.

***

تأتي كلمة "الأسباط" في القرآن بمعنيين. فأحيانا تشير للقبائل الـ 12 كلها، لكن في أغلب المواضع فهي تشير لأنبياء هذه القبائل.
فلم يكن إخوة يوسف أنبياء، لكن جاء من نسلهم الكثير من الأنبياء.
وتقول التوراة أن أرض فلسطين توزعت على قبائل بني إسرائيل، لكن تم إخراج قبيلة لاوي/ليفي Levi من القسمة، لأنها قبيلة الكهنة المسؤولة عن طقوس وشعائر العبادة، وتم تعويضها بنسبة من أموال الزكاة..
ثم تم تقسيم قبيلة يوسف إلى قبيلتين، منسى وإفرايم، بحيث عاد عدد القبائل 12 مرة أخرى.

واستمرت القبائل في فلسطين مدة طويلة، تسمى في التوراة فترة عصر القضاة.. حيث لم تكن تجمعهم حكومة مركزية ولا ملك، بل كانوا يخضعون للأعراف المتعارفة بينهم والتي ورثوها عن جيل الآباء.
ويقول النص التوراتي أن أحد قضاة تلك الفترة كان شمشون. وقصته في الغالب قصة أسطورية، ناتجة عن الفولكلور والمخيلة الشعبية. وكلمة شمشون تعني: الشمس الصغيرة.

***

تصاعدت حدة النزاعات بين قبائل بني إسرائيل وبين جيرانهم من القبائل الوثنية، لدرجة أن إحدى هذه القبائل استولت على تابوت العهد، بما فيه من آثار دينية هامة.
فطلب بنو إسرائيل من أحد أنبيائهم أن يعيّن لهم ملكا، بحيث تتحول القبائل الإسرائيلية من مجرد تحالف إلى نظام ملكي يوحدهم تحت راية واحدة ويتجمعون وراءه في الحروب.
ويقال أن نبي ذلك الوقت كان يسمى صموئيل. فأوحى الله إليه أن يختار طالوت ملكا على بني إسرائيل، واسمه في التوراة "شاول Saul"
لكن طالوت لم يكن من النخبة الأثرياء، فاعترض الشعب على اختياره. فرد النبي قائلا:
"إن الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة في العلم والجسم والله يؤتي ملكه من يشاء"
وقال أيضا: "إن آية ملكه أن يأتيكم التابوت فيه سكينة من ربكم وبقية مما ترك آل موسى وآل هارون تحمله الملائكة"
وهي كرامة جعلها الله لطالوت كي ينقاد له الإسرائيليون ويعلمون أنه اختيار إلهي.

فعاد لهم التابوت بما فيه.

ثم تتابعت الأحداث المعروفة، حيث اختبر طالوت قوة تحمل الجنود، واستبعد ضعفاء الإيمان، واختار عددا قليلا
(يقال أنه كان نفس عدد الصحابة في غزوة بدر فيما بعد)
وحدثت المعركة بين الفلستيين والإسرائيليين، وظهر فيها اسم داود، الذي كان صغيرا وقتها لكن وفقه الله للانتصار على جالوت الفلستيني في حادثة شهيرة.
(والفلستيون يختلفون عن الفلسطينيين الحاليين. فالفلسطينيون عرب، أما الفلستيون فقد كانوا جزءا مما يسمى "شعوب البحر"، أي الأقوام الذين هاجروا من جزر البحر المتوسط الأوروبية إلى أرض الشام، في عصر القضاة)

وجعل الله داود نبيا، وصار خليفة للملك طالوت، واتحدت القبائل تحت إمرته في صورة دولة مركزية متحدة، وأصبح الإسرائيليون ملوكا على فلسطين بمباركة إلهية.
كان هذا حوالي سنة 1000 ق م، واستمرت المملكة متحدة وثرية وقوية بعد موت داود، إذ كان خليفته هو ابنه النبي سليمان عليه السلام.
(أما اليهود فلا يعتبرون سليمان نبيا، بل مجرد ملك من الملوك. ويزعمون أنه صار وثنيا في نهاية حياته، كعادتهم في تشويه سيرة الصالحين)
***
الأكاديميون العلمانيون يرفضون هذا السياق التاريخي للأحداث، ويقولون:
- لا توجد معجزات حقيقية ولا وحي إلهي.
- التوحيد لم يكن معروفا في بداية البشرية، ولا وجود لأنبياء مثل إبراهيم ويعقوب ويوسف.. بل دين البشرية الأصلي هو الوثنية ثم تطورت الفكرة بالتدريج إلى أن اخترع البشر فكرة "الله".
- مملكة سليمان كانت عادية، وليست بهذه القوة الواردة في النصوص اليهودية والإسلامية. فلم يتم تسخير الشياطين ولا خضعت مملكة سبأ لسليمان، ولا كان لسليمان قدرة على نقل جيشه مسيرة شهر في مجرد ساعات قليلة، ولا كان له مُلك "لا ينبغي لأحد من بعده".

وبعض هذه الآراء تسلل لبعض الأكاديميين العرب. فيقول المسيري مثلا، في مواضع متفرقة من موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية:
"لا ينبغي مع ذلك أن نظن أن دولة سليمان كانت دولة عظمى. فاقتصادها كان محدودا، ونشاطها التجاري الداخلي كان محصورا في نطاق ضيق جدا، وكانت الصناعة بدائية ومتخلفة"
"وقد تأثر التراث الديني اليهودي القديم بالتراث الديني المصري في عدة نواح، مثل عادة الختان، وفي فكرة التوحيد نفسها"
"من الواضح مثلا أن العبرانيين استوعبوا فكرة التوحيد من المصريين القدماء"
***
حوالي سنة 930 ق م انتهت المملكة المتحدة بموت سليمان، واختلف بنو إسرائيل من بعده وانقسموا.
فالقسم الشمالي ابتعد عن أورشليم والمسجد الذي بناه سليمان للرب، وتركوا أورشليم/القدس للقسم الجنوبي.
وكان القسم الشمالي يضم أغلبية القبائل، 10 قبائل من الـ 12، وأصبحوا مملكة منفصلة وعاصمتها السامرة، وبدؤوا يختلطون بالقبائل الوثنية المحيطة.
أما المملكة الجنوبية فكانت فيها بقية من إيمان، على الرغم من انحرافهم في أمور كثيرة.. وكانت تتكون من قبيلة يهوذا وقبيلة بنيامين وكهنة اللاويين.

في القرن الثامن قبل الميلاد، أي حوالي 722 ق م ، انهارت المملكة الشمالية على يد الجيش الأشوري. أما انهيار المملكة الجنوبية فتأخر إلى القرن السادس قبل الميلاد، أي 586 ق م ، وكان هذا على يد الجيش البابلي.
كان الأشوريون والبابليون أمما وثنية، سلطها الله على بني إسرائيل كعقاب على الانحراف الديني الذي ساد بين الإسرائيليين.
كان انحراف المملكة الشمالية أكبر من الجنوبية، وأصابها الدمار أولا.
غزا الأشوريون المملكة الشمالية عدة مرات، وقاموا بسبي الأشراف والأثرياء وعدد كبير من أفراد الشعب إلى أشور، فيما يعرف بالسبي الأشوري.. وتركوا الفقراء بلا قائد ولا كاهن.

عندما وصلت القبائل العشرة إلى أشور عاشوا مع سكان الامبراطورية الأشورية، واختلطوا بهم ثم ذابوا فيهم ثقافيا ونسوا ماضيهم وحضارتهم الأصلية.
ولهذا ظهرت أسطورة القبائل العشرة الضائعة Ten Lost Tribes.

أما المملكة الجنوبية فتعرضت أيضا للغزو البابلي عدة مرات، وكل مرة كان يتم سبي جزء من الأشراف والأثرياء والكهنة، إلى أن حدث في المرة الأخيرة أن دخل "نبوخذ نصر" البابلي إلى الهيكل/المعبد/بيت المقدس ودمره، وسرق الأواني الذهبية التي كانت موجودة في الهيكل منذ أيام سليمان، وقام بأسر عدد كبير من السكان، ونقلهم إلى بابل، فيما يعرف تاريخيا بـ "السبي البابلي".

لم تكن سياسة التهجير وإعادة التوطين غريبة في ذلك الزمان، حيث أن فصل الشعب عن أرض أجداده وفصل النخبة عن الشعب يؤديان لإخضاع هذا الشعب وكسره نفسيا، وبالتالي يسهل على الامبراطورية أن تتحكم فيه وأن تستغله لإعمار مناطق أخرى، دون أن يقوى على الاعتراض أو التمرد.

كانت القبائل العشرة قد فقدت خصائصها الثقافية والحضارية وذابت تماما، وبالتالي أصبح بنو إسرائيل هم: سبط يهوذا وسبط بنيامين وبعض كهنة اللاويين وبعض النازحين الشماليين الفقراء الذين كانوا قد انضموا للجنوبيين.
وحيث أن قبيلة بنيامين كانت قليلة العدد فكان من الطبيعي أنها انضمت لقبيلة يهوذا..
وهكذا تحول اسم بني إسرائيل إلى "اليهود"، نسبة إلى قبيلة يهوذا بن يعقوب.

***

عاش اليهود في بابل تحت حكم البابليين، ولم يعد لهم معبد يعبدون الله فيه ولا استقلال سياسي.
وكان معهم أنبياء يؤنبونهم على المعصية ويعدونهم بأن الحال سيتحسن إن عادوا لطاعة الله.
(أما الباقون في فلسطين فكان معهم إرميا النبي، حسب وصفه في التوراة. فلما تمردوا على الوالي الذي وضعه نبوخذ نصر، وقتلوه، خافوا من انتقام نبوخذ نصر، فقرروا الفرار لمصر. فحذرهم إرميا من هذا، لكن لم يطيعوه.
وربما كانت هذه الحادثة هي المقصودة في الآية القرآنية: ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت فقال لهم الله موتوا ثم أحياهم)

واستمر اليهود في هذا المنفى البابلي لبضعة عقود من الزمن، إلى أن انهارت الامبراطورية البابلية ووقعت في يد الفرس وقائدهم الشهير: قورش Cyrus.

واختلفت سياسة قورش المجوسي عن سياسة البابليين. فسمح للأمم المسبية أن تعود

لمواطنها الأصلية إن أرادت، وشجعهم على استعادة ديانتهم وإعادة بناء هيكلهم المدمر.
ولما بدأ اليهود في العودة، على مراحل، صار الكهنة أقوى طائفة في المجتمع اليهودي.. بعد أن فشل الملوك اليهود في الحفاظ على استقلال المملكة والدفاع عنها.
ونظر الكهنة لقورش وللفرس باحترام وتقدير، حتى أن اليهود اعتبروا قورش رجلا ربانيا ومبعوثا إلهيا.

عاد اليهود لفلسطين وأعادوا بناء الهيكل، وأصبح يسمى في كتب التاريخ: الهيكل الثاني Second Temple.
ثم بدأت فترة عزرا الكاتب Ezra.. والذي يقول مؤلفو التوراة أنه أعاد تطبيق الشريعة.

يتسرع بعض المسلمين في الحكم على عزرا، مع أن القرآن والسنة لا يعطيانا معلومات كافية عنه.
فيعتبره البعض أنه "محرف التوراة"، ويعتبره آخرون أحد الأنبياء.
ويقول بعض المفسرين أنه رجل صالح ألهمه الله استعادة النص الأصلي الضائع للتوراة.
ويراه البعض أنه هو المقصود في القصة القرآنية التي تذكر الرجل الذي مر على قرية فأماته الله مئة عام ثم أحياه.
ويرى البعض أنه هو عزير الذي قال بعض اليهود أنه ابن الله، وأن الاسم تم تصغيره من عزرا إلى عزير.
وكل هذه الأقوال هي احتمالات، ولا يمكن أن نتسرع في الحكم على الشخصية دون دليل يقيني لا يحتمله الشك.. لأن المسألة مسألة عقيدة، ولا مجال فيها للنظريات والآراء.

***

تعاقب على منصب ملك فارس كل من قورش وقمبيز وداريوس، وانتهى اليهود من إعادة بناء الهيكل حوالي 516 ق م، وصاروا إمارة تابعة للفرس.
ويحاول مؤلفو التوراة أن يوحوا للقارئ أن أغلب المسبيين عادوا للقدس بعد السماح لهم، إلا أن الواقع التاريخي يقول غير هذا.
فقد فضل كثير من اليهود أن يبقوا في بابل الفارسية، واستقروا هناك وكانت لهم مصالح تجارية وزراعية، ولم يكونوا متلهفين للعودة لفلسطين.
وهذه الجالية اليهودية البابلية أصبحت نواة لمجتمع يهودي كبير، وإن ظل مرتبطا بيهود فلسطين.
ووصل بعض اليهود لمناصب هامة في البلاط الفارسي، ومنهم نحميا، والذي له سفر باسمه في التوراة الحالية، ويقترن غالبا بسفر عزرا.

ساهم نحميا في إعادة ترميم أسوار القدس، وكان مندوب الفرس في فلسطين، وتعتبر قصته هي آخر القصص المذكورة في التوراة من ناحية الترتيب الزمني، أي حوالي سنة 450 أو 420 ق م.
ويقول اليهود أن تلك الفترة كانت فترة آخر الأنبياء، ولا يعترفون بأي نبي يأتي بعدها.
ويقولون أن أنبياء تلك الفترة كانوا زكريا وملاخي.
وزكريا هذا يختلف عن زكريا أبي يحيى. فزكريا الأول كان يعيش 420 ق م تقريبا، أما زكريا المشهور عند المسلمين والنصارى فكان يعيش بعد ذلك بأربعة قرون تقريبا، أي أيام ميلاد المسيح.

(هل فعلا لم يرسل الله أي أنبياء لبني إسرائيل ما بين فترة زكريا الأول وملاخي وفترة زكريا الثاني ويحيى وعيسى؟ أم أن أنبياء تلك الفترة قتلهم اليهود؟)
يقول كثير من الباحثين أن تلك الفترة كانت فترة تدوين نص التوراة الحالي.. أي أنها بداية التحريف.

إذ بدأ بعض الكهنة في تأليف توراة "موازية للتوراة الأصلية"، وبالتدريج كانت هناك محاولات لدمج النصين في نص واحد.
ولم تتوقف عملية الإضافة والحذف والدمج لعدة قرون.
***
استمرت تلك الفترة الفارسية إلى أن ظهر الإسكندر المقدوني، والذي أخذ فلسطين من الفرس حوالي سنة 333 ق م ، وبذلك انتقل اليهود من التأثر بالمجوس الزرادشتيين إلى التأثر بالإغريق.
بعد موت الإسكندر تم تقسيم مملكته بين قواده، وخصوصا السلوقيين والبطالمة، فأصبحت مصر بطلمية، ووقع يهود فلسطين أيضا ضمن أملاك البطالمة، إلا أنه حوالي 200 ق م تنازع السلوقيون مع البطالمة واقتنصوا منهم الشام، بما فيها فلسطين.

كان هذا القرن الثاني قبل الميلاد فترة هامة جدا في تاريخ الفكر اليهودي. فسياسيا كان اليهود خاضعين للإغريق الوثنيين، لكن دينيا كان لليهود هيكلهم وكهنتهم واستقلالهم الديني.
إلا أنه من سنن الدنيا أن ينبهر المهزوم بالمنتصر. فبدأ بعض اليهود يتشربون الثقافة اليونانية، ويقلدون طقوس الإغريق، ويتخذون لأنفسهم أسماء غربية غريبة عن الهوية اليهودية.
وطبيعي أن الحكام السلوقيين كانوا يشجعون هذا الفريق ضد الفريق الآخر الذي يريد الحفاظ على الهوية الدينية اليهودية. وبدأت بوادر الحرب الأهلية في الظهور.
حتى الكهنة انقسموا ليهود متأغرقين ويهود أصوليين.
وتم بناء ملعب رياضي على الطراز الأوليمبي الإغريقي، ووصل تقليد اليهود للإغريق لدرجة لا تطاق، حيث كانت أعراف الإغريق الاجتماعية تقول أن اللاعبين يجب أن يكونوا عرايا..
ولما كان اليهود مختونين فإن السلوقيين كانوا يسخرون منهم، حيث لا يحب الإغريق الختان ولا يمارسونه..
وهذا الضغط الاجتماعي جعل بعض اليهود يخضعون طواعية لعملية مؤلمة تقوم بتغطية مكان الختان بشد الجلد!
والسبب هو رغبتهم في الاندماج في ثقافة المحتل الإغريقي.
(وهذا التفكير شبيه بما نراه حاليا في بعض الجاليات التي تهاجر للحياة في الغرب، وتريد الاندماج تماما في المجتمع الجديد، وتقليد أعرافه وأساليب حياته)
***
وفي تلك الفترة أيضا ظهر مجتمع يهودي كبير في مصر البطلمية، خصوصا في مدينة الإسكندرية.
ويهود مصر هؤلاء صاروا مجتمعا ثالثا، بالإضافة ليهود بابل ويهود فلسطين.
وفي مصر كادوا أن ينسوا اللغة العبرية والآرامية، فاضطروا لترجمة التوراة إلى اليونانية، فيما أصبح يسمى "الترجمة السبعينية".
وقام أحد الكهنة، ويسمى أونياس، ببناء هيكل يهودي في مصر، قرب هيليوبوليس.
***
عندما اشتد الخلاف في فلسطين بين اليهود المتأغرقين واليهود المعادين للاندماج في ثقافة الإغريق، وقف السلوقيون بالقوة مع القسم الأول، وأعلنوا تحريم قراءة التوراة، والختان، وأمروا الكهنة بوضع تماثيل زيوس داخل الهيكل، وأن يتم تقديم الخنازير كقرابين.
ونتيجة هذا الضغط حدثت ثورة المكابيين الحشمونيين.

والحشمونيون هم عائلة يهودية محافظة، رفض كبيرها تدنيس المعبد بهذه الطريقة، وقام بقتل أحد الكهنة المتأغرقين، ثم فرر للجبال مع أهله وبدؤوا في التجهيز لحرب عصابات ضد الجيش السلوقي.
اشتهر أحد الحشمونيين ببطولاته ضد جيش الاحتلال، وكان اسمه يهوذا، فأطلق الناس عليه

لقب "المكبة"، أي المطرقة.. ومن هنا ظهر اسم المكابيين.
كان السلوقيون في وضع لا يحسدون عليه.. إذ يحيط بهم الفرس من العراق في الشرق، والبطالمة في مصر في الغرب، والمكابيون يتمردون في فلسطين، والرومان بدؤوا يظهرون على الساحة السياسية كقوة لها أطماع في المنطقة.
وهكذا كان المناخ مهيئا أمام اليهود كي يكافحوا وينالوا استقلالهم الديني والسياسي.
وبالفعل استطاع يهوذا المكابي دخول القدس، وقام بتطهير الهيكل. وهي واقعة صارت عيدا عند اليهود فيما بعد، ويسمى عيد الحانوكا.

لم ينهزم السلوقيون بسهولة، إلا أن إصرار المكابيين أدى في النهاية إلى حصولهم على الاستقلال حوالي 167 ق م.. وبعدها بقليل تكونت المملكة الحشمونية والتي استمرت في الحكم حوالي 100 سنة.

***

كانت بداية الحشونيين قوية، إلا أن الضعف دب في الدولة سريعا، وعادت الانحرافات وعاد التأثر بالثقافة الهيلينية الإغريقية، ثم الصراع الدموي على السلطة.
وارتكب المكابيون خطأ كانت له عواقب سيئة فيما بعد.. إذ أجبروا بعض القبائل المجاورة على التحول لليهودية، ومنها قبيلة أدوم.
والأدوميون هم شعب وثني، كان في حالة عداء تاريخية مع بني إسرائيل.. فلما انضموا للمجتمع اليهودي كان بعضهم يتظاهر فقط باليهودية.
ولما وصل أحدهم لمنصب الوزير سعى في الإيقاع بين اثنين من الأشقاء الحشمونيين، مما تسبب في إضعاف الدولة وأعطى فرصة للرومان كي يتدخلوا في شؤونها.

وبحلول سنة 63 ق م انهارت الدولة الحشمونية وأصبحت خاضعة للقائد الروماني بومبي Pompey ، وبعدها بقليل قام الرومان بتعيين أسرة حاكمة جديدة تكون تابعة لهم تبعية مطلقة، وهي أسرة هيرود.
وكان هيرود من أصل أدومي.

***

أراد هيرود الأول أن يصنع لنفسه اسما، فأمر بسلسلة من المشاريع المعمارية التي كلفت خزانة الدولة الكثير.. وأهم هذه المشاريع هو تجديد الهيكل وتوسعته.
استمرت التجديدات مدة طويلة جدا، فلم تنته خلال فترة هيرود، بل استمرت خلال عهود خلفائه. فبدأ العمل في القرن الأول قبل الميلاد واستمر بعد الميلاد.
وعندما كان عيسى عليه السلام يعظ اليهود، حوالي سنة 30 م، كان هيكل هيرود لا يزال منطقة عمل وبناء.
بل يقال أنه عندما دمر الرومان الهيكل سنة 70 م كانت اللمسات الأخيرة لم يمر على إنهائها سوى بضعة سنوات!

***

في ذلك العهد انقسم اليهود لفرق كثيرة، أشهرها هم الصدّوقيون والفرّيسيون.
أما الصدوقيون فكانوا متحكمين في الهيكل وموارده المالية، وسادت فيهم نزعة مادية دنيوية، واهتمام بالتفاصيل الشكلية، أما من ناحية العقيدة فكانوا لا يؤمنون بالبعث، بل ينفون إمكانية قيام الموتى للحساب. ومع ذلك كانوا الكهنة الرسميين!
أما الفريسيون فقد اتجهوا للشعب، وكانوا يؤمنون بالبعث ويتدارسون التوراة، وفيما بعد صاروا نواة الحاخامات التلموديين.. حيث أن الصدوقيين كانت مكانتهم معتمدة على طقوس الهيكل وعلى موارده المادية، فلما انهدم الهيكل فقدوا مكانتهم، فقام الفريسيون بملأ هذا الفراغ.

***

عندما تمرد اليهود على الرومان اندلعت الحرب الأولى، والتي كانت نتيجتها أن دمر القائد

الروماني تيتوس Titus الهيكل تماما سنة 70 ميلادية، وقمع اليهود بعنف.
وينظر البعض لهذه الأحداث على أنها عقاب إلهي لليهود على كفرهم بعيسى.

وقد عايش المؤرخ اليهودي يوسيفوس هذه الحرب، بل كان طرفا مؤثرا فيها.. إذ كان في البداية قائدا لكتيبة يهودية، ثم لما رأى قوة الرومان حاول إقناع اليهود بالاستسلام، فلما لم ينجح قرر أن ينضم لجيش الاحتلال الروماني، وعقد صفقة مع القائد الذي سيصبح فيما بعد أحد القياصرة.
والكثير من أحداث تلك الفترة وتلك الحرب لا نعرفها إلا من رواية يوسيفوس لها في كتبه.. ولهذا هي محل شك.
فكتبه مكتوبة تحت رعاية سادته الرومان، وكان يريد فيها تجميل صورته وتبرير أفعاله، ونفي صفة "الخيانة" عن نفسه.
ومما نعرفه عن شخصية يوسيفوس أنه كان ماكرا.. إذ لما تيقنت كتيبته اليهودية من أنها ستقع في أسر الرومان لا محالة قرروا الانتحار..
وخاف هو من الاعتراض علانية، فتظاهر بالقبول، ثم قام بترتيب العملية حسابيا في شكل متوالية، بحيث يقوم الجنود بالعد التدريجي ثم من يقع عليه الدور يقتل زميله المجاور له، كي يقلل هذا الترتيب من رهبة الانتحار.
لكن يوسيفوس كان قد اختار أول شخص في هذه المتوالية بعناية، بحيث لم يقع الدور على يوسيفوس إلا بعد أن مات الآخرون وبقي معه شخص واحد فقط.. فأقنعه يوسيفوس بعدم الانتحار، بل بأن يسلما أنفسهما للرومان!
***
انتهت الحرب الأولى بهزيمة اليهود، بسبب صراعاتهم الداخلية وقوة الرومان، إلا أن النار كانت لا تزال مشتعلة تحت الرماد.
ففي سنة 115 م اندلعت سلسلة جديدة من التمردات ضد الرومان، لكن بين يهود المهجر، وسرعان ما تم قمعها. وهي تعرف بحرب Kitos
ثم في سنة 135 تقريبا اشتعلت الحرب الثالثة والأخيرة، حيث شحن اليهود كل طاقاتهم كي ينتقموا من الرومان الذين هدموا الهيكل. وكان قائد هذا التمرد يسمى باركوخبا، أي ابن الكوكب.
وكان قد أعلن أن المخلص الذي سيخلص اليهود من ظلم الرومان، وتجمع حوله عدد هائل من الأنصار في فلسطين، وكبد الرومان خسائر كبيرة، لكن الثورة انتهت بالهزيمة.
وهنا أعلن الرومان طرد اليهود من القدس، ثم مسحوا اسم "يهود" من الخرائط الرسمية ووضعوا بدلا منه اسم "فلسطين".
وتشتت اليهود في البلاد.. فانضم بعضهم ليهود بابل، واستقر بعضهم في منطقة الجليل الفلسطينية، وتوزع الآخرون في أرجاء الامبراطورية الرومانية. لكن عدد اليهود بشكل عام لم يكن كبيرا، حيث أن سلسلة الحروب قللت عددهم وكادت أن تفنيهم.

وخلال هذه الأحداث كانت مسيحية عيسى تحولت إلى مسيحية بولس ومؤلفي الأناجيل..
وكانت ديانة مضطهدة في البداية ولم تنل الدعم الرسمي بعد، حيث سيحدث هذا في عهد الإمبراطور قسطنطين في القرن الرابع الميلادي.
***
أما اليوم فإن اليهود منقسمون ثلاثة أقسام: قسم يعيش في أمريكا، وقسم في إسرائيل، والقسم الثالث موزع بين دول العالم.
هذا من الناحية السكانية.
أما من الناحية الدينية فإن إسرائيل على سبيل المثال هي دولة علمانية في الحقيقة، لا دولة دينية كما يقال في بعض وسائل الإعلام العربي.
وقد تحولت اليهودية فيها إلى مجرد مظاهر قومية ومناسبات اجتماعية، دون تطبيق حقيقي

للشريعة اليهودية التلمودية الصارمة.
وبها أكبر نسبة شواذ جنسيا في المنطقة، والمجتمع يعطيهم نفس الحرية التي ينالوها في مجتمعات أوروبا أو أمريكا.
أما المتدينون فعلا فأقلية، ولهم أساليب حياة مختلفة عن باقي المجتمع الإسرائيلي العلماني.

أما في الغرب فإن اليهود لهم ثلاثة أقسام شهيرة: الأرثوذكس الأصوليون، والمحافظون، والإصلاحيون.
وقام الإصلاحيون بتغيير كلمات الصلاة كي تتناسب مع القيم الليبرالية الجديدة.
وكثير من اليهود أصبحوا مثل طائفة الصدوقيين القديمة، ينكرون البعث والقيامة، مع أن التلمود ينص صراحة على ضرورة الإيمان بالبعث.

الحانوكا

في القرن الثاني قبل الميلاد انتصر المكابيون اليهود على السلوقيين الإغريق، واستعادوا الهيكل وطهروه من تدنيس الإغريق له.
وقرر كهنة اليهود أن يجعلوا هذه الحادثة عيدا سنويا، أسموه عيد التجديد أو التدشين: حانوكاه Hanukkah
وقد وصلتنا قصة المكابيين وعيد الحانوكا عن طريق سفر المكابيين الأول وسفر المكابيين الثاني.. وهي أسفار إضافية كتبها اليهود ولم يضموها لأسفار التوراة.
الكاثوليك والأرثوذكس اعتبروا هذين السفرين نصوصا تستحق الضم لأسفار التوراة، أما البروتستانت فلم يوافقوا على هذا.

تحكي هذه النصوص تاريخ صراع المكابيين مع السلوقيين، وتقول أن يوم تجديد الهيكل وتطهيره كان الخامس والعشرين من شهر كسلو العبري.
إلا أن مؤلفي التلمود، بعد هذه الأحداث بقرون، أضافوا للقصة بعدا إعجازيا لا نجده في أسفار المكابيين ولا في تاريخ يوسيفوس.
فقد جاء في التلمود، في Shabbat 21b، أن المكابيين عندما استعادوا الهيكل وجدوا أوعية زيت الزيتون – المستخدمة في إضاءة شمعدان المينوراه Menorah – غير طاهرة.. ولم يبق منها طاهرا إلا ما يكفي لإضاءة ليلة واحدة فقط. وفي شريعتهم أن الشمعدان يجب أن يظل مضيئا.
فبدؤوا في تصنيع زيت طاهر جديد.. وكانت المعجزة أن الزيت الذي كان سيكفي لليلة واحدة فقط حلت عليه البركة الربانية فاستمر مضيئا ثمانية أيام، إلى أن أتموا عملية تصنيع الزيت الجديد.
ولهذا يقولون عن الحانوكا أنه عيد الأنوار، ويحتفلون به كل سنة لمدة 8 أيام متصلة، ويشعلون فيه شمعدانا مخصوصا بهذا العيد، ومكون من 8 أفرع، بالإضافة لفرع تاسع في المنتصف.
وكل ليلة يستخدمون الفرع التاسع لإيقاد فرع من الفروع الثمانية.

ومع أن الحانوكا ليس من الأعياد اليهودية القديمة المذكورة في التوراة، إلا أن أهميته ازدادت مع مرور الوقت. فهو ذكرى لنصر عسكري على الاحتلال الأجنبي، ولهذا تهتم به دولة إسرائيل.
أما في الغرب، وخصوصا في الولايات المتحدة الأمريكية، فإن للحانوكا مكانة خاصة ومميزة، لأنه يأتي غالبا في شهر ديسمبر (وإن كان التقويم العبري لا يسير موازيا للتقويم الجريجوري الميلادي، بل يختلف من سنة لسنة)
وديسمبر هو شهر احتفالات الكريسماس. فأراد اليهود الغربيون ألا يشعر أطفالهم بالغربة أثناء موسم الكريسماس، (لأنه عيد للنصارى فقط)، فجعلوا طقوس الحانوكا تشبه طقوس الكريسماس، كنوع من الاندماج الثقافي والاجتماعي.

الهيكل

كان الهيكل الأول مسجدا للرب، بناه سليمان عليه السلام في القرن العاشر قبل الميلاد.
وبعد هذا بقرون دمره البابليون، بقيادة نبوخذ نصر، سنة 586 ق م، أي في القرن السادس قبل الميلاد.
ثم أعاد اليهود بناءه بعد أن عادوا من السبي البابلي.. ويقال أن البناء اكتمل في 516 ق م.
وعندما كان اليهود تابعين سياسيا للرومان، كانت الأسرة اليهودية الحاكمة التابعة لروما هي أسرة هيرود، والذي أراد تجديد شكل الهيكل الثاني وتوسعته، وصرف على ذلك مبالغ طائلة.
إلا أنه في 70 ميلاديا اقتحم الرومان المكان، أثناء تمرد اليهود على روما، ودمروا الهيكل.

***

وتسرد التوراة الكثير من التفاصيل عن هيكل سليمان، مع الاهتمام الشديد بتدوين الطول والعرض والأعمدة والأسقف والساحات والمباني الملحقة وأماكن التضحية بالقرابين وقدس الأقداس وأحواض ماء التطهر، وغير هذا الكثير.

***

عندما تحول الرومان إلى المسيحية كان لمكان الهيكل عندهم أهمية ثانوية.
فالمكان يمثل اليهود، والذين كانوا يعتبرون "قتلة المسيح"، من وجهة نظر النصارى.
وتحول الاهتمام إلى كنيسة القيامة.
وفي تلك الفترة البيزنطية استمر منع اليهود من دخول القدس، إلا في يوم واحد في السنة، يزورون فيه المكان بسرعة ويبكون على حالهم ثم يرحلون.
إلا أن الوضع تغير فجأة، وإن كان تغيرا قصير العمر.
إذ اشتبك الفرس مع الروم في سلسلة حروب، وانهزم القيصر الرومي أمام كسرى الفارسي، واستولى الفرس على القدس.
كان الرسول يعيش في مكة في تلك الفترة، ونزلت الآيات الشهيرة من سورة الروم:
"غُلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين"

وخلال تلك الفترة الفارسية القصيرة انتهز اليهود الفرصة وتحالفوا مع الفرس ضد نصارى القدس، واستعدوا لبناء هيكل جديد، وهدموا عددا من الكنائس.
لكن الإدارة الفارسية رأت أن اليهود مثيرون للمشاكل، فتحالفت مع الأغلبية المسيحية، ثم انهزم الفرس فيما بعد وعادت المدينة لسلطة الروم، ودخلها القيصر هرقل.

أعطى هرقل الأمان لليهود، لكن المسيحيين أرادوا الانتقام من اليهود، فأقنعوه بقتلهم كلهم في مذبحة كبرى، وقالوا أنهم سيصومون صياما سنويا خاصا كي يكفروا عنه نقضه لعهد الأمان.
وهذا الصيام معروف بين الأقباط اليوم بـ صيام هرقل.
وقام النصارى بهدم ما حاول اليهود بناءه، ثم حولوا مكان الهيكل لمستودع قمامة.

***

في رحلة الإسراء، عندما انتقل الرسول بالبراق إلى القدس، من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، لم يكن هناك مبنى فعلي اسمه المسجد الأقصى..
بل المكان كله كان يعتبر ساحة ومسجدا.
ثم لما فتح عمر بن الخطاب القدس، وزار المكان، وجده في حالة يرثى لها، بسبب تحويله لمكان للقمامة.. فنظفه بثوبه، وأمر ببناء مكان بسيط للصلاة.
وكان يصحبه كعب الأحبار، وهو أحد كبار حاخامات اليهود الذين دخلوا الإسلام. فسأله عمر أن يقترح له مكانا للصلاة في ساحة المسجد، فاقترح كعب أن تكون الصلاة في القسم الشمالي، بحيث يجمع عمر في اتجاه القبلة كلًا من صخرة بيت المقدس والكعبة.

لكن عمر رفض هذا الاقتراح، وصلى في القسم الجنوبي، بحيث صارت الصخرة وراء ظهره وصار الجنوب (أي اتجاه مكة والكعبة) أمامه.

ويسود اليوم بين بعض المسلمين خطأ شائع، إذ يصفون منطقة الأقصى بأنها حرم.. في حين أن الحرمين اثنان فقط: الحرم المكي والحرم المدني.

والمباني الموجودة في ساحة الأقصى، والمعروفة بـ مبنى المسجد الأقصى ومبنى مسجد قبة الصخرة، كان الأمويون هم من أنشأها، ثم قام السلاطين والخلفاء فيما بعد بترميمها وتجديدها على مر الزمن.

***

اتسمت مملكة سليمان عليه السلام بالرخاء والثراء، ولما أراد بناء الهيكل/المسجد استورد أفضل أنواع الأخشاب.
ويقول مؤلفو التوراة أنه اشتراها من حاكم مدينة صور Tyre المسمى حيرام.
وحيرام هو شخصية معروفة تاريخيا، وكان معاصرا لسليمان.
وأرسل حيرام مع الأخشاب أحد الصناع الحكماء المتخصصين في السبك وعمل المصوغات والزينة، والتعامل مع الذهب والنحاس والمعادن.
وتقول التوراة أن اسمه كان حيرام أيضا.

ولا أعرف هل كان حيرام هذا شخصية حقيقية أم لا.
وسبب الشك هو أن نص التوراة ينسب له عدة أعمال وصناعات نعرف من القرآن أن الجن هم من قاموا بها!
فقد سخر الله الشياطين لسليمان، وصنعوا له الكثير من المصنوعات المعدنية والإنشائية:
"وأسلنا له عين القطر ومن الجن من يعمل بين يديه بإذن ربه
ومن يزغ منهم عن أمرنا نذقه من عذاب السعير
يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات"
"فسخرنا له الريح تجري بأمره رخاء حيث أصاب
والشياطين كل بناء وغواص
وآخرين مقرنين في الأصفاد"
"ومن الشياطين من يغوصون له ويعملون عملا دون ذلك"

أما التوراة فلا تذكر تسخير الشياطين لسليمان. وقصص سليمان مع الشياطين التي يعرفها اليهود موجودة في كتبهم الأخرى، كالتلمود.. وبها الكثير من التحريف.
ولا أعلم لماذا حذف مؤلفو التوراة قصة تسخير الشياطين، ونسبوا أعمالهم إلى حيرام مبعوث الملك حيرام!

***

تقول التوراة أن حيرام كان بارعا في أعمال النحاس، فصنع العمودين الموضوعين أمام باب الهيكل، وزينهما بزخارف، وأسمى العمود الأيمن: ياكين، والأيسر: بوعز.
واختلف المفسرون في تفسير الكلمتين، لكن يقال أنهما عبارة عن جملة واحدة تعني: يقيم بقوة.

وعمل أيضا حوضا ضخما ومزخرفا، يقال له في التوراة: البحر المسبوك. وكان يوضع في ساحة الهيكل.. وتقول التوراة أنه كان على شكل ثيران.
وتنسب له التوراة أيضا عمل "قدور ومراحض" لغسل الأضحيات قبل حرقها على المذبح كقرابين.

***

اهتمت جماعة البنائين الأحرار، الماسون FreeMasons، بشخصية حيرام.. فحاكت حولها وحول هيكل سليمان قصصا كثيرة، وأدخلوها في طقوس المحفل الماسوني.
لكن شاع بينهم خطأ في اسم حيرام، لضعف معرفتهم باللغة العبرية ولاعتمادهم على الترجمات الإنجليزية للتوراة.
فيجعلون اسمه في الطقوس: حيرام أبيف Abiff.
والحقيقة هي أن كلمة "أبيف" ليست اسما لحيرام في النص التوراتي، بل مجرد قراءة خاطئة لكلمة "أبوه".
فكلمة "أب" تأتي أحيانا بمعانٍ مختلفة عن معناها الشائع، وهذا يعرفه دارسو العبرية. ومن ضمن هذه المعاني: كبير المستشارين، أو رئيس العمال. وهي كلمة احترام وتقدير.
وبهذا يتضح معنى عدة جمل وردت في التوراة ووصفت حيرام بأنه "أبو الملك حيرام" و"أبو سليمان".
أي أنه كان كبير العمال والصناع عند حيرام الملك، ثم انتقل لسليمان فصار عنده في نفس المنصب.

وقد سبب هذا بعض الإرباك للمترجمين، فاحتاروا في ترجمة هذه الجمل.. ولهذا اختاروا أن يجعلوا كلمة "حيرام أبي" هي اسم مركب من كلمتين. أي ظنوا أن حيرام كان اسمه حيرامأبي.
لكن لما ورد الاسم في موضع آخر بصيغة "حيرام أبوه" احتاروا في ترجمتها، لأنها تكشف خطأهم الأول في الترجمة.. فقاموا من أنفسهم بحذف الضمير وتغييره إلى "حيرام أبي"، متجاهلين النص العبري!
ونجد هذا واضحا في بعض الترجمات العربية لـ العدد 16 من الإصحاح 4 من سفر أخبار الأيام الثاني.

ووقع الإنجليز القدماء والماسون في نفس الخطأ، فنظروا للكلمة العبرية التي تقول:
"حيرام أبيو" (أي: حيرام أبوه)، وترجموها: أبيف.
(حيث أن حرف الواو العبري ينطق فاف vav)
ومن هنا ظهرت كلمة "حيرام أبيف" عند الماسون، وتحولت إلى شخصية هامة في كتاباتهم وأساطيرهم وطقوسهم.

الشيطان

تمتلئ صفحات التلمود والمدراش والزوهار بقصص عن الشياطين.. أما مؤلفو التوراة فلم يذكروا الشيطان إلا في مواضع نادرة، تعد على أصابع اليد.
ففي حين أن القرآن يحذر الناس بشدة من عدوهم إبليس، ويركز على الاستعاذة منه وعلى تجنب الوقوع في مصيدته، إلا أن التوراة الحالية لا تنظر للشيطان بنفس الطريقة.

في قصة آدم وجنة عدن تسند التوراة دور الإغراء إلى شخصية الثعبان، وتصفه بأنه أذكى الحيوانات.. أي تستبعد تماما كلمة شيطان.. ولا تذكر ولا كلمة واحدة عن رفض الشيطان السجود لآدم.

عقيدة اليهود بخصوص الشيطان هي أنه أحد مخلوقات الملأ الأعلى.. ويتعجبون كثيرا عندما يسمعون المسلمين والنصارى يصفون الشيطان بأنه عاص لله أو متمرد!
ومع أنهم يقرون بأنه مخلوق يحاول إغواء البشر وإيقاعهم في الخطيئة، إلا أنهم يعتبرون هذا الإغواء هو وظيفته التي كلفه الرب بها، لاختبار إيمان الناس والتأكد من أن طاعتهم للرب حقيقية وعن اقتناع.
ويقولون أنه زميل للملائكة، وليس "عدوا لله" كما يصفه المسلمون والنصارى.

جاءت هذه العقيدة بسبب سفر أيوب الموجود ضمن أسفار التوراة.
فمؤلفو هذا السفر الأدبي الشهير أخذوا قصة النبي أيوب ثم توسعوا فيها جدا، بحيث صارت حوارا بين عدة أصدقاء عن الخير والشر، والثواب والعقاب، وهل ظلم الرب أيوب عندما أصابه بالمصائب في ماله وجسده أم لا.
ويبدأ السفر في شكل قصة، فيقول أن الرب اجتمع بملائكة الملأ الأعلى، وكان الشيطان حاضرا الاجتماع. وأن الرب تباهى أمام الشيطان بطاعة أيوب وبعبادته، فقال الشيطان: هو لا يطيعك مجانا بلا مقابل، بل لأنك رزقته مالا كثيرا وباركت له في أهله.. فإن سلبت منه هذا بالمصائب فسترى منه الكره والسخط.
فقال الرب: إذن فإني أسمح لك بأن تصيب ماله وأهله بالمصائب، لتظهر حقيقة إيمانه.
ولما حلت بأيوب المصائب صبر عليها ولم يشتكِ أو يتبرم.
ثم اجتمع الرب مع الشيطان والملائكة مرة أخرى، وتباهى بصبر عبده أيوب. إلا أن الشيطان قال أن الاختبار لم يكن قويا بما فيه الكفاية.. فأيوب فقد المال والأهل لكن لم يفقد الصحة. فسمح له الرب بأن يصيبه بالأمراض، لكن دون أن تصل لدرجة الوفاة.
ومع ذلك صبر أيوب على المرض. وجاءه ثلاثة من أصدقائه ليزوروه، وناقشوه في سبب وجود المصائب في العالم، وفي كيفية تفسيرها دينيا حين تصيب الصالحين. ثم دخل صديق رابع وألقى خطبة طويلة إضافية.
وفي النهاية تدخل الرب أيضا بخطبة طويلة، مليئة بالتعبيرات الشعرية.
ورضي عن أيوب وأعاد له المال والأهل والصحة.

قد تبدو هذه القصة شبيهة بقصة أيوب القرآنية، المذكورة في سورتي ص والأنبياء، خصوصا آية:
"واذكر عبدنا أيوب إذ نادى ربه أني مسني الشيطان بنُصب وعذاب"
لكن المعروف بين المسلمين أن الشيطان لا يملك إلا الوسوسة، وليس له سلطان على البشر، وخصوصا عباد الله الصالحين.
فصعب قبول أن مصائب أيوب كانت بفعل الشيطان.
ولهذا قال بعض المفسرين القرآنيين أن ما اشتكى منه أيوب لم يكن المصائب، فهذه قد صبر عليها. ما آذاه فعلا هو الأفكار التي وسوس إليه بها الشيطان.

"ما ذنبك كي يصيبك الله بكل هذا؟"، "عليك أن تشتكي وتتألم، ولا تكتفي بالصبر الصامت"، وهكذا.
وكان هذا هو التعب والعذاب الذي لاقاه من الشيطان خلال فترة مرضه.

لكن هذا التفسير هو أحد الاحتمالات التفسيرية. فهناك من المفسرين من قال أن الشيطان فعلا أصاب أيوب عليه السلام بمرض جسدي. كما يحدث مثلا من تعرض الأنبياء للسحر، أو من تعرض بعض الناس للمس الشيطاني المسبب لبعض حالات الصرع.

لكن حتى لو كان هذا هو التفسير الصحيح، فتظل صورة الشيطان عند المسلمين مختلفة تماما عن صورته عند اليهود.
فهو ليس "من الملأ الأعلى"، وليس "مطيعا للرب ويؤدي وظيفة كلفه الرب بها"، بل معاند لله، ويعيش الآن في الأرض، وغير مسموح له ولا لباقي الشياطين أن يصعدوا للسماء وأن يحضروا "اجتماعات ربانية".

***

كلمة شيطان في العبرية هي "سطن שטן"، وتعني خصم وعدو.
وليست مقتصرة على الشيطان، بل مستخدمة في التوراة بمعنى أي خصم أو أي عدو، حتى لو كان عدوا عسكريا بشريا عاديا.
وقد دخلت الكلمة للإنجليزية فصارت Satan.

اعتقد مؤلفو التوراة أن الشيطان يشبه "النيابة" في المحاكمات القضائية. فيقف أمام الرب ليقدم أدلة الاتهام ضد الشخص.. لكنه ليس في حالة عداء مع القاضي.
وظهر هذا في الإصحاح 3 من سفر زكريا بن برخيا.. حيث يقول النص أن زكريا رأى رؤيا، وكانت بخصوص أحد كبار الكهنة اليهود:
"وأراني يهوشع الكاهن العظيم واقفا أمام ملاك الرب، والشيطان واقفا عن يمينه ليتهمه. فقال الرب للشيطان: زجرك الرب يا شيطان.. زجرك الرب الذي اختار أورشليم"
أي أنه في المحاكمة الإلهية للكاهن، رفض الرب قبول اتهامات الشيطان للكاهن، وقرر أن يعفو عن الكاهن وأن يغفر له خطاياه.
وفي المزمور 109 ، الذي ينسبه مؤلفو التوراة لداود، نجد دعاء بالهلاك على أحد الأشخاص. وهو دعاء شديد اللهجة، إذ يرد فيه مثلا:
"لتكن أيامه قليلة، وليتول منصبه آخر. ليكن بنوه يتامى وامرأته أرملة"
وضمن هذا السياق تأتي جملة:
"أقم عليه شريرا، وليقف شيطان عن يمينه. إذا حوكم فليخرج مذنبا"
أي أن تصور اليهود عن الشيطان كان أنه "ممثل الادعاء والنيابة" في محاكمات الحساب الإلهية التي تعقد لتحديد مصير الشخص.

ويبدو أنه انتشرت بين اليهود فكرة تقول أن هذه المحاكمات السماوية تحدث أثناء حياة الشخص.. ويكون عقابه – إن ثبتت عليه التهمة – هو أن يموت!
فاليهود متمسكون بالحياة الدنيا جدا، ويتمنى الواحد منهم أن يعيش لأطول فترة ممكنة.
وينظرون للموت على أنه عقاب إلهي، خصوصا إن مات الإنسان قبل الوصول لسن الشيخوخة.
ولهذا ربطوا بين الشيطان وبين ملك الموت.
فأصبح الشيطان عندهم هو نفسه قابض الأرواح.
ويظهر هذا في التلمود، في Baba Bathra 16a ، حيث يقول أحد الحاخامات:
الشيطان هو ملك الموت. يهبط من السماء ليغوي الشخص، ثم يصعد للرب ويثير سخطه على هذا الشخص، فيسمح الرب للشيطان بإماتة الشخص.

وفي نفس هذه الصفحة من التلمود، أي 16a، يقول النص أن أحد الحاخامات أوضح للجالسين أن الشيطان كانت نيته حسنة في إغواء أيوب.. فظهر الشيطان وقام بتقبيل قدم هذا الحاخام!

***

في الكنيسة الكاثوليكية منصب يسمى "محامي الشيطان" The Devil's Advocate ومهمته تختص بعملية إعلان قداسة شخصية معينة.
فعندما تريد الكنيسة أن تعطي لقب "قديس" لأحد الأشخاص، كالأم تيريزا مثلا أو أحد المؤلفين القدامى الذين دافعوا عن الكاثوليكية، فإنها تعقد جلسة، ويتم تقديم شهادات الشهود أو المرويات المادحة للشخص..
كأن تكون له "معجزات وكرامات"، أو يكون مات مضحيا من أجل الكنيسة، وهكذا.
ثم تكون مهمة محامي الشيطان هي أن يحاول الرد على هذه الشهادات، وأن يشكك فيها، كي تظهر الحقيقة وتتأكد الكنيسة إن كان الشخص مستحقا للقب قديس Saint أم لا.
وواضح أن هذا المنصب، محامي الشيطان، هو استمرار للتصور اليهودي عن وظيفة الشيطان ومهمته.

***

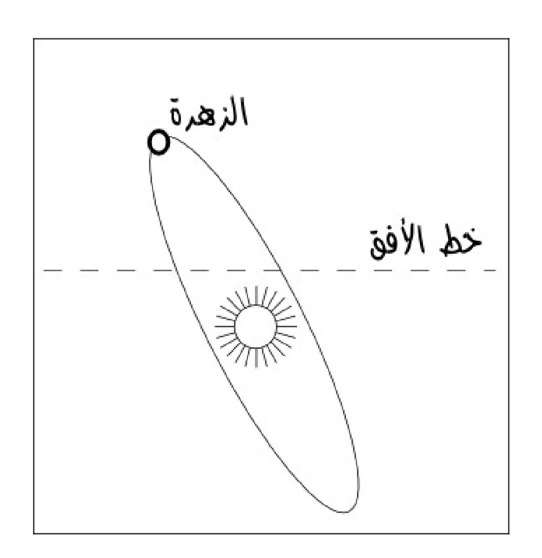
يظن النصارى أن الشيطان اسمه لوسيفر Lucifer، لكن هذا في الحقيقة خطأ شائع، وناتج عن فهم خاطئ للإصحاح 14 من سفر إشعياء.
فالتوراة لم تستخدم كلمة لوسيفر إطلاقا، بل نجدها في الترجمة اللاتينية للتوراة، والتي اعتمدتها الكنيسة الكاثوليكية.
كلمة لوسيفر هي كلمة لاتينية، ويقصد بها كوكب الزُهَرَة Venus عندما يظهر في جهة الشرق قبل شروق الشمس مباشرة.
أما حرفيا فإن لوسيفر تعني "جالب النور" أو "حامل الشعلة".. حيث أن ظهور كوكب الزهرة اللامع في الأفق الشرقي يعني أن شروق الشمس سيتبعه بعد قليل.. فكأن الزهرة "جلب نور الشمس".

فكيف ظهر للوجود الخطأ الشائع الذي يقول أن الشيطان موصوف في التوراة بكلمة لوسيفر؟
الإجابة هي الفهم الخاطئ لجملة في سفر أشعياء.
ففي هذا السفر قطعة أدبية موجهة كهجاء وشماتة ضد ملك بابل، وتسخر من تطلعاته وجبروته وكيف أنه في النهاية سقط وانهزم.
والنص العبري صريح في أن المقصود في القطعة هو ملك بابل، والسياق كله واضح جدا.. لكن كثيرا من النصارى قديما ظنوا أن القطعة تتحدث عن الشيطان.
وفي تلك القطعة الأدبية يسخر المؤلف من ملك بابل، ويقول له: كنت ملكا عظيما وذا مال وسلطة، ثم انتهيت وضيعا ومهزوما.
"كيف سقطت من السماء أيتها الزهرة، ابن الصباح!
كيف حُطمت إلى الأرض، يا قاهر الأمم"
إشعياء 14: 12
ولما ترجم النصارى هذه الجملة من العبرية إلى اللاتينية وضعوا كلمة لوسيفر كترجمة لكلمة الزهرة.. وهي ترجمة سليمة.
ثم لما ترجموا النص من اللاتينية إلى الإنجليزية لم يضعوا كلمة Venus كما كان متوقعا، بل تركوا الكلمة اللاتينية كما هي. فصار النص إنجليزيا لكن كلمة كوكب الزهرة موضوع مكانها كلمة لوسيفر Lucifer.
وقد سبب هذا سوء فهم عند كثير من القراء. وانتشرت كلمة لوسيفر على أنها اسم للشيطان، مع أنها مجرد اسم لكوكب الزهرة عندما يظهر قبل الشروق.

وفلكيا، فإن كوكب الزهرة يظهر قريبا من الشمس، ويدور حولها، وبالتالي لن تراه أبدا فوق رأسك في سماء الليل..
فهو يظهر إما قبل الشروق مباشرة، قريبا من خط الأفق الشرقي.. أو بعد الغروب مباشرة، قريبا من خط الأفق الغربي.
وفي الحالة الأولى يسمى "نجمة الصباح"، وفي الحالة الثانية يسمى "نجمة المساء".

وكان قدماء اليونان والرومان يعبدون هذين الظهورين، كعبادتهم لباقي الكواكب، لكن نجمة الصباح كانت أشهر من نجمة المساء.
وأطلقوا على نجمة الصباح اسم Phosphorus بالإغريقية و Lucifer باللاتينية.
أما نجمة المساء فكان اسمها Hesperus و Vesper.

وعندما يكون كوكب الزهرة في مرحلة نجمة الصباح فإنه يظهر صاعدا من تحت خط الأفق، في جهة الشرق، في الساعات الأخيرة من الليل، عندما يوشك الفجر على الظهور..
ولكن سرعان ما تظهر الشمس أيضا من جهة الشرق، فيطغى ضوؤها على نور الكوكب، فيختفي الزهرة في ضوء النهار.



أما في الأيام التي يكون فيها الكوكب في مرحلة نجمة المساء، فإن الكوكب يكون مختفيا في ضوء النهار، لكن عندما تغيب الشمس تحت خط الأفق الغربي يحل الليل، وفجأة يظهر الزهرة ناحية الغرب..
إلا أنه سرعان ما يغرب ويختفي تحت خط الأفق الغربي، لأنه كوكب تابع للشمس ومرتبط بها ومداره قريب منها.

ولهذا يوصف ملك بابل في التوراة بأنه "هيلل، بن ها شحر".. أي كوكب الزهرة ابن الصباح، الذي يرتفع لفترة ويلمع، لكن سرعان ما يختفي.

***

وكما حدث مع الإصحاح 14 من سفر إشعياء، حدث مع الإصحاح 28 من سفر حزقيال.
ففي إشعياء كانت الفقرة موجهة ضد ملك بابل، ففهمها البعض فهما خاطئا وقالوا هي عن الشيطان.
أما في حزقيال فتوجد فقرة موجهة ضد ملك صور Tyre، وهذا مذكور في النص بشكل صريح.. لكن الفهم الخاطئ جعل البعض يقول أنها موجهة للشيطان.

وقد يكون سبب انتشار هذا النوع من الأخطاء هو أن:

- بعض أسفار التوراة مكتوبة بأسلوب أدبي، مليء بالتشبيهات والاستعارات والكنايات، مما يسبب صعوبة أحيانا في فهم المقصود
- الشيطان نادر الوجود في التوراة، مما يجعل بعض القراء يتعسفون في فهم بعض النصوص، كي يربطوها به ويسدوا هذا النقص

الشخيناه

عندما يقول المسلم عن الكعبة أو عن المساجد أنها "بيت الله" فهو لا يقصد أن الله يسكن فيها حرفيا..
أما عند اليهود فقد تكونت عقيدة تقول أن الهيكل كان فعلا "مسكن الإله"، وأن "الحضور الإلهي" كان موجودا بحجرة قدس الأقداس، مع التابوت.
ويقولون أن الشِخيناه كانت تجسيد هذا الحضور الإلهي.

وهم بهذا يعطون الشخيناه قدرا أكبر من قدرها الحقيقي. فلم تكن سحابة الشخيناه "تجسدا" إلهيا، بل مجرد مخلوق ملائكي فريد.

***

كلمة "شخيناه" العبرية لم ترد في التوراة العبرية بشكل صريح، إلا أنها مشهورة في كتابات اليهود الأخرى. وهي مشتقة من معنى "سكن" أو حل في مكان.
وورد في التوراة، في الإصحاح 8 من سفر الملوك الأول، أن سليمان عندما أتم بناء بيت الرب، الذي يسميه اليهود الهيكل، جمع الشعب والكهنة للاحتفال بمناسبة وضع تابوت العهد داخل حجرة قدس الأقداس.
كان قدس الأقداس عبارة عن حجرة صغيرة، ويقول النص أنها احتوت على تمثالين على شكل اثنين من ملائكة الكروبيم، باسطي أجنحتهما بعرض الحجرة.
وتم إدخال التابوت في الوسط، فظهرت غمامة من دخان كثيف ملأت المكان.
"أدخل الكهنة تابوت عهد الرب إلى مكانه في محراب البيت في قدس الأقداس، إلى تحت جناحي الكروبين، لأن الكروبين بسطا أجنحتهما على موضع التابوت"
"لم يكن في التابوت إلا لوحا الحجر اللذان وضعهما موسى هناك في حوريب حين عاهد الرب بني إسرائيل عند خروجهم من أرض مصر.
وكان لما خرج الكهنة من القدس أن السحاب ملأ بيت الرب، ولم يستطع الكهنة أن يقفوا للخدمة بسبب السحاب، لأن مجد الرب ملأ بيت الرب.
حينئذ تكلم سليمان: قال الرب إنه يسكن في الضباب. إني قد بنيت لك بيت سكنى، مكانا لسكناك إلى الأبد"

مؤلفو التوراة يعتبرون السحاب الذي ظهر هو جزء من الإله، أي "الحضرة" الإلهية التي حلت على المكان.
أما حقيقة الأمر، إن صحت هذه الواقعة، فهي أن السكينة/شخيناه هي التي حلت على المكان. والسكينة مجرد مخلوق، لا الخالق.

***

في القرآن والحديث تأتي كلمة "السكينة" بمعنى الطمأنينة.. إلا أنها وردت أيضا بمعنى ذلك المخلوق الملائكي الذي ينزل أحيانا من السماء للأرض.
فعندما اعترض اليهود على اختيار طالوت ملكا عليهم
"قال لهم نبيهم إن آية ملكه أن يأتيكم التابوت فيه سكينة من ربكم وبقية مما ترك آل موسى وآل هارون تحمله الملائكة"

وقد رآها أحد الصحابة أيضا. إذ ورد في صحيح البخاري:
"قرأ رجل الكهف، وفي الدار الدابة، فجعلت تنفر. فسلم، فإذا ضبابة أو سحابة غشيته. فذكره للنبي ، فقال: اقرأ فلان، فإنها السكينة نزلت للقرآن، أو تنزلت للقرآن"
وفي رواية أخرى للحديث نعرف أن هذه السكينة إما أنها من الملائكة أو أن الملائكة تصاحبها عندما تنزل.
"عن أسيد بن حضير، قال: بينما هو يقرأ من الليل سورة البقرة، وفرسه مربوطة عنده، إذ

جالت الفرس. فسكت، فسكتت. فقرأ، فجالت الفرس، فسكت وسكتت الفرس. ثم قرأ فجالت الفرس، فانصرف، وكان ابنه يحيى قريبا منها، فأشفق أن تصيبه. فلما اجتره رفع رأسه إلى السماء، حتى ما يراها.
فلما أصبح حدث النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: اقرأ يا ابن حضير، اقرأ يا ابن حضير.
قال: فأشفقت يا رسول الله أن تطأ يحيى، وكان منها قريبا، فرفعت رأسي فانصرفتُ إليه، فرفعت رأسي إلى السماء، فإذا مثل الظلة فيها أمثال المصابيح، فخرجت حتى لا أراها.
قال: وتدري ما ذاك؟، قال: لا.
قال: تلك الملائكة دنت لصوتك، ولو قرأتَ لأصبحَتْ ينظر الناس إليها، لا تتوارى منهم"

أي أن الصحابي كان واقفا في بيته ليلا، يصلي، ويقرأ في صلاته بالسور الطويلة، فسمع فرسه يتحرك في قلق، فتوقف عن القراءة لفترة لكن لم يقطع الصلاة.
ثم استمر في القراءة مرة أخرى فتكرر نفس الصوت.
ولما سمع الرسول هذا الجزء من القصة أخبر الصحابي أنه كان عليه الاستمرار وألا يتوقف.
لكن في المرة الثالثة اضطر الصحابي أن يقطع الصلاة والقراءة، لخوفه من أن تضطرب الفرس بشدة فتصيب ابنه الصغير.
فلما خرج ليستطلع الأمر وجد شيئا مثل السحابة المظللة يرتفع في السماء، وفيه أنوار كالمصابيح.
ولما سمع الرسول هذه الحادثة أخبره أنها كانت ملائكة، اقتربت من بيته لتستمع لقراءته للقرآن في الصلاة.. فلما توقف عن القراءة ابتعدت.
ولو لم يتوقف لظلت موجودة إلى أن يأتي الفجر، فيراها باقي الصحابة بأنفسهم.
وهذا حدث نادر، وكرامة لهذا الصحابي.

وقد كان الصحابة يمدحون عمر بن الخطاب ويقولون عنه: ما كنا نستبعد أن السكينة تنطق على لسان عمر.
(ورد هذا عن ابن الأثير في كتابه: النهاية في غريب الحديث. وفي رواية أخرى عن الذهبي في سير أعلام النبلاء: "كنا نتحدث أن عمر ينطق على لسان مَلَك")

***

أما اليهود فيظنون أن السكينة معهم إلى الآن.. وأنه بعد تدمير الهيكل حلت السكينة داخل كل بني إسرائيل.
ولأنهم يعتبرونها جزءا من الإله فقد قالوا أن الإله قد حل في شعب إسرائيل.

وهذه العقيدة "الحلولية" توسع د/المسيري جدا في دراستها، وهي أحد الموضوعات الرئيسية لموسوعته عن اليهود واليهودية والصهيونية.

***

يؤمن اليهود أنهم عندما تشتتوا في الأرض فإن الشخيناه أيضا قد عانت من هذا التشتت، وأن الإله الآن متناثرة منه أجزاء أو "قبسات" في بلاد العالم، ويجب إعادة كل اليهود لمكان الهيكل كي "ينصلح" الإله وتنتهي حالة تفتته!
ويؤمنون أنه حيثما حل اليهود فإن الشخيناه تكون معهم. يظهر هذا في التلمود في صفحة Megillah 29a

أما اليهود الباطنيون، المؤمنون بالقبالا وبكتاب الزوهار، فقد توسعوا جدا في هذه الفكرة، وربطوها بمعانٍ صوفية كثيرة.

الآخرة

إلى الآن لم يتفق اليهود على عقيدة واحدة مشتركة بخصوص مسألة البعث والآخرة.
تصوراتهم عن تلك المواضيع الأخروية تتغير من زمن لزمن، ومن طائفة لطائفة، بل وأحيانا داخل الطائفة الواحدة.
والسبب هو أن اليهود ينظرون لليهودية على أنها دين دنيوي، يهتم بما يحدث "الآن"، لا بما سيحدث بعد الموت.
فأصبحت المواضيع الأخروية قابلة للأخذ والرد.. كل حاخام يدلي فيها بدلوه، ويقول برأيه.
وهذا مختلف كثيرا عن الإسلام والمسيحية. فهي ديانات فيها تصور عام ومحدد عن القيامة والحساب والجنة والنار.
فلا يمكن أن نتصور مثلا أن بابا الفاتيكان يكون منكرا لعقيدة إحياء الموتى يوم القيامة.. أما في التاريخ اليهودي فوجدنا مثلا أن طائفة الصدوقيين، وهم الكهنة المسؤولون عن الهيكل أيام عيسى عليه السلام، كانوا ينكرون عقيدة إحياء الموتى يوم البعث، ويقولون أنها لم ترد صراحة في التوراة.
(وربما لهذا السبب كانت إحدى معجزات المسيح هي إحياءه للموتى بإذن من الله، مما سبب للكهنة صدمة كبيرة)

***

عندما تدمر الهيكل فقد الصدوقيون مكانتهم، حيث لم يعد هناك هيكل ليكونوا كهنته.
وانتصرت طائفة الفريسيين، وهم الحاخامات الذين ربطوا مكانتهم الشعبية بنصوص التوراة وبدراستها، لا بوجود مبنى الهيكل أو عدم وجوده.
وكان الفريسيون يؤمنون بالبعث والنشور. ولما كتبوا التلمود – فيما بعد – قالوا في عدة مواضع منه أن الإيمان بالقيامة هو عقيدة هامة يجب على كل يهودي الاعتقاد فيها. (انظر Sanhedrin 90a)
وفي فترة الخلافة الإسلامية، عندما كتب موسى بن ميمون عقيدة لليهود في نقاط محددة، أكد على أهمية الإيمان بالقيامة.
لكن كل هذا لم يحل الإشكال. فظل اليهود يتجادلون في تفاصيل هذه العقيدة، وخرجوا بآراء كثيرة متناقضة ولا يمكن التوفيق بينها.

اختلفوا في الموت: أين تذهب الروح بعد الموت مباشرة؟
وهل يكون الحساب ساعتها أم يؤجل إلى يوم للحساب العام؟
واختلفوا في الجنة: هل سيكون الناس فيها أرواحا فقط أم أجسادا أيضا؟
واختلفوا في النار: هل سيعامل عصاة اليهود كعصاة الأمم الأخرى؟
وهل العذاب أبدي أم مؤقت؟
وهل سيفنى العصاة بعد فترة من العذاب أم سيدخلون الجنة؟
واختلفوا في تناسخ الأرواح: هل يحدث أم لا؟
واختلفوا في البعث: هل سيقوم الجميع مرة واحدة أم على دفعات؟
وهل هو بعث للجميع أم لليهود فقط؟
وهكذا.

وكثير من اليهود لا يرون فائدة في الكلام عن البعث والقيامة والحساب الأخروي. فالمهم عندهم هو الثواب والعقاب الدنيوي. ويؤمنون أن الرب إن غضب على شخص فإنه يميته قبل أن يصبح "شبعان أيام".
"ولتجدنهم أحرص الناس على حياة ومن الذين أشركوا
يود أحدهم لو يعمر ألف سنة وما هو بمزحزحه من العذاب أن يعمر"

واليهود الليبراليون اليوم، المعروفون بيهود الحركة الإصلاحية Reform، قرروا أن قيام الموتى هو أمر غير عقلاني ولا يمكن الإيمان به.. فحذفوا من نصوص الصلاة أي إشارة للمسألة.
في حين أن اليهود الأرثوذكس الأصوليين لا زالوا يؤمنون بهذه النصوص ويقولونها في صلواتهم وطقوسهم التعبدية.
أما يهود حركة المحافظين، وهم وسط بين هؤلاء وهؤلاء، فقرروا ترك النصوص كما هي، لكن مع تفسيرها تفسيرا مجازيا لا يلزمهم بمعناها الحرفي.

***

من ضمن العقائد الأخروية التي اختلف حولها اليهود: مسألة أحداث آخر الزمان.
فيؤمنون أن المسيا المنتظر سيظهر في آخر الزمان، وسيقود اليهود للانتصار على أعدائهم، وسيعيش العالم لفترة طويلة في رخاء وسعادة تحت قيادة هذا المسيح، الذي يقولون أنه سيكون من سلالة داود.

لكن اختلفوا: هل اليهود الذين ماتوا في القرون الماضية ولم يعيشوا هذه السعادة سيعودون للحياة كي يعيشوا مع المسيا أم لا؟
وهل اليهود الذين سيعيشون في فترة المسيا سيموتون في النهاية؟ ولو ماتوا هل سيبعثون من موتهم للحساب أم لا؟

هذه الاختلافات الكثيرة نابعة من مشكلة أساسية في التوراة الحالية.. وهي أن مسألة القيامة نادرة الوجود جدا في نصوص التوراة.
وتقول ترجمة الـ NET أن التوراة كلها ليس فيها إلا جملة واحدة صريحة فقط عن قيامة الموتى!.. وهي الموجودة في سفر دانيال.
أي أن أسفار التوراة، وهي كتاب ضخم يقترب من الألف صفحة، لم تذكر هذا الموضوع الديني الهام إلا في سطر واحد.
وعند مقارنة هذا بالقرآن مثلا يظهر الفرق الهائل.

***

هناك موضعان أو ثلاثة في التوراة يذكران "إحياء أمة إسرائيل" بعد أن ماتت وتدمر الهيكل وحدث السبي البابلي.
لكنها قطع أدبية ذات سياق مجازي، يستخدم صورة الموت والحياة للإشارة للوضع السياسي والاجتماعي.. وهذا واضح من السياق ومعروف للدارسين.
ومنها رؤيا حزقيال عن العظام اليابسة، والمذكورة في الإصحاح 37
وإشعياء 26: 19 ، وصموئيل الأول 2: 6

أما النص الصريح فموجود في سفر دانيال، الإصحاح 12:
"وفي ذلك الزمان يقوم ميكائيل الرئيس العظيم القائم لدى بني شعبك، ويكون وقت ضيق لم يكن منذ كانت أمة إلى ذلك الزمان. وفي ذلك الزمان ينجو شعبك.. كل من يوجد مكتوبا في الكتاب.
وكثير من الراقدين في أرض التراب يستيقظون، بعضهم للحياة الأبدية وبعضهم للعار والرذل الأبدي"

والسائد بين الباحثين الآن أن سفر دانيال لم يكتب في فترة دانيال، بل بعد هذا بمدة طويلة، أيام الملوك المكابيين.

***

يقول اليهود أن الموتى الراقدين في القبور تكون أرواحهم في مكان تحت الأرض، هو "شيؤل".

أما النار فيسمونها "جهينوم Gehinnom".. واختلف الحاخامات في التلمود هل ستكون دارا للعذاب الأبدي أم لعذاب مؤقت مدته 12 شهرا
Rosh Hashanah 17a , Shabbos 33b
وقالوا أن أصحاب صغائر الذنوب سيوضعون في جهنم ثم يعفو الرب عنهم ويصعدهم لجنة عدن.
"وقالوا لن تمسنا النار إلا أياما معدودة قل أتخذتم عند الله عهدا فلن يخلف الله عهده أم تقولون على الله ما لا تعلمون"
***
أما الباطنية اليهود، المؤمنون بعقائد القبالا وكتابها "الزوهار"، فلهم آراء مختلفة.
حيث يقولون أن البشر، وخصوصا اليهود، عليهم مهمة "إصلاح العالم / تيقون هاعولام"، أي إعادة القبسات النورانية الإلهية المتناثرة في العالم إلى مصدرها الإلهي العلوي..
وأن هذه المهمة تتم عن طريق الالتزام الحرفي بكل طقوس الشريعة. وأن غير اليهود عليهم عدد صغير من الطقوس، أما اليهود فأغلب المهمة واقعة على عاتقهم، وعليهم مئات من التشريعات التي يجب إتمامها قبل الموت.
فإن مات الشخص قبل الإتمام فإن روحه تحل في جسد جديد، وتظل عملية تناسخ الأرواح مستمرة إلى أن ينجح في تأدية كل ما عليه، فتصعد روحه إلى الإله وتندمج معه.
وعقيدة التناسخ هذه عند يهود القبالا تسمى جلجول Gilgul.

بهيموث ولوياثان

في الإصحاحات الأخيرة من سِفر أيوب، يقول مؤلف النص أن الرب تدخل في الحوار الدائر بين أيوب وأصدقائه، وألقى خطابا طويلا يذكر فيه عظمته وتدبيره لشؤون العالم..
ثم يوجه السؤال لأيوب: هل فعلت أنت شيئا من هذا؟ وهل تقدر على تنظيم الكون والمخلوقات مثلما أفعل؟!
ثم يخصص الإصحاحين 40 و 41 لإظهار قوة الرب وقدرته على أقوى المخلوقات: بهيموث Behemoth و لوياثان Leviathan

الأول مخلوق بري، والثاني بحري.
كلمة بهيموث مشتقة من: بهيمة، لكن في صورة جمع لا مفرد، لإظهار الضخامة.
أما لوياثان فبمعنى: الملتوي.
والكلمتان دخلتا قاموس اللغات الأجنبية، وأصبحتا علامة على الضخامة والقوة.
***
يصف النص "بهيموث" بأنه:
"عروق فخذيه مضفورة. عظامه أنابيب نحاس، وأضلاعه حديد مطرّق.
هو أول أعمال الله، وصانعه يُعمل السيف فيه"
أما لوياثان:
"من فمه تخرج مصابيح. شرار نار تتطاير منه. من منخريه يخرج دخان"
"يجعل العمق يغلي كالقِدر" ، "ليس له في الأرض نظير"

وفي التلمود، Baba Bathra 75a، يقول أحد الحاخامات:
"الرب المبارك سيصنع مأدبة للصالحين في الآخرة، من لحم اللوياثان"
***
وقد يبدو لأول وهلة أن هذين المخلوقين هما من المخلوقات الأسطورية، إلا أن النص فيه شيء من الحقيقة، وإن زاد عليه مؤلف سفر أيوب الكثير من الأوصاف الأدبية والاستطرادات.

فمن النصوص الإسلامية نعرف أن بالجنة حيوان بري وآخر بحري، يتسمان بالضخامة، وبالفعل سيكونان مأدبة للصالحين.
فقد ورد في صحيح مسلم أن أحد أحبار اليهود جاء للرسول وسأله عن أشياء ليختبره..
"قال اليهودي: أين يكون الناس يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات؟
فقال رسول الله: هم في الظلمة دون الجسر.
قال: فمن أول الناس إجازة؟
قال: فقراء المهاجرين.
قال اليهودي: فما تحفتهم حين يدخلون الجنة؟
قال: زيادة كبد النون.
قال: فما غذاؤهم على إثرها؟
قال: ينحر لهم ثور الجنة الذي كان يأكل من أطرافها.
قال: فما شرابهم عليه؟
قال: من عين فيها تسمى سلسبيلا.
قال: صدقت"

والنون في اللغة هو الحوت. و"زيادة الكبد" هي أفضل قطعة فيه.
وكلمة تحفة تعني الهدية التي يقدمها صاحب الدار لضيوفه ليتحفهم بها.

وفي البخاري:
"قال النبي صلى الله عليه وسلم: تكون الأرض يوم القيامة خبزة واحدة، يتكفؤها الجبار بيده كما يتكفأ أحدكم خبزته في السفر، نُزُلا لأهل الجنة.
فأتى رجل من اليهود فقال: بارك الرحمن عليك يا أبا القاسم، ألا أخبرك بنزل أهل الجنة يوم القيامة؟
قال: بلى.
قال: تكون الأرض خبزة واحدة.
كما قال النبي . فنظر النبي إلينا ثم ضحك حتى بدت نواجذه.
ثم قال: ألا أخبرك بإدامهم؟
قال: بلى.
قال: إدامهم بالام ونون.
قالوا: وما هذا؟
قال: ثور ونون، يأكل من زائدة كبدهما سبعون ألفا"

أي أن الأرض نفسها ستتحول لخبز يقلبه الله بيده. والنزل هو الطعام الذي يقدم للضيف.
والإدام هو الطعام الذي يؤكل مع الخبز.
أما كلمة "بالام" التي قالها اليهودي فليست في اللغة العربية، ويبدو أنها اسم ثور الجنة، والذي هو مذكور في التوراة باسم بهيموث.

البقرة

قال موسى لقومه: إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة.
فلو ذهبوا وذبحوا أي بقرة لتم المقصود، لكنهم تعنتوا وشددوا على أنفسهم، فشدد الله عليهم.
أخذوا يسألون عن صفاتها وعن لونها، بحيث لم يجدوا في النهاية إلا بقرة واحدة تنطبق عليها المواصفات، فذبحوها.
وردت تفاصيل هذه الواقعة في سورة البقرة، في الآيات من 67 إلى 71 ، ثم تلتها آيتان عن حادثة قتل وقعت بين بني إسرائيل، ولم يتوصلوا لمعرفة القاتل، فقال لهم الله أن يضربوا الجثة بعضو من أعضاء البقرة المذبوحة، فعاد المقتول للحياة وأخبرهم بهوية قاتله.

أغلب المفسرين يقولون أن الواقعتين هما عبارة عن واقعة واحدة، وأن النص فيه تقديم وتأخير. أي أن حادثة القتل حدثت أولا ثم قال موسى لهم: إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة، ثم عاد المقتول للحياة.
لكن هناك رأي آخر يقول أن ذبح البقرة كان مسألة منفصلة، وعبارة عن طقس في الشريعة اليهودية، ثم لما حدثت واقعة القتل بعد ذلك أمرهم الله أن يضربوا الجثة بعضو من أعضاء البقرة التي كانوا ذبحوها من قبل.

***

أوصاف البقرة في القرآن هي أنها: لا فارض ولا بكر، بل بين ذلك.
أي لا كبيرة في السن ولا صغيرة، بل متوسطة العمر. وأنها صفراء، فاقع لونها، تسر الناظرين.
أي أنها شديدة الصفرة.
وأنها لا ذلول تثير الأرض ولا تسقي الحرث، مسلّمة لا شية فيها.
أي لم يتم استخدامها في حرث الأرض ولا في السقاية. خالية تماما من العيوب الجسدية.
وليس فيها أي لون آخر غير لونها الأصفر.

***

وهذه القصة غير مذكورة في التوراة، لكن هناك نصوصا قريبة من معناها.
ففي سفر التثنية، الإصحاح 21، نجد الحكم الفقهي الخاص بتطهير المجتمع من ذنب جرائم القتل التي لم يتوصلوا لمعرفة فاعلها.
ففي هذه الحالات يصعب تطبيق القصاص، وبالتالي يكون على اليهود تقديم ذبيحة، لتطهير أنفسهم من الذنب.
وتفاصيل هذا الطقس تكون كالتالي:
إذا وجدوا قتيلا ولم يعلموا قاتله، فإن القضاة يذهبون لأقرب مدينة من مكان الجريمة، ويأمرون شيوخ قبائل هذه المدينة بأن يأخذوا بقرة "لم يُحرث عليها، ولم تجر بالنير"، ثم يذهبوا لأي واد يكون فيه ماء جارٍ، وليس فيه زرع ولا حراثة، ثم يكسرون عنق البقرة.. بحضور الكهنة اللاويين.
ثم يغسل شيوخ قبائل المدينة المتهمة أيديهم على البقرة، ويقولون:
أيدينا لم تسفك هذا الدم، وأعيننا لم تر الجريمة.
ثم يستغفرون الرب.

***

وفي التوراة طقس آخر مرتبط بالبقر، وهو "البقرة الحمراء Red Heifer".
والبقرة الحمراء هي بقرة بمواصفات نادرة، ويتم استخدامها لتطهير اليهود من النجاسة.
ففي الشريعة اليهودية تعتبر جثث الموتى سببا للنجاسة. لمسها أو الاقتراب منها، أو حتى المشي فوق قبر، أو الوجود في بيت فيه شخص ميت، يؤدي مباشرة لنجاسة لعدة أيام.. ويجب استخدام "رماد بقرة حمراء" للتطهر.

وهذا الطقس موصوف في سفر العدد، الإصحاح 19
"قل لبني إسرائيل أن يأخذوا بقرة حمراء، لا عيب فيها، ولم يعل عليها نير. وأن يعطوها لكاهن فتذبح أمامه، ثم تحرق. وأن يقوم رجل طاهر بجمع رماد البقرة، وأن يحفظه في مكان طاهر"
وعند الحاجة للتطهر، يوضع بعض الرماد في ماء ثم يرش منه على المتعرضين للنجاسة.

وقد نفد رماد آخر بقرة منذ قرون طويلة، ولهذا يعتبر اليهود أنهم كلهم الآن في حالة غير طاهرة. ولهذا أيضا يؤمن اليهود المتدينون أنه حرام على اليهودي دخول ساحة المسجد الأقصى، لأنها مكان الهيكل، وهو مكان يجب أن يتطهروا قبل دخوله.
وبالإضافة لذلك فإن اليهودي محرم عليه دخول قدس الأقداس، لأنه كان لا يجوز أن يدخله إلا كبير الكهنة، وفي يوم واحد من السنة.
ولهذا يتجنب الإسرائيليون المتدينون المشي في ساحة الأقصى، كي لا تدوس أقدامهم بطريق الخطأ على مكان حجرة قدس الأقداس.

وحتى لو تم بناء هيكل ثالث، فإن اليهود يجب تطهيرهم أولا قبل دخوله.. وطقس التطهير يجب أن يكون بحضور كاهن طاهر. لكن كيف سيكون الكاهن أصلا في حالة طهارة ما دام تطهيره هو يحتاج لوجود كاهن آخر في حالة طهارة؟!

وهذه المشاكل الفقهية استغلتها الحكومة الصهيونية العلمانية لكبح جماح اليهود المتدينين، ومنع صدامهم مع المسلمين قدر الإمكان.
إلا أن بعض الحاخامات المتطرفين يمكن أن يخترعوا حلولا لهذه المشاكل الفقهية، وأن يسمحوا لليهود بدخول ساحة الأقصى، بدلا من الاقتصار على الوقوف خارج الساحة أمام حائط البراق/المبكى.

التلمود

في القرنين الأول والثاني بعد الميلاد تعرض اليهود لدمار كبير على يد الرومان. فشعر الحاخامات أن الأحكام الفقهية للديانة توشك على الضياع، بسبب الفوضى الاجتماعية الناتجة عن تشتت الشعب اليهودي.
فقرروا البدء في جمع وتدوين أقوال الفقهاء، وهي المهمة التي أتموها حوالي سنة 200 م، وكانت النتيجة هي إصدار كتاب "المشنا".

كان الخوف الأكبر عند الحاخامات هو أن يذوب عوام اليهود في ثقافة المجتمعات الأجنبية، والتي يعيشون في ظلها وتحت سلطتها..
وبالتالي تختفي الهوية اليهودية تماما.

أصبحوا هم المرجعية الوحيدة للشريعة، فغيروها وأضافوا عليها وحذفوا منها..
وتفننوا في قطع جمل التوراة عن سياقها ثم استنتاج أحكام فقهية منها لا تمت للنص بصلة.
وطاوعهم الشعب دون اعتراض، وانقاد لهم.
"اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله"

***

لم يكن بالأرض وقتها نبي ولا رسول، حيث لم يبعث الله أحدا في الفترة ما بين عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام.. وهي حوالي 600 سنة.
وأصبحت المشنا وكأنها كتاب مقدس عند اليهود، لأن الحاخامات قالوا: هي توراة شفوية انتقلت لنا من أيام موسى لكن لم نكن قد دوّناها في كتاب طوال هذه الفترة.
ولم يقدموا أية أسانيد أو سلاسل رواة تؤيد هذا الزعم.

ثم بدأ الحاخامات في شرح المشنا والتعليق عليها. وهي عملية استغرقت عدة قرون.
فكان ليهود بابل شرح، وليهود فلسطين شرح آخر. والاثنان يسميان "الجمارا".
وبجمع المشنا مع الجمارا أصبح الناتج هو التلمود.
وهكذا ظهر للوجود تلمود بابلي وتلمود فلسطيني.
ويقال أن الفلسطيني انتهوا من نصه الأساسي سنة 400م، أما البابلي فاستمر العمل عليه حتى سنة 500م.
إلا أن الانتهاء من النص الأساسي لا يعني توقف الإضافات.
فعملية الإضافة والتدوين والترتيب ووضع اللمسات الأخيرة على التلمود البابلي استمرت حتى سنة 700 م تقريبا.

أما التلمود الفلسطيني فلم يهتم به اليهود، وأهملوه. ولهذا أصبحت كلمة تلمود تعني تلقائيا: البابلي.

***

كلمات "تلمود" و"مشنا" و"جمارا" قريبة جدا في المعنى اللغوي، ومرتبطة بمعاني المدارسة والتعلم. و"تلمود" قريبة من كلمة "تلميذ".
و"مشنا" تعني حرفيا: التثنية والتكرار.. أي المذاكرة وإعادة القراءة مرة بعد مرة..
و"جمارا" تعني الإكمال والإتمام.
وقد ورد ذكر المشنا في حديث من أحاديث الرسول ، حيث حذر المسلمين من أن تكون لهم مشنا مثل مشنا اليهود، غير معتمدة على القرآن والسنة والإجماع والقياس، بل على الآراء الشخصية للفقهاء.
فقد جاء في السلسلة الصحيحة للألباني:
"من أشراط الساعة أن ترفع الأشرار، وتوضع الأخيار، ويُفتح القول، ويخزن العمل، ويُقرأ

بالقوم المثنّاة، ليس فيهم أحد ينكرها.
قيل: وما المثناة؟، قال: ما استُكتب سوى كتاب الله عز وجل"

وروى ابن حزم في كتابه المحلى أن يهودية جاءت إلى عمر بن الخطاب، فقالت: إن ابني هلك، فزعمت اليهود أنه لا حق لي في ميراثه.
فدعاهم عمر فقال: ألا تعطون هذه حقها؟، فقالوا: لا نجد لها حقا في كتابنا. فقال: أفي التوراة؟
قالوا: بل في المثناة. قال: وما المثناة؟
قالوا: كتاب كتبه أقوام علماء حكماء.
فسبهم عمر، وقال: اذهبوا فأعطوها حقها.
(وقد جمع الباحث يوسف الحوشان عدة أمثلة أخرى لكلام السلف عن التلمود، في كتابه: الآثار الواردة عن السلف في اليهود في تفسير الطبري)

***

ومع أن التلمود متوفر في المكتبات، ومجانا على الإنترنت، إلا أن القراء غير اليهود لا يقبلون على قراءته.
والسبب هو أن النص يصيب بالإملال، لاستطراداته الطويلة، ولتشتت مواضيعه بين المجلدات، ولدخول الحاخامات في جدالات حول أمور فرعية، قليلة الأهمية.
إلا أنه كل بضعة صفحات يمكن أن تجد حكاية غريبة، أو خرافة، أو معلومة صحيحة..
لكن هذه النوادر لا تساوي الجهد المبذول في البحث عنها.

وللتلمود عدة ترجمات إنجليزية، من أشهرها طبعة Soncino وهوامشها المفيدة.
ومنذ عدة سنوات صدرت ترجمة عربية كاملة، أصدرها مركز دراسات أردني.. لكن غلاء سعرها منعها من الانتشار بين القراء العرب.

القبالا

في العقيدة الإسلامية هناك انفصال تام بين الخالق والمخلوق.
أي لا يجوز أن يقال مثلا أن الله هو الكون، أو أن الإنسان هو قطعة من الإله، أو أن الله "في كل مكان"..
بل الصحيح هو أن يقال: الله في السماء، وأن الإله لا "يحل" في مخلوقاته ولا يتجسد فيها.
فالملائكة مثلا ليست "جزءا من الإله"، ولم "تنبثق" من داخل الإله.. بل هي مجرد مخلوقات خلقها الإله.

أما العقائد الباطنية فلا تؤمن بهذا الانفصال، بل تؤمن بـ "الاندماج" و"الحلول".
فبعضهم يقول: الإله يحل في المخلوقات، فيمكن أن ينزل منه جزء ويندمج بشيء مادي أو بشخص، وبالتالي يصبح هذا الشيء أو الشخص إلهيا، وتجوز عبادته.
وهذه هي العقيدة الحلولية.
وبعضهم يقول: الإله هو نفسه المخلوقات، فلا داعي للحلول أصلا حيث أن كل شيء نراه حولنا هو في الحقيقة جسد الإله. فالكون هو الإله، والبشر هم الإله، والصخور هي الإله.
ويعتقدون أن الوجود كله هو وحدة واحدة متحدة، لا فرق فيها بين خالق ومخلوق. فتجوز عبادة شجرة أو صخرة لأن كل الأشياء هي في الحقيقة جزء من الإله. ولا وجود لأي شيء سوى الإله.
وهذه هي العقيدة الاتحادية، أو وحدة الوجود.

***

وقد كانت هناك بعض الميول الحلولية عند اليهود، عندما بدأت عقائدهم في الانحراف، لكن لم يتوسعوا فيها بشكل صريح إلا بعد ظهور عقائد القبّالا Kabbalah ، أي العقائد الباطنية الصوفية.
فحتى قبل أن يظهر الفكر القبالي كان بعضهم يعتقد أن الشخيناه هي جزء من الإله كان يعيش في الهيكل، لا أنها مجرد مخلوق ملائكي ينزل للأرض من وقت لآخر.
أما بعد ظهور القبالا فاتسع الانحراف جدا، فقال القباليون على سبيل المثال: الكون كله هو جزء من الإله، "انبثق" عنه و"يفيض" منه باستمرار، وينزل من أعلى لأسفل، فيتحول من نور إلى مادة!

وهذه الفكرة كانت موجودة عند فلاسفة الأفلاطونية الجديدة، مثل أفلوطين، وموجودة أيضا عند الغنوصيين.

***

القبالا اليهودية لم يكن لها وجود حقيقي قبل الميلاد، ولا قبل البعثة المحمدية، بل ظهرت بعد الإسلام بقرون، عندما عاش اليهود في أوروبا مع المسيحيين، وفي الأندلس مع المسلمين.
كان الفلاسفة في تلك الفترة مهتمين بكتب الفلسفة القديمة، فيترجمون كتب أرسطو وأفلاطون وأفلوطين للغة العربية واللغات الأوروبية المعاصرة، ثم يدرسونها، ويحاولون ربطها بالدين، والتوفيق بينها وبين العقائد الدينية السائدة..
على الرغم من أن كتب الفلسفة القديمة كانت مكتوبة في ظل ثقافات وثنية، كالإغريقية والرومانية.

اشترك اليهود في هذه الموجة الفلسفية، وكانت القبالا هي نتاج تلك الفترة.
لكن أراد المؤلفون اليهود الصوفية أن يضفوا هالة من القداسة على كتاباتهم، ليعطوها وزنا وثقلا بين باقي اليهود، فزعموا أن القبالا هي كتابات قديمة، ونسبوها لبعض مشاهير الحاخامات السابقين.. وقالوا أنها انتقلت شفهيا طوال ألف سنة ثم دونوها هم فيما بعد،

في كتاب الزوهار.
أما الباحثون الذين درسوا النص فيعلمون أنه مكتوب في فترة متأخرة، ويشير لأمثلة وأحداث وأفكار لم تكن حدثت أصلا قبل فترة "التدوين".

أما ما يمكن أن يوصف فعلا بأنه كتابات قديمة، فهو مخطوطة صغيرة، تسمى "يتسيرا" أو الخلق، ويقال أنها مكتوبة في القرن الرابع أو الخامس الميلادي. وتحوي نواة لبعض الأفكار القبالية، لكن في صورة بسيطة ومختلفة عن منظومة الأفكار القبالية التي تكونت فيما بعد على يد يهود فرنسا والأندلس.

***

الزوهار Zohar هو الكتاب الأساسي للقبالا. وهو عبارة عن كتابات صوفية باطنية، مبهمة وغامضة، موضوعة كشرح لأسفار التوراة الخمسة الأولى.
والاسم يعني: اللامع والبراق، وهو يشبه كلمات أزهر/زهراء/الزُهَرة في اللغة العربية، حيث أنها مشتقة من معنى: الإضاءة اللامعة.

مع الوقت تطورت أفكار القبالا وزادت تفاصيلها. ويعتبر إسحق لوريا هو أشهر قبالي، حيث أضاف لها الكثير من الأفكار، ووضعها في شكل منظم.

***

تختلف معتقدات القبالا عن المعتقدات اليهودية السائدة، لكن الخلاف أدى لتصادم مؤقت، انحل في النهاية. إذ اعتبر الحاخامات أن القباليين منشغلون بالبحث عن "الأسرار الباطنية" للشرائع التعبدية، أما الحاخامات فمتخصصون في التفاصيل الظاهرية لهذه الشرائع..
فيمكن أن يتعايش الفريقان جنبا إلى جنب.
وهذا على الرغم من أن أفكار القبالا مصادمة لعقيدة التوحيد، وتتعارض مع المعاني الواضحة لكثير من نصوص التوراة.

رفضت القبالا الإيمان بالمعنى الظاهري لقصة الخلق المعروفة.. فاخترعوا تفسيرا باطنيا بديلا بحيث لا يكون الكون والإنسان مجرد "مخلوقات"، بل امتدادا للإله وجزءا من أجزائه.
ورفضوا أن يعتبروا العبادات هي أوامر يجب على الإنسان تنفيذها طاعة لله، فقالوا هي طقوس "يحتاجها" الإله كي يقوم بـ "إصلاح" نفسه!
وقاموا بتأليف قصة خلق بديلة، لتبرير معتقداتهم هذه. فقالوا:
كان الإله نورا في البداية، وكان ممتدا يملأ كل مكان في الفراغ. وعندما أراد خلق الكون اضطر إلى أن "ينكمش" في نقطة مركزية، كي يصبح هناك مكان في الفراغ ليوجد فيه الكون.
ثم انبثق منه خيط نور مركز. وكان من المفترض أن يتم تلقي هذا النور في أوعية كريستالية، تصب كل واحدة منها في الأخرى التي تحتها. لكن شعاع النور كان أقوى من اللازم، فتحطمت الأوعية.

وحادثة "التهشم" هذه أدت إلى أن الإله فقد جزءا من نوره، والتصق هذا الجزء بالشظايا المبعثرة.
عندما أعاد الإله ترتيب الأمر، واستقرت عملية "الانبثاق النوراني"، تكونت عشرة من السفيروت Sephirot ، بترتيب هندسي معين. وأخذ النور ينطلق إلى هذه السفيروت، إلى أن يصل لأدنى واحدة، وهي آخر جزء من الإله.
وعندما تكونت المادة، انغرست فيها شظايا النور المبعثرة، وبهذا أصبح الإله في حاجة إلى إصلاح.. أي إعادة هذه الأجزاء المفقودة إلى مكانها الأصلي في السفيروت العشرة.

ويطلق القباليون على النور الأصلي اسم: إين سوف، أي اللانهاية.

ويطلقون على كل سفيراه من السفيروت اسما، بداية من "التاج" ونهاية بـ "الملكوت".
والمعنى الحرفي لكلمة سفيروت هو "أعداد".

ويعتبرون أن الملكوت هو أدنى الأجزاء، لكنه الهدف النهائي من عملية الانبثاق.
ويقولون أن هذا الجزء الإلهي هو الشِخيناه التي كانت تحل في الهيكل، ثم لما تشتت اليهود في الأرض تفتت الشخيناه معهم، وأصبح الإله نفسه في حالة شتات.
ولهذا يجب على القباليين أن يقوموا بـ "أهم مهمة في الكون"، وهي:
- إعادة اليهود من الشتات إلى فلسطين.. فتجتمع الشخيناه مرة أخرى في الهيكل الجديد
- مساعدة الإله في عملية إصلاح نفسه، عن طريق رفع الشظايا النورانية المتناثرة إلى السماء.. ويكون ذلك عن طريق تنفيذ طقوس الشريعة على أكمل وجه. ويطلقون على هذا "تقون ها عولام"، أي إصلاح العالم.

ويؤمن أتباع القبالا أن الانبثاق هو عملية فيض مستمرة.. وأن اليهود على الأرض مرتبطون فعليا بالأجزاء الإلهية العلوية. وبالتالي فإن التغيرات التي تحدث في "معدل التدفق" العلوي تؤدي لتغيرات فعلية في حياة اليهود على الأرض.
وبالتالي فإن العكس صحيح.
أي أنه عند اليهود القدرة على تغيير حالة الأجزاء العلوية للإله، إن قاموا بأفعال وطقوس معينة.
ولهذا ارتبطت القبالا بالسحر. حيث أن نظرية السحر تقول: كما بالأعلى، كذلك بالأسفل.
As Above, So Below
وهي جملة كانت هامة عند من يعبدون الكواكب قديما ويؤمنون بأن الأجرام العلوية، كالنجوم والكواكب والشمس والقمر، تؤثر في حياة البشر.
فطالما أن المريخ، في يوم محدد مثلا، سيؤثر في انتصار الجيوش أو انهزامها في الحروب، فبالتالي فإن طقوسا سحرية معينة يمكن أن يتم تقديمها لـ "روح كوكب المريخ"، كقربان للتقرب منه، بحيث يعطي للساحر الذي يؤدي هذه الطقوس القدرة على تغيير مسار المعركة، ومساعدة جيش ضد جيش آخر!
(وهذه النظرية ساذجة، حيث أن السحر الحقيقي لا يعمل بهذه الطريقة، بل قدرته محدودة، وتقتصر على الإقناع والإيهام، ولا تصل لإحداث تغيرات حقيقية في المادة والأشياء.
فالمريخ هو مجرد صخرة، وليس "إله الحروب" كما اعتقد الوثنيون القدماء)

لكن أتباع القبالا اقتنعوا بهذه النظرية، فقالوا أن أفعالهم على الأرض تؤدي لإحداث تغيرات في الإله بالأعلى، والإله يمكنه إحداث تغيرات في العالم.. وبالتالي فإن أفعالهم يمكن أن تؤدي لإحداث تغيرات خارقة في العالم، إن أرادوا.

ولهذا عندهم قصص فولكلورية يصدقونها، تقول أن الحاخام الفلاني قام بخلق عجل ثم أكله مع تلاميذه، أو قام بمعجزة أبهرت الحاضرين، وهكذا.

***

شغلت القبالا نفسها بمحاولة تصور و"دراسة" الإله، فخاضوا في أمور كفرية:
كيف تتحول "أفكاره" إلى مادة مخلوقة؟ ما الذي يحدث "داخل جسده"؟ كيف استخدم الحروف العبرية في تشكيل الكون؟
وقالوا أن السفيروت مجموعة في شكل، أسموه "شجرة الحياة"، حيث اقتبسوا الاسم من قصة آدم وحواء في سفر التكوين.
ورسموها بحيث تكون عبارة عن 3 أعمدة. الأيمن لصفات الرحمة، والأيسر لصفات الشدة، والأوسط في حالة توازن.

وقالوا أن هذا الشكل يصلح للتعبير عن: الإله، والكون، والإنسان.
فأعلى سفيراه في الشجرة تعتبر "رأس" الإله، وأعلى منطقة في الكون، وترمز أيضا لأفكار الإنسان.
والعمود الأيمن عبارة عن الأعضاء اليمنى، والأيسر اليسرى، والأوسط للصدر والعضو التناسلي!
ولم يترددوا في الإشارة للإله بصفات جنسية.
***
وينظر بعض الباحثين للنجمة السداسية على أنها تصلح كرمز للتعانق بين مثلثين، واحد يشير للأعلى والآخر يشير للأسفل..
وأن هذا رمز للجماع الجنسي بين الرب وشعب إسرائيل!
واستدل اليهود على هذه الفكرة عن طريق الإشارة لسفر "نشيد الأناشيد" الموجود في التوراة.. حيث يصف الغزل الجنسي بين عريس وعروسه.
ويفسرونه تفسيرا باطنيا، فيقولون أن ألفاظه الخادشة للحياء هي رموز للعلاقة بين الرب وشعبه المختار.
وقد انتشر هذا التفسير أيضا في المسيحية، إلا أنهم يجعلون العلاقة هي بين يسوع وشعب الكنيسة.
***
أشهر فرقة يهودية تهتم بالقبالا في العصر الحديث هي اليهود الحسيدية.
أما في الغرب فقد بدأ ينتشر نوع مخفف جدا من القبالا، وتحول لـ "موضة" عند بعض الفنانين، حتى إن كانوا من غير اليهود.
وله كتب ودورات تدريبية، تدعي أنها ستكشف لهم "سر السعادة والنجاح"، ويتربح من ورائها بعض الحاخامات "المودرن".

ملائكة الأمم

يعتقد اليهود أن الملاك "ميكائيل" هو الملاك الحارس لأمتهم.
ويقولون أن اسمه هو عبارة عن جملة عبرية، هي "مي ك إل"، وتعني: من كالله؟
أي: وهل يوجد للإله مثيل؟

ويؤمنون أن لكل أمة ملاك، وأن عدد الأمم 70، وأنه عندما يحدث صدام بين أمتين، في حالة الحرب أو تعارض المصالح، فإن الصدام يكون أيضا بين الملكين المسؤولين عن الأمتين.
(أي Spiritual Warfare، حروب على المستوى الروحاني الغيبي)

فـ "ملائكة الأمم" هم أشبه بالأمراء أو الولاة، قام الرب – من وجهة نظر اليهود – بإعطائهم توكيلا لحكم الأمم، لكنه اختار بني إسرائيل وملاكها ميكائيل بحيث يكونون تابعين له شخصيا.

***

المصدر الرئيسي لهذه الفكرة هو سفر دانيال.
فيقول مؤلفو النص أن دانيال ظل صائما ومتضرعا لمدة ثلاثة أسابيع. ومن السياق نفهم أن هذا كان بهدف استرضاء الله كي يعفو عن خطايا بني إسرائيل، وييسر لهم عملية إعادة بناء الهيكل، بمساعدة ملوك الفرس.
وبعد انتهاء الثلاثة أسابيع ظهر له ملاك هائل، فطمأنه، وأخبره بنبوءة طويلة وتفصيلية عن الصراعات السياسية التي ستحدث في المستقبل، وتأثيرها على اليهود.
(أما الباحثون فيقولون أن النص منسوب زورا لدانيال، وأنه في الحقيقة لم يُكتب أيام الفرس إطلاقا، بل بعد هذا بقرون، أيام المكابيين الحشمونيين.. أي بعد الأحداث التي يقول النص أنها "نبوءات ستحدث في المستقبل"!)

قال له الملاك، حسب ما ورد في النص التوراتي، الإصحاح 10:
"لا تخف يا دانيال، فإنك من أول يوم وجهت فيه قلبك للفهم ولإذلال نفسك أمام إلهك، استجيب كلامك.. وأتيت أنا بسبب كلامك.
وقد قاومني رئيس مملكة فارس واحدا وعشرين يوما، فأتى لنصرتي ميكائيل، أحد الرؤساء الأولين. فتركته هناك عند ملوك فارس، ثم أتيت لأبين لك ما يحدث لشعبك في الأيام الأخيرة"
"والآن أرجع لأحارب رئيس فارس. فإنه بعد فراغي من ذلك إذا برئيس اليونان يأتي.
لكن سأخبرك بالمرسوم في كتاب الحق. وما من أحد يساعدني على الأمر إلا ميكائيل رئيسكم"

فالملاك يقول أنه كان سيأتي لدانيال منذ أول يوم من أسابيع الصيام الثلاثة، إلا أن الملاك الذي يحمي مملكة فارس وقف له بالمرصاد، وقام بتعطيله. ولم ينحل الموقف إلا عندما جاء ميكائيل واشتبك مع ملاك بلاد الفرس، وأعان الملاك الذي أراد القدوم لدانيال.
فميكائيل، من وجهة نظر مؤلفي النص، هو الذي يحمي مصالح بني إسرائيل، وهو من جعل الفرس يتعاطفون مع اليهود ويسمحون لهم بالعودة من السبي البابلي إلى فلسطين، أيام الملك الفارسي قورش.
وقد يشير النص أيضا لفترة قمبيز، خليفة قورش، حيث أنه في عهده توقف الدعم الفارسي لليهود لفترة قصيرة، ثم عاد الدعم أيام الملك داريوس الذي جاء فيما بعد.

***

ويستمر الملاك في إخبار دانيال بما سيحدث بعد ذلك. فيقول له أن ملوك فارس

سيصطدمون بـ "ملك اليونان"، أي الإسكندر المقدوني.. وأن مملكة الإسكندر ستنقسم بعد موته، وسيظهر "ملك الشمال"، أي السلوقيين الإغريق في سوريا، و"ملك الجنوب"، أي البطالمة في مصر.
وسيدخلان في صراعات طويلة، ثم سيقترب ملك الشمال من الانتصار على ملك الجنوب، لكن الرومان سيظهرون على الساحة ويمنعونه. فيعود غاضبا، ويدنس الهيكل، ويجعله مكانا للقرابين الإغريقية الوثنية، وهو ما يسميه النص "رجسة الخراب".
"وفي ذلك الزمان يقوم ميكائيل الرئيس العظيم، القائم لدى بني شعبك، ويكون وقت ضيق لم يكن منذ كانت أمة إلى ذلك الزمان.
وفي ذلك الزمان ينجو شعبك، كل من يوجد مكتوبا في الكتاب.
وكثير من الراقدين في أرض التراب يستيقظون، بعضهم للحياة الأبدية، وبعضهم للعار والرذل الأبدي"

وهذه الفقرة الأخيرة هي النص الصريح الوحيد في التوراة الذي يشير للبعث ويوم القيامة.
لكن لو فهمناه في السياق الذي سبقه لرأينا أنه لا يقصد يوم القيامة، بل مجرد كناية عن الانتصار السياسي لليهود على السلوقيين.. وأن من جاهدوا الوثنية سيصبحون من المكرمين في المملكة اليهودية المكابية، أما من تعاونوا مع الاحتلال فستكون نهايتهم سيئة، وسيحمل اسمهم العار للأبد.
أي أن المقصود هو "إحياء الأمة" بعد هزيمتها، لا إحياء الموتى يوم القيامة!
***
تظهر عقيدة "ملائكة الأمم" في موضع آخر من التوراة الحالية، وهو المزمور 82
المؤمنون بالنص يفسرونه بشكل مختلف عن الباحثين، فيقولون هو عن القضاة الظالمين، في حين أن الباحثين غير المتدينين يقولون أن مؤلفي النص لم يقصدوا هذا المعنى، بل هو حوار بين الرب والملائكة الذين جعلهم وكلاء على الأمم..
وأنه يتهمهم بالظلم والفساد، ويخبرهم أنه سيقضي عليهم في النهاية.

نص المزمور هو:
"الله قائم في مجمع الله.. في وسط الآلهة يقضي.
إلى متى تقضون بالظلم، وتحابون وجوه الأشرار؟
احكموا للكسير واليتيم، وأنصفوا البائس والفقير.
نجوا الكسير والمسكين، وأنقذوه من أيدي الأشرار.

لا يعلمون ولا يفهمون، وفي الظلمة يسيرون.. فتتزعزع كل أسس الأرض.
لقد قلت: "أنتم آلهة، وبنو العلي كلكم"
لكن كلا! كالبشر تموتون، وكرجل واحد – أيها الرؤساء – تسقطون.

قم يا الله. دِن الأرض. لأنك أنت تمتلك كل الأمم"
***
وتظهر تلك العقيدة في موضع ثالث من التوراة الحالية.. في سفر التثنية 32: 8
وهو نص ينسبه مؤلفو التوراة إلى موسى، ويقولون أنه جزء من نشيد ألقاه أمام بني إسرائيل.
الترجمة العربية السائدة تجعل النص بهذه الطريقة:
"حين قسم العلي للأمم، حين فرّق بني آدم، نصب تخوما لشعوب حسب عدد بني إسرائيل. إن قسم الرب هو شعبه"
لكن الترجمة اليسوعية مختلفة.. إذ لا تقول أن الشعوب تم تقسيمها حسب عدد "بني إسرائيل"، بل عدد "بني الله".

"حين أورث العلي الأمم، ووزع بني آدم، وضع حدود الشعوب على عدد بني الله، لكن نصيب الرب شعبه"
فما سبب الاختلاف؟
السبب هو أن النص العبري ترد فيه كلمة "بني إسرائيل"، أما نص السبعينية اليوناني فترد فيه كلمة "ملائكة الإله".
فيبدو أن مؤلفي التوراة القدماء وضعوا النص بحيث يشير لـ "ملائكة الأمم"، لكن أحد النساخ اليهود فيما بعد رأى أن هذا المعنى وثني ولا يجوز أن يوجد في التوراة، فوضع بدلا منه كلمة "بني إسرائيل".
لكن يهود الإسكندرية، عندما ترجموا التوراة لليونانية، لم يعلموا بهذا التعديل.. وكانت المخطوطات التي تحت أيديهم هي مخطوطات مؤلفي التوراة القدماء.
ولهذا فالترجمة السبعينية اليونانية تقول أن الرب قام بتقسيم الأمم بين وكلاء له من الملائكة، لكن اختص نفسه بأمة بني إسرائيل.

ولما ظهرت مخطوطات البحر الميت ودرسها الباحثون، وجدوا أنها أيضا تشير لعقيدة "ملائكة الأمم".
ولهذا تقول ترجمة الـ Jewish Study Bible على سبيل المثال أن كلمة "بني إسرائيل" في هذا الموضع لا معنى لها، وأن الصحيح هو الموجود بمخطوطات البحر الميت والسبعينية.
(وترجمة الـ NET والـ GNB تقولان نفس الشيء)
والترجمة اليسوعية تقول في الهامش أن المقصود هو "الملائكة الحراس للأمم".
وترجمة الـ New Oxford Annotated Bible تقول أن ما يقصده النص هو وجود "آلهة صغيرة" تشترك مع الإله في "مجمع آلهة".

الغنوصية

مخطوطات نجع حمادي

في سنة 1947 تم اكتشاف مخطوطات البحر الميت، بكهوف قمران Qumran بفلسطين.. وهي أقدم نسخة لأسفار التوراة الحالية، ومكتوبة قبل الميلاد.
إلا أنه قبل هذا بسنتين كان قد ظهر للوجود كشف آخر، وإن كان يقل عنه في الشهرة: أناجيل نجع حمادي الغنوصية، والتي عُثر عليها في صعيد مصر سنة 1945.

وهي ليست أناجيل بالمعنى المعتاد للكلمة، وليس لها أهمية دينية عند الكنيسة ولا المسلمين ولا اليهود.. لكنها أعادت إحياء الاهتمام بالأفكار الباطنية، وخصوصا الأفكار المعادية للإله وللشرائع.

***

لم تكن تلك الأفكار الغنوصية الباطنية مجهولة قبل العثور على مخطوطات نجع حمادي، بل كانت معروفة للكنيسة والأكاديميين، عن طريق ما ورد في كتب "محاربة البدع والهرطقات"، والتي نشرتها الكنيسة في القرون الميلادية الأولى.
وهي كتب كانت مخصصة للرد على الطوائف المنحرفة عن الاتجاه العام للكنيسة، وتبيين خطورتها.. إلا أن رجال الكنيسة كانوا يبالغون أحيانا في وصف معتقدات وأفعال تلك الطوائف، للتنفير منها قدر الإمكان. ولهذا كان ظهور النصوص الغنوصية هاما عند الأكاديميين، لأنها تؤكد الكثير مما قالته الكنيسة عن الغنوصية.. واتضح أنهم استحقوا فعلا وصفهم بالهرطقة والزندقة.

***

لم يكن الغنوصيون طائفة واحدة، بل عدة طوائف تختلف عن بعضها في الكثير من المعتقدات، لكن تجمعهم بعض الأفكار أساسية. ولهذا لم يلتزموا بنص إنجيلي محدد، بل قاموا بتأليف عدة نصوص، تتباين كثيرا في التفاصيل، وإن كانت تتشابه في التأثر بالأفكار الفلسفية الأفلاطونية وفي استخدام أساليب رمزية معقدة بعيدة عن التصريح والوضوح، وفي التركيز على فكرة صراع الروح مع المادة.

عاش الغنوصيون في القرون الميلادية الأولى كطائفة صغيرة، حينما كانت النصرانية المعتادة واقعة تحت الاضطهاد الروماني ولم تصل بعد للسلطة. لكنهم انقرضوا بعد استتباب الأمر للكنيسة، وإن بقيت أفكارهم محفوظة في الكتب، تظهر من وقت لآخر على مدار التاريخ.

***

الأناجيل الغنوصية Gnostic Gospels تختلف تماما عن الأناجيل المعروفة. فهي لا تهتم بالسرد التاريخي لحياة المسيح ولا بأفعاله، بل عبارة عن حوارات فلسفية طويلة، وقصص أسطورية رمزية، وتأملات صوفية عن علاقة الجسد بالروح.

ويظن كثير من الباحثين اليوم أن الأفكار الغنوصية لم تنبع في البداية داخل وسط مسيحي، بل من داخل وسط يهودي منشق عن اليهودية السائدة، وناقم على الإله، وينظر للدنيا على أنها فاسدة وغير منطقية، وأنها ناتجة عن إله ناقص..
ثم اندمجت هذه الأفكار مع الأفكار المسيحية الناشئة التي نشرها بولس، ومع أفكار أفلاطون، فكان الناتج هو الطوائف الغنوصية وأفكارها الغريبة.
ولهذا توجد نصوص غنوصية لا تذكر المسيح إطلاقا، ونصوص أخرى تجعله المحور الأساسي لعقائدها.

وبشكل عام فإن الطوائف الباطنية طوائف متلونة، ولا تلزم نفسها بدين ظاهري معين، بل تتشكل حسب الدين السائد في مجتمعها، لأنها تهتم بالمعاني الباطنية لا الظاهرية..

فإن عاشت في بيئة وثنية فإنها تؤقلم معتقداتها مع هذه البيئة، وإن عاشت في بيئة مسيحية أو إسلامية فإنها تفعل نفس الشيء.

***

ينظر الغنوصيون للمسيح نظرة مختلفة عن نظرة النصارى والمسلمين.
فالمسلمون يؤمنون أنه كان بشريا، وأن الوحي كان ينزل عليه كما كان ينزل على باقي الرسل.
والنصارى يؤمنون أنه إله متجسد، وأن له طبيعة إلهية وطبيعة بشرية في نفس الوقت.
أما الغنوصيون فقد اختلفوا في الأمر. فبعضهم يقول أن المسيح كانت له طبيعة إلهية فقط، ومستحيل أن تكون له طبيعة بشرية لأن الجسد مادة، والمادة – حسب معتقداتهم - شر. ولهذا يقولون أن ظهوره للناس كان ظهورا شبحيا Docetism، أي بدا للناس أن له جسد، لكنه في الحقيقة كان مجرد صورة نورانية غير ملموسة.
وبعضهم يقول أن المسيح فعلا كان إلها نورانيا، ويستحيل أن تكون له طبيعة بشرية أيضا، لكن كان هناك إنسان عادي اسمه يسوع يعيش في فلسطين ثم هبط عليه المسيح في سن الثلاثين وتقمص جسده لفترة، واستخدم جسده كوسيط يتكلم به مع الناس.. ثم لما تعرض هذا الجسد للصلب فارقه المسيح بكل بساطة ودون شعور بأي ألم، وترك الرجل يتعذب على الصليب حتى مات.
(هذه الأفكار تظهر مثلا في المخطوطة الغنوصية المسماة The Second Treatise of the Great Seth)

(للأسف فإن مؤلف رواية شفرة دافنشي، دان براون، تسبب في انتشار فهم خاطئ جدا عن الغنوصية.. حيث نشر فكرة تقول أن الغنوصيين كانوا يؤمنون ببشرية المسيح! وهذا عكس ما قالوه تماما. فبعض الروائيين يضحون بالدقة العلمية مقابل التركيز على الإثارة والتشويق)

***

اعتقد الغنوصيون أن المسيح جاء برسالتين، واحدة ظاهرية والأخرى سرية باطنية.. وأن طائفتهم هي من تلقت الرسالة السرية.
ولهذا نجد في عناوين بعض نصوصهم كلمة أبوكريفون Apocryphon ، أي "سري".

وخلاصة الرسالة السرية – من وجهة نظر الغنوصية – هي أن إله هذا الكون هو إله صغير، يقل في الأهمية عن الإله النوراني الحقيقي. وأن الأرواح محبوسة في سجن مادي، هو الجسد، وأنها في الأصل جزء من الإله النوراني العلوي.
ويقولون أن الإله الصغير يظن أنه لا إله غيره، مع أن الإله النوراني أكبر منه وفوقه بمسافة هائلة.
ويؤمنون أن الطريق الوحيد كي تعود الأرواح لمصدرها النوراني هو أن تدرك هذه "الحقيقة" إدراكا تاما.. أما طاعة شرائع الإله التوراتي فلن تؤدي للخلاص الحقيقي.

***

بعض طوائف الغنوصية تقول أن الإله الصغير ليس بالضرورة شريرا، لكنه جاهل، وغير قادر على خلق أي شيء يتصف بالكمال والجودة، وأنه لهذا السبب يوجد فساد ونقص في العالم..
أما الطوائف الأخرى فتصرح بأنه شرير ويتعمد حبس الأرواح في الأجساد.

ولهذا فإن الغنوصية يطلقون على الإله الصغير، الذي خلق السماوات والأرض، اسم الـ "ديميارجDemiurge"
أي "الحِرَفي" أو الصانع.
أما الإله "النوراني" فيقولون أنه لا اسم له ولا صفات، ولا يتكلم ولا يخلق شيئا، بل "يسمو

فوق المادة" ويفوق قدرة أي مخلوق على الوصف.
ويقولون أن النور يفيض منه، وأنه خرج منه عدة فيوض إلهية، هي "الملأ الأعلى" أو الـ "بليروما Pleroma".. وأنها مثله، آلهة غير مادية، لكن لها صفات وأسماء. وكل واحد منها يوصف بأنه "إيون Aeon".
وآخر هذه الإيونات وأقلها في الرتبة هي الإلهة صوفيا Sophia ، واسمها يعني: الحكمة.
وهي أم الديميإرج، والمتسببة في ظهور المادة.
***
يؤمن الغنوصية أن الرسالة "السرية" التي خصهم بها المسيح لن تؤثر في عامة الناس إن سمعوها، ولن يصدقوها، لأن أغلب الناس فاقدون للاستعداد الروحاني وللإشراق النوراني الداخلي.
فالغنوصية تعتبر نفسها دين "الخاصة"، و"أهل الباطن".. وأنهم عندما سمعوا الرسالة السرية عرفوها وفهموها بسهولة، لأنها كانت موجودة من البداية في عقلهم الباطن، لكن احتاجت لإيقاظ.
فـ "الإله الشرير" كان هو من أنساهم إياها، عندما حبس أرواحهم الشفافة في سجن الجسد المادي.. وكان يريد أن يظلوا في حالة الجهل والنسيان، لكن نور "الحقيقة" أشرق داخلهم.
***
كلمة "غنوصية" مأخوذة من كلمة "جنوسيس gnosis" اليونانية.
وفي الإنجليزية تسمى "نوستيسيزم Gnosticism"، مع عدم نطق حرف الـ G.
والكلمة تعني "المعرفة Knowledge".. لكنها ليست المعرفة بمعناها المتعارف عليه، بل المعرفة دون دراسة ودون تفقه..
معرفة "إلهامية" يصل لها الإنسان داخليا.
ولهذا فإن الغنوصية الصوفية تسمى "العرفان".
***
من وجهة نظر الغنوصية فإن البشر ينقسمون لثلاثة أقسام:
روحانيون/نيوماتك Pneumatic
نفسانيون/سايكك Psychic
ماديون/هيليك Hylic

الروحانيون هم من يمتلكون روحا، وهؤلاء هم الصفوة، ويمكن بسهولة أن يهربوا من سجن المادة وأن يصعدوا بعد موتهم للإله الروحاني فيندمجون فيه.
أما النفسانيون فلا يمتلكون روحا، بل مجرد نفس.
والماديون لا يملكون روحا ولا نفسا، فهم أدنى الدرجات.

عقائد الغنوصية

يقول د/المسيري:
"يذهب بعض دارسي الغنوصية إلى أن تعددية المصادر وانعدام التجانس هو سمة أساسية فيها...
ورغم تنوع المنظومات الغنوصية، إلا أن ثمة بنية واحدة كامنة"
وهذا صحيح. فهناك اختلافات كثيرة وتناقضات داخل النصوص الغنوصية، لكنها في النهاية تعبر عن أفكار أساسية واحدة.
وأحد هذه الأفكار هو نظرتهم للدنيا، وللمادة بشكل عام، على أنها سجن للروح ويجب الفرار منه.
وأن هذا السجن مصنوع من الجهل.. فإن فهم الإنسان "الحقيقة"، وأصبح "عارفا/غنوصيا"، فسيدرك أن السجن كان مجرد أوهام مزيفة، وأنه أشبه بالحلم.

ونجد هذا المعنى في النص الغنوصي المعروف باسم Treatise on the Resurrection، إذ يقول:
"إنما العالم وهم Illusion"

أما The Book of Thomas the Contender فيقول:
"البعض عندهم أجنحة لكنهم يسارعون نحو المرئي.. نحو الأشياء البعيدة عن الحقيقة.
لأن شعلة النار التي تقودهم تعطيهم صورة وهمية عن الحقيقة، وتضيء لهم بجمال مزيف، وستسجنهم في حلاوة مظلمة وتأسرهم بمتع عطرة.
وستعميهم بشهوات لا تشبع، وستحرق نفوسهم، وتصبح كوتد مغروس في قلوبهم لا يستطيعون نزعه.
كبلتهم بسلاسلها، وقيدت أطرافهم بمرارة أسر الاشتهاء.. اشتهاء تلك الأشياء المرئية التي ستزول وتفسد وتتغير.
منجذبون دائما للعالم الأدنى. ومقتلهم سيكون عندما يندمجون تماما ضمن بهائم العالم الفاني"

ونجد في The Gospel of Truth نصا يقول:
"كانوا يجهلون الآب، ولا يرونه.
كانوا محاطين برعب واضطرابات وفوضى وشك وانقسامات.
أوهام عديدة كانت تعمل بينهم، وخيالات فارغة.. وكأنهم نائمون ويرون كوابيس مفزعة.
فيرون أحيانا أنهم هاربون من شيء ما، أو لاهثون في مطاردة آخرين..
أو أنهم يوجهون ضربات، أو يتلقون ضربات..
يهوون من أماكن مرتفعة، أو يطيرون في الهواء صعودا، مع أنهم بلا أجنحة.
وأحيانا يتخيلون أنهم يتعرضون للقتل، في حين أنه لا يوجد أحد يطاردهم. وأحيانا يكونون هم القتلة الذين يقتلون جيرانهم، والدماء تلوثهم.
من يمرون بكل هذه الأشياء لا يجدونها عندما يستيقظون.. لأنها فعلا لا شيء.
وهذا هو الحال مع الذين نبذوا الجهل واستيقظوا من سباتهم.. لا يلقون بالا للجهل ولا للعالم الذي صنعه، بل ينظرون له على أنه مجرد حلم أفاقوا منه.
معرفة الآب تصبح عندهم هي الفجر.
كانوا نائمين عندما كانوا في حالة جهل، ثم لما عرفوا الحق استيقظوا.
ومبارك هو من فتح عيون العميان"

(وهذه النصوص والأفكار كانت مصدر إلهام للكثير من الأعمال الدرامية الأمريكية المتأثرة

بالغنوصية، كسلسلة أفلام الماتريكس على سبيل المثال)
***
حاول الغنوصية استخدام الفلسفة لتفسير نشأة الكون والمادة، بحيث تتوافق هذه النشأة مع معتقداتهم.. فاخترعوا عدة أساطير لتؤدي هذا الغرض.
وكان ما قالوه هو أن الإله المذكور في التوراة ليس الإله الوحيد، ولا هو أكبر إله.. بل هو ديميإرج، أي صانع، وقد ظهر للوجود بعد قصة طويلة.
وملخص هذه القصة هو أن الإله النوراني الأصلي قد فاضت عنه عدة "أزواج"، تسمى إيونات Aeons..
ثم فاضت إيونات أخرى من هذه الإيونات، حتى انتهى الأمر بظهور زوجين، وكانت صوفيا Sophia هي أحدهما.
وكل زوجين من الإيونات كانا ذكرا وأنثى، إن جاز وصف المخلوقات النورانية غير المادية بهذه الصفات. وكان المطلوب من كل زوجين أن يتعاونا كي تفيض عنهما إيونات أخرى.
والإله النوراني والإيونات يشكلان البليروما، أو الملأ.
لكن صوفيا كانت مختلفة عن باقي الإيونات، حيث انتابتها رغبة في تقليد الإله النوراني، وأن تقوم بإخراج فيض من تلقاء نفسها، دون الاستعانة بزوجها.
وتقول الأسطورة أن هذا كان نوعا من الطموح الزائد عن الحد، أو الفضول الذي يودي بصاحبه إلى التهلكة. إذ كانت النتيجة هي أن ما خرج من صوفيا لم يكن مخلوقا نورانيا جميلا كباقي الإيونات، بل مخلوق غريب، موصوف بأنه "سقط"، أو جنين غير مكتمل.
ففزعت صوفيا من هذه النتيجة. فخبأته في غمامة وأبعدته لخارج منطقة النور.
وكان هذا المخلوق هو الديميإرج.. وكانت الغمامة هي "المادة"، والتي خرجت من رحم صوفيا مع الحمل.

وجد الديميإرج نفسه في فضاء كبير، ولم يعرف من أين أتى، ولم يدرك أن هناك عدة آلهة توجد فوقه في البليروما..
ويقول النص المسمى On the Origin of the World أنه قال: "لا أحتاج أحدا" و"لا يوجد إله غيري".
ولأنه كان يتمتع بقدرات هائلة، ورثها عن أمه، فقد خلق السماوات والأرض، وخلق قادة أقوياء يسمون "الأركونات Archons"
(وهي كلمة يونانية تعني أصحاب السلطة والقوة. والغنوصية يقصدون بالأركونات: الملائكة)
***
يقول الغنوصيون أن الديميإرج والأركونات تعاونوا كي يخلقوا الإنسان من طين. وأن ما دفعهم لهذا الأمر هو أنهم رأوا انعكاسا لصورة صوفيا في السماء، عندما أطلت عليهم مرة. ولم يفهموا ما هي، لكنهم انبهروا بما شاهدوه، فقرروا أن يصنعوا شيئا مثله.
ولما صنعوا الإنسان الأول لم ينجحوا في خلقه، فظل كائنا يزحف على الأرض ولا يستطيع الوقوف ولا الكلام. فأشفقت عليه صوفيا وقررت أن تهبه شيئا من الروح.
وتختلف الروايات في كيفية حصول الإنسان على الروح. فيقول بعض الغنوصية أن الروح كانت داخل الديميإرج، لكن جهله بالحقيقة الغنوصية وبوجود البليروما أدى إلى عدم انتفاعه بهذه الروح. فخدعته صوفيا وجعلته ينفخ روحه هذه في الإنسان.
فقام الإنسان وبدأ يتكلم بأشياء تفوق قدرة الأركونات والديميإرج على الفهم، لأنها أشياء جاءته من الروح.
وهنا شعر الديميإرج وأركوناته بالغيرة من هذه المخلوق، وخافوا أن ينافسهم في ملكهم، فأحاطوه بجسد مادي، وبشهوات تعيقه عن التفكير وتنسيه وجود الروح فيه، وقذفوه في أدنى مكان في الكون.
أما الرواية الأخرى فتقول أن الروح كان مصدرها صوفيا مباشرة.. وأنه لما أخطأت صوفيا، بعدم التعاون مع الإيون زوجها، هبطت خارج البليروما، وأصبحت في منفى.

ثم ندمت وتابت، وتضرعت للرب النوراني كي يرفعها مرة أخرى. وكانت توبتها على ثلاث مراحل، وكل مرحلة كان ينتج عنها شيء. أولا المادة ثم النفس ثم أخيرا أرواح صغيرة.
وهنا جاءها رسول من البليروما، وهو إيون يسمى المسيح، ورفعها لمرتبة أعلى، بحيث تعيش الآن تحت البليروما مباشرة، لكن فوق العالم المادي الذي خلقه الديميإرج.
ويقولون أنه كي تعود صوفيا لمرتبتها الأصلية فإن الأرواح الصغيرة التي انبثقت من توبتها يجب أن تتسامى وأن تنال المعرفة والحكمة. لكن هذه العملية ليست سهلة. ولهذا فإن صوفيا هي من أوحت للديميإرج - دون أن يدري – أن يخلق الكون ويخلق الإنسان، كي تعيش هذه الأرواح مسجونة لفترة في المادة، فتكره المادة، وتتطلع للخلاص الروحاني.
أي أنه حسب هذه الرواية فإن الدنيا هي فترة تدريب وتنقية كي يتحول الإنسان إلى إله، ويفهم أن روحه جاءت من مصدر علوي وليست مخلوقا صنعه إله الكون المادي.
وكلما مرت حياة إنسان روحاني دون أن ينال المعرفة الغنوصية فإنه يعود في جسد جديد، في عملية تناسخ أرواح، إلى أن يفهم الحقيقة.
وفي اللحظة التي ستصعد فيها آخر روح فإن الكون والمادة سيفنيان، وستصبح صوفيا جزءا من الإله النوراني مرة أخرى، ولن يكون هناك جنة ولا نار، ولا أي وجود لشيء مادي ملموس على الإطلاق.

***

الكثير من هذه الأفكار الغنوصية منسوب إلى رجل يسمى فالنتينوس Valentinus ، وهو مؤسس إحدى الطوائف الهامة. ونصوص طائفته مليئة بالتفلسف.
ومع أن أغلب أفكار الغنوصيين مبنية على فلسفة أفلاطون، إلا أنهم يختلفون مع الأفلاطونية في أشياء.
ولهذا انتقدهم أفلوطين في كتاباته. حيث أن أفلوطين (والذي عاش بعد الميلاد) كان يعتبر نفسه مدافعا عن أفكار أفلاطون القديمة، ويرفض أي تعديل عليها أو "عبث بنقائها".
(مع أن أفلوطين نفسه عندما شرح كتابات أفلاطون قام بالتعديل عليها والإضافة إليها!)

وأهم اعتراضات أفلوطين على الغنوصية هي أنهم أخذوا أفكار أفلاطون وشوهوها.
فأفلاطون لم يقل أن المادة شر، ولا أن الديميإرج شرير. بل كانت نظرته للكون إيجابية إلى حد كبير.

وما دعا الفلاسفة أصلا لاختراع نظرية فيض العالم عن إله نوراني ووجود إله آخر يقوم بتصنيع المادة وتشكيلها، ليس كرههم للعالم المادي ولا للإله، بل **رفضهم لفكرة الخلق من العدم**.
(أي لم يستطيعوا الإيمان بأن الله يقول للشيء كن فيكون)
وحاولوا إيجاد تفسير عقلي لتعدد المخلوقات وتنوعها في حين أن الإله واحد. فقالوا بالتأكيد أن هذه المخلوقات قد صدرت من داخل الإله وفاضت منه! (مع أن الحقيقة الإسلامية هي أن الكون والمخلوقات ليست أجزاء من الإله، بل الخالق مختلف عن المخلوق. وهو قادر على خلق الأشياء من العدم. وهو شيء لم يستطع الفلاسفة الإيمان به)

***

في موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية حاول المسيري تتبع المصادر التي استقى منها الغنوصيون أفكارهم، فقال أنها:
بقايا العبادات والديانات الوثنية القديمة، وديانات الأسرار، والديانة البابلية، والفارسية، والفكر اليوناني الفلسفي، والتراث الديني اليهودي، "كما دخلت بعض المفاهيم من العبادات المصرية القديمة: مثل تأليه الإنسان، والعنصر الجنسي في عملية الخلق"
ثم تحدث عن الطوائف التي تأثرت بالغنوصية، فقال:
"بعد القضاء على الهرطقة الغنوصية على يد الكنيسة، وبعد موت قيادتها، استمرت الغنوصية على هيئة حركات دينية خارج الديانات التوحيدية، وأحيانا داخلها.

ويمكن القول بأن منظومة عبد الله بن سبأ هي منظومة غنوصية. ويرى المؤرخون أن التصوف الإسلامي الحلولي المتطرف ذو طابع غنوصي. كما يصنف بعض غلاة الشيعة ضمن الغنوصيين. ويصنف العلويون النصيريون باعتبارهم جماعة إسلامية ذات توجه غنوصي. ويمكن تصنيف عقيدة الدروز والبهائية ضمن أشكال الغنوص. ولا تزال هناك فرقة دينية في العراق وإيران تسمى المندائيين، وهي فرقة غنوصية"
وأضاف أن القبّالا اليهودية تشبه الغنوصية في أشياء كثيرة، خصوصا الرغبة في "الاتحاد بالإله".

***

تتشابه نظرة الغنوصية عن العالم مع فكرة وردت في إحدى كتابات الفيلسوف ديكارت René Descartes
فالعالم عند الغنوصية هو أشبه بالحلم أو الوهم، صنعه إله كي يحبسهم في سجن المادة وينسيهم الحقيقة والإله الروحاني الأصلي.
أما ديكارت فمعروف بأنه فيلسوف الشك. أي أنه حاول إثبات وجود "الموجودات" باستخدام العقل والمنطق فقط، دون اللجوء لأي مصدر آخر.
فاضطر في البداية أن يشك في وجوده هو نفسه، لأن الحواس يمكن أن تكون تخدعه، ويمكن أن يكون الآن في حالة حلم دون أن يدري. وتساءل: إذا كانت الحواس خادعة، كيف سيستطيع التيقن فعلا من أنه موجود كإنسان؟
حاول حل هذه المعضلة، فقال: الدليل على وجودي هو أني قادر على التفكير وأن أبحث في هذه المسائل.. إذ يستحيل أن أكون "لا شيء" وفي نفس الوقت أكون قادرا على التفكير.
فأنا أفكر، إذن أنا موجود.
ثم أراد إثبات وجود الأشياء التي حوله. فقال أن السمع والرؤية والبصر لا تكفي كدليل على وجود الأشياء التي يراها، لأن هناك احتمال أن تكون هذه الأشياء مجرد أوهام وضعها الإله في عقله، بحيث يجعله يظن أنها موجودة في حين أنها مجرد خيالات يتوهمها.
وربما يكون العالم الذي يعيش فيه هو أفكار زرعها في عقله شيطان شرير.
(وواضح تشابه هذه الفكرة مع أفكار الغنوصيين)

بروميثيوس

أصبحت أسطورة بروميثيوس الإغريقية مصدر إلهام لكثير من "التنويريين".
فنجد له تمثالا تجريديا من الرخام الأسود في مكتبة الإسكندرية الجديدة، وتمثالا في ساحة الملياردير روكفلر، والتي خصصها لرعاية الفنون..
ونجد كلمة Prometheus اسما لفيلم أمريكي شهير، يتحدث عن "الصعود للآلهة"، وصراع البشر معها.
ونقرأ رواية فرانكنشتاين، للمؤلفة ماري شيلي، فنجد أن عنوانها الفرعي هو "بروميثيوس الجديد"، وأن موضوعها هو تخليق إنسان باستخدام العلم.
ونرى رواية مصورة للمؤلف الباطني الشهير ألان مور، اسمها هو الصيغة المؤنثة لاسم بروميثيوس: بروميثيا، فنجد أن موضوعها هو القبالا والسحر وتحول الإنسان لإله.

فما هي قصة بروميثيوس، وما هي دلالتها الرمزية التي تجعلها موضوعا مفضلا لكثير من الأعمال الفنية؟

***

اعتقد اليونان الإغريق أن السماء إله اسمه "أورانوس"، وأن الأرض إلهة اسمها "جايا"، وأنهما أنجبا الـ تيتان العمالقة Titans
كان "كرونوس/زحل" أحد هؤلاء التيتان.. وقد انقلب على أبيه أورانوس وصار كبير الآلهة، بعد أن حرضته أمه جايا على قطع العضو الذكري لأبيه.
سبب التحريض هو أن أورانوس كان يسجن أبناءه الوحوش الذين أنجبهم من جايا، لأنهم مخلوقات بشعة ذات مئة يد.
سجنهم في قلب الأرض، تحت الجحيم ذاته، في السجن المظلم المسمى Tartarus
فجمعت جايا أبناءها التيتان وعرضت عليهم منجلا ضخما كي يتشجع أحدهم ويقوم بإخصاء أبيه أورانوس.
لم يوافق من التيتان إلا كرونوس. وبعد أن فعل فعلته قام بإلقاء الجزء المقطوع في البحر.. (ويؤمن الإغريق بأن هذا الجزء تحول فيما بعد للمعبودة أفروديت)
أما الدم المتدفق فسقط على جايا/الأرض من السماء/أورانوس فأنجبت الـ Giants/الجايجانتس.. أي المولودين من الأرض، والذين عُرفوا فيما بعد بقوتهم الشديدة وتجبرهم وعنفهم في القتال.

أصبح كرونوس هو كبير الآلهة وزعيم التيتان إخوانه وأخواته.. لكن أورانوس، الإله القديم، تنبأ بأن أبناء كرونوس سينقلبون عليه كما انقلب هو على أبيه.
استمر كرونوس في حبس الوحوش ذات المائة يد في تارتاروس ولم يطلقهم في الأرض كما كانت ترغب أمه.
وسيطرت عليه حالة خوف بسبب النبوءة.. فكان كلما أنجب مولودا من زوجته "ريا Rhea" ابتلعه في الحال!
وبعد تكرار الأمر عدة مرات احتالت ريا فخبأت مولودها الأخير، زيوس Zeus، ووضعت بدلا منه في المهد صخرة مغطاة، فابتلعها كرونوس بسرعة وهو يتصور أنها زيوس.
لما كبر زيوس تنكر وسقى أباه شرابا جعله يتقيأ كل من ابتلعهم..
وهكذا أنقذ زيوس إخوته، وكونوا جماعة قررت قتال أبيهم واغتصاب السلطة منه.
بدأت حرب التيتان والأوليمب، واستمرت 10 سنوات.
كرونوس كان معه إخوانه من التيتان بالإضافة للجايجانتس المخلوقين من الأرض جايا..
أما زيوس فاتخذ مقره في جبل الأوليمب، وكان معه إخوانه، ومنهم: هيرا، وهيدس، وبوسيدون.. بالإضافة لأخين من التيتان، هما بروميثيوس وإبيميثيوس.
وقف بروميثيوس مع فريق زيوس أثناء الحرب لأنه توقع فوزهم على التيتان. فاسم

بروميثيوس يعني "استشراف المستقبل" أو الفطنة وحسن التدبير.

حرر زيوس الوحوش ذات الـ100 يد من سجنها، فانضمت له في الحرب ضد التيتان.
بعد هزيمة التيتان صار زيوس هو كبير الآلهة، وجعل الوحوش هي السجان الذي يراقب التيتان والجايجانتس بعد أن حبسهم في السجن المعهود.
وتم إعفاء بروميثيوس من العقاب، مع أنه تيتان، بسبب دوره في الحرب. إلا أن العلاقة الطيبة بين زيوس وبروميثيوس لم تستمر طويلا.
فبعد خلق البشر ليصبحوا عبيدا لزيوس، غضب عليهم، فحرمهم من القدرة على استخدام النار.
وتقول بعض روايات الأسطورة أن سبب غضبه هو خدعة تعرض لها على يد بروميثيوس.
حيث أنه عندما جاء وقت تحديد القرابين التي سيقدمها البشر لزيوس قام بروميثيوس بتقسيم جسد الأضحية لقسمين، قسم فيه اللحم وقسم فيه العظم.. لكن قسم اللحم كان مخفيا تحت أجزاء من معدة الحيوان، وقسم العظم كان مخفيا تحت طبقة من الدهون.
وقال لزيوس: اختر أي القسمين، بحيث يأكل البشر للأبد القسم الثاني، ويهبون لك قسمك كقربان.
فانخدع زيوس واختار قسم العظام، وهو يظن أن الدهون تحتها اللحم الشهي.
وكان هذا هو سبب غضبه، حيث أن بروميثيوس آثر مصلحة البشر على مصلحة كبير الآلهة.
فكان رد فعل زيوس هو حرمان البشرية من النيران. فأصبحوا معرضين للبرد، وتوقفت الصناعات المعدنية، وعجزوا عن طهي الطعام.
أشفق عليهم بروميثيوس وسرق شعلة من معبد جبل الأوليمب وأعطاها للبشر.
وهنا عاقبه زيوس بأن ربطه بالسلاسل على جبل، وجعل النسر العملاق يأكل كبده كل يوم، ثم ينمو الكبد من جديد، في دورة عذاب لا تنتهي.

وهكذا أصبح بروميثيوس رمزا للتضحية، ولصراع البشر مع الآلهة، ولـ "تفوق العقل على الدين".. فكان من الطبيعي أن يصبح شخصية مفضلة عند الليبراليين، لأنهم ينظرون للشرائع على أنها قيود تحد من حرية الإنسان وتؤخر الحضارة.

***

وكل عدة سنوات يتجمع مندوبون من البشر في بلد من البلاد، كي يتباهوا بقوتهم وبعظمة الإنسان، وبقدراته التي تتحسن باستمرار.. وهذا التجمع هو الأوليمبياد.
وضمن الطقوس الرسمية للأوليمبياد يتم إشعال شعلة في بلاد اليونان، ثم يتم نقلها للبلد المستضيف. وهذه الشعلة هي شعلة بروميثيوس، كما يقول منظمو المسابقة.
وقد بدأ طقس نقل الشعلة مع أوليمبياد 1936 الذي استضافه النازيون في ألمانيا، كاقتراح من المسؤول النازي الرياضي المشرف على الحدث.

كهف أفلاطون

استخدم أفلاطون أسلوب القصة والحوار كي يعرض أفكاره الفلسفية. وفي الفصل السابع من كتابه "الجمهورية" نجد أشهر قصصه الرمزية: الكهف.
يقول أفلاطون: "تخيل كهفا تحت الأرض، له فتحة على سطح الأرض، ونهايته الأخرى مسدودة. داخل الكهف يجلس مساجين، ظهورهم للفتحة ووجوههم للنهاية المسدودة..
وهم مقيدون بالسلاسل بحيث لا يمكنهم النظر خلفهم، وكل ما يرونه هو الحائط وما يقع عليها من ظلال.
حالهم هكذا منذ أن كانوا أطفالا.. لا يعرفون من الواقع إلا ما يشاهدونه على حائط الكهف.
خلفهم ممر صاعد لأعلى، وفي منتصفه جدار، ووراء الجدار نار مشتعلة.
الجدار يخفي خلفه أشخاص يمرون باستمرار، ويحملون تماثيل خشبية وحجرية لأشياء، كطيور وكلاب وقدور. بعض الأشخاص يتكلم أحيانا وبعضهم صامت.
النار تجعل للأشياء ظلالا متحركة تقع على الحائط المسدود الذي يشاهده المساجين..
والجدار يحجب ظلال الأشخاص المتحركين، فلا يعلم المساجين أن ما يشاهدونه هو مجرد ظلال لأشياء محمولة.
مفهوم المساجين عن الواقع هو أن الظلال المتحركة هي أشياء حقيقية، لا يدركون أن في الدنيا غيرها، ولا أنها مجرد صور ميتة لأشياء حقيقية.
يظن المساجين أن صدى صوت الأشخاص الذي يسمعونه هو صوت صادر عن الظلال المتحركة.

والآن، ماذا لو أطلقنا أحدهم من الأسر وفككنا سلاسله؟
سيصعد الممر ويرى شعلة النار، لكن حساسية عينيه التي تعودت على الظلام والظلال ستجعل رؤيته مؤلمة ومشوشة، فسيرى التماثيل المحمولة لكن بصعوبة.
وعندما يقال له أن هذه التماثيل هي الأصل الحقيقي للظلال التي ظل يراها طول حياته، سيقول أن الظلال كانت واضحة لكن هذه التماثيل غير واضحة لعينيه. وربما جرى عائدا لمكانه القديم، غير مصدق أن التماثيل ستصبح أوضح أمام ناظره مع الوقت ومع تعود عينيه على ضوء النار!

والآن، ماذا لو جررناه وجعلناه يصعد الممر، رغما عنه، بحيث يخرج من الكهف تماما ويصبح على سطح الأرض؟
في البداية ستنبهر عيناه بضوء النهار، وسيصاب بعمى مؤقت وآلام، لأنه تعود على الظلام منذ طفولته.
بالتدريج ستظهر الأشياء أمامه، مشوشة في البداية وغير واضحة.
سيفضل الليل على النهار، لأن الليل سيكون مريحا لبصره، وسيرى انعكاس القمر والنجوم على سطح ماء الأنهار، ثم بالتدريج سينظر للقمر نفسه وللنجوم ويراهم لأول مرة. ومع مرور الوقت سيستطيع الرؤية في النهار والنظر لصورة الشمس المنعكسة على سطح الماء، وفي النهاية سيستطيع رؤية الشمس ذاتها مباشرة!
وعندها سيفكر في الشمس، ويدرك أنها سبب الحياة وتكوين كل شيء، وسبب الفصول، وحارسة كل شيء ظاهر في الأرض.
ثم سيفكر في حاله القديم، وكيف كان يجلس مع زملائه المساجين، يطلقون أسماء على الظلال المتحركة، ويتنافسون بينهم أيهم يتوقع حركة هذا الظل أو ذاك.. ويظنون أذكاهم وأعلمهم هو من يقدر على التنبؤ بأن ذاك الظل سيمر بعد ذلك الظل، وهكذا!
سيبتهج أن خرج من جهله القديم، وسيقرر ألا يعود للوهم ثانية، وسيأسف على حال زملائه الباقين في الأسر، يظنون أن ما يرونه هو الحقيقة والواقع.

والآن، ماذا لو أعيد لمكانه القديم بينهم؟!
الانتقال من الضوء الباهر إلى ظلام الكهف سيصيبه بتشوش الرؤية. زملاؤه الذين لم يروا النور أبدا سيكونون أقدر منه على التمييز بين الظلال، لأنهم تعودوا عليها!
وسيصبح أضحوكة بينهم. وسيسمع سخرية ونكات عن "صاحبنا الذي يزعم أنه رأى شمسا، مع أنه الآن لا يستطيع حتى رؤية الظلال المتحركة!"
وسيصير مضطربا، وسينظرون له كمجنون، وسيرفضون أي محاولة لفك سلاسلهم، بل ربما قتلوا من يريد إرغامهم على الخروج من الكهف، لخوفهم من أن يصيبهم الاضطراب الذي أصاب صاحبهم!

الكهف هو الدنيا، وشعلة النار في القصة ترمز لشمسنا المعروفة، ورحلة الصعود هي رحلة ارتقاء الروح والعقل لمعرفة "المُثُل" (التي هي الأصول الحقيقية المجردة للأشياء التي نراها في عالمنا.. فأفلاطون كان يقول أن كل ما حولنا هو صور ونماذج منسوخة من أصول "عقلية" موجودة في العالم الروحاني)
والشمس في القصة الرمزية ترمز لـ "الأصل العلوي الروحاني".. الحقيقة المطلقة.. والتي شمسنا المعروفة في عالمنا ما هي إلا صورة لها وتجسيد.
وهذا الأصل العلوي هو خالق كل شيء، ومصدر كل شيء، ويراه الفيلسوف بعد بحث ومعاناة.
وعندما يصل للحقيقة عليه ألا يظل في العالم العلوي، بل أن يضحي وينزل للعالم المادي الدنيوي ليصبح حاكما ومرشدا للناس، ملكا فيلسوفا Philosopher King



هذه هي فلسفة "كهف أفلاطون"، وقد أصبحت إلهاما هاما للباطنية، وخصوصا الغنوصية.
***
وهذه القصة الرمزية تشبه قصة لـ "هـ ج ويلز" اسمها: بلد العميان، عن رجل تاه ووصل لوادٍ يعيش فيه عميان معزولون عن العالم، وكيف أنه كان يظن أنه بما أن المثل يقول "الأعور يكون ملكا في بلد العميان" فمن الطبيعي أن يكون هو، المبصر، ملكا أيضا عليهم. لكن العميان كانوا قد تعودوا على تسيير حياتهم، ورفضوا تصديق وجود شيء اسمه البصر أصلا.. وقالوا له: كي تعيش بيننا يجب أن تكون مثلنا وأن تشفي نفسك من مرض "الرؤية" هذا!

الأدب

عندما أصدرت المؤلفة "ماري شيلي" روايتها الشهيرة: فرانكنشتاين Frankenstein
جعلت لها عنوانا فرعيا هو: The Modern Prometheus
أي: بروميثيوس الجديد.
(وزوجها، "بيرسي شيلي"، له مسرحية شعرية رمزية، عنوانها "بروميثيوس طليقا".
موضوعها هو انتصار بروميثيوس على كبير الآلهة)

تحكي الرواية قصة فيكتور فرانكنشتاين، طالب العلم، وسعيه المحموم لتحقيق ما لم يستطعه كل من سبقوه.
فيبدأ حياته بدراسة الخيمياء، باحثا عن طريقة لتصنيع حجر الفلاسفة أو إكسير الحياة، ثم يترك هذا المجال ويتجه للعلم التجريبي.
وينجح في التوصل لطريقة لنفخ الحياة في الجمادات، وتكون النتيجة هي تكوين إنسان، قادر على التفكير والتعلم.. لكنه قبيح.
ينفر فرانكنشتاين من المخلوق على الفور، ويتخلى عنه، فيقرر المخلوق الانتقام من عائلة فرانكنشتاين.. خصوصا عندما يرفض فرانكنشتاين أن يصنع له زوجة تماثله.
وتنتهي الرواية بموت فرانكنشتاين وانتحار المخلوق.

ينظر النقاد للرواية على أنها من أوائل قصص الخيال العلمي في الأدب، حيث أن البطل يتجاوز الأحلام الخيميائية القديمة، ويشك في إمكانية تصنيع إكسير يطيل الحياة ويشفي من كل الأمراض، فيقرر اللجوء للعلم لتحقيق أشياء كانت مقتصرة على الآلهة فقط: خلق الروح وتحويل الميت إلى حي.
وكبروميثيوس، يسعى فرانكنشتاين لسرقة "الشعلة" من كبير الآلهة.. لكن تنتهي القصة نهاية تراجيدية.

(فكرة انقلاب المخلوق ضد خالقه البشري موجودة أيضا في أسطورة الجولم Golem اليهودية. فقد كان بعض يهود أوروبا يعتقدون أن أحد الحاخامات نجح في تخليق إنسان من الطين، بطرق سحرية، لكنه كان مخلوقا أبكما لا يتكلم. وكان يستخدمه في الدفاع عن اليهود ضد الاضطهاد، وفي تأدية بعض المهام التي تحتاج لقوة جسدية. لكن يفشل الحاخام في السيطرة على المخلوق بعد فترة، فيضطر لإزالة تعويذة الحياة منه، فيتحول لطين مرة أخرى)

***

بالإضافة لفرانكنشتاين، تظهر أفكار باطنية عند مؤلفين إنجليز آخرين.
فالرسام والشاعر ويليام بليك Blake كان معروفا باستخدامه للرموز الباطنية في أعماله..
وتولكين، مؤلف ثلاثية "سيد الخواتم Lord of the Rings"، تأثر بفكرة الإيونات الغنوصية عندما قام بتأليف قصته المسماة Ainulindale (وهي "قصة الخلق" في عالم سيد الخواتم. ومنشورة في السيلماريليون The Silmarillion)

أما في قصص الأطفال فيمكن الإشارة لـ "ساحر أوز Wizard of Oz" وكيف أن البطلة دوروثي انتقلت فجأة لعالم يشبه الأحلام، ثم اكتشفت أن الساحر الرهيب الذي يثق الجميع في قدراته ما هو في الحقيقة إلا رجل عجوز يختفي خلف ستار ويستخدم آلات وخدعا سينمائية لإبهار الناس!
وهذه الفكرة غنوصية، ومتأثرة بعقيدتهم عن "العالم الوهمي الخادع".

***

ونجد نفس الفكرة في قصة المؤلف لويس كارول الشهيرة، أليس في بلاد العجائب، وفي

جزئها الثاني: عبر المرآة.
فسقوط أليس Alice في الحفرة (بسبب فضولها وجريانها وراء الأرنب الأبيض) يشبه فكرة الغنوصية عن سقوط صوفيا في عالم المادة الغريب عليها.
وتساؤل أليس عن حقيقة "بلاد العجائب" هو تساؤل غنوصي عن حقيقة العالم المادي بالمقارنة بالعالم الروحاني العلوي.. خصوصا وأن أليس تحاول في نهاية القصة أن تجيب على سؤال يحيرها: إن كان ما رأته هو حلم فعلا، فمن الذي كان يحلم.. هي أم الملك الذي رأته نائما؟!
هل تعيش هي "داخل حلمه" أم يعيش هو "داخل حلمها"؟
وتنتهي قصة أليس ببيت شعر يقول: ما الحياة إلا حلم.
(وواضح أنها أسئلة فلسفية لا تناسب جمهور القصة من صغار السن. لكن المؤلف كان متخصصا في الجبر والمنطق، ويعمل في الكنيسة، فتأثرت قصصه باهتماماته)
وعندما تنتصر أليس على الملكة في عالم الأحلام تنجح أخيرا في الخروج من هذا العالم الغريب والعودة لعالمها الأصلي.. وهذا يشبه فكرة الغنوصية عن الانتصار على الديميإرج وتحرير الروح من عالم المادة والعودة للعالم النوراني.

وللباحثة Sherry Ackerman كتاب عن لويس كارول، عنوانه Behind the Looking Glass، درست فيه تأثره بالأفكار الفلسفية والدينية والعلمية التي سادت عصره، وكيف استخدمها في قصة أليس. وخصصت فصلا عن الأفكار الغنوصية والأفلاطونية الموجودة في القصة.

السينما الغنوصية: الماتريكس

أنتجت هوليوود الكثير من الأفلام الغنوصية، مثل Dark City و The Truman Show و The Island و The Nines .. لكن سلسلة أفلام الماتريكس The Matrix هي ما أحيا الاهتمام الشعبي الغربي بالأفكار الغنوصية، وجعلها مألوفة لكثير من الشباب.

في الأفلام المتأثرة بالغنوصية غالبا ما نجد البطل يعيش في عالم وهمي، مزيف، وأنه يسعى للتحرر من هذا السجن.. (كما كان الغنوصيون يسعون للـ "تحرر" من قيود عالم المادة/الجسد، والانتصار على الإله الديميإرج وأركوناته الأقوياء)
ونجد أيضا أن هذا النوع من الأفلام يجعل البطل في البداية مخدوعا، وواقعا تحت التأثير العقلي لهذا العالم المزيف.. لكن سرعان ما تقع أحداث تثير شكوكه في حقيقة ما يراه وما يعيشه، ويبدأ في تلقي رسائل تحاول "إيقاظه" وتنبيهه.

***

تتكون سلسلة الماتريكس من ثلاثة أفلام سينمائية، ومجموعة من الأفلام المتحركة القصيرة، وألعاب فيديو، وقصص مصورة، وفيلم وثائقي.
وبسبب الأفكار الفلسفية التي تقوم عليها السلسلة، والتفاعل الجماهيري الكبير معها، صدرت عدة كتب ودراسات عن الماتريكس، وعن ارتباط القصة بالتوجهات الفكرية المنتشرة في المجتمعات المعاصرة.
(ومنها كتاب: The Matrix in Theory و Philosophers Explore The Matrix و Jacking In To the Matrix Franchise)

تعاون الأخان لاري وأندي واتشوسكي Larry & Andy Wachowski على كتابة وإخراج الثلاثية. وقد تميزا بقدرتهما على التأليف بين العديد من الموضوعات المختلفة، وصياغتها في منتج نهائي له العديد من "المستويات".
فمحبو الأكشن سيجدون في الأفلام مبتغاهم، ومحبو الأفلام المتحركة اليابانية أو أفلام الخيال العلمي سيجدون أن سلسلة الماتريكس متأثرة بها بدرجة كبيرة.
وإن كان المتفرج يهتم بالهندوسية أو البوذية أو المسيحية، أو بالفلسفات الوجودية أو العدمية، أو بالفنون القتالية الآسيوية، أو بتكنولوجيا الاختراق الإلكتروني (الهاكرز)، أو بالفيديو جيم، فسيجد كل هذا في الثلاثية.
ولهذا نجد الممثل "لورنس فيشبرن" (الذي قام بدور مورفيوس) يقول في الوثائقي The Matrix Revisited:
"فيلم بهذا الذكاء يعتبر معجزة أن تمت الموافقة على إنتاجه!"

لكن كل هذه المستويات لم تكن إلا غلافا خارجيا للفكرة الرئيسية التي أراد الأخان واتشوسكي إثارتها فعلا في ذهن المتفرج: الغنوصية.

***

كتب مؤلف الخيال العلمي William Gibson على موقعه الإلكتروني معلقا على التشابه بين روايته الشهيرة Neuromancer وبين الماتريكس، فقال أنهما متشابهان في أفكار الخيال العلمي، لكن الفارق هو أن الماتريكس غنوصية، على عكس روايته. وأضاف أن الأفكار الغنوصية السائدة في الماتريكس تقترب من كتابات Philip K. Dick
(فيليب ك ديك كان مؤلف خيال علمي شهير، وبعد وفاته تحولت الكثير من قصصه لأفلام)

أما مؤلف القصص المصورة Grant Morrison فقال:
ذهبت لأشاهد الماتريكس فوجدت الكثير من أفكاري مجسدة على الشاشة.. ورأيت غزو الغنوصية لهوليوود.

93
(Supergods: Our World in the Age of the Superhero, p 315)
***
عندما صدر الجزء الأول من الماتريكس، في 1999، انبهر به الجميع.. الجمهور والنقاد.
لكن عندما صدر الجزءان التاليان، في 2003، تباينت ردود الأفعال.
السبب الرئيسي لهذا هو زيادة الجرعة الفلسفية في الجزء الثاني، (خصوصا في المشهد الشهير الذي يظهر فيه "مهندس الماتريكس" وهو يتكلم بلغة مقعرة ويشرح مفاهيم معقدة)، وانتهاء الجزء الثالث دون تفسير النهاية بكلمات واضحة ومحددة، بل ترك التفسير للمتفرج ولقدرته على تجميع خيوط الحبكة بنفسه.
(فالمتفرج في العادة لا يحب النهايات الغامضة. وقد حدث شيء مشابه مع المسلسل الشهير Lost، حيث أن عددا كبيرا من محبيه شعروا بالغضب بسبب ما وصفوه بـ "غموض حلقته الأخيرة")
وبعد انتهاء سلسلة الماتريكس بحوالي عشر سنوات قال لاري واتشوسكي أن ما حدث كان مقصودا من البداية.
"ما كنا نريد تحقيقه هو إحداث انتقال أو تغيير في المتفرج، بحيث يكون موازيا للتغير الذي يتعرض له نيو، بطل الثلاثية.
فنيو ينتقل من حالته الأولى، حيث كان يعيش في شرنقة، وفي عالم كل شيء فيه مبرمج بدقة، إلى عالم جديد يتيح له تحديد معنى حياته بنفسه.
ولهذا كان الفيلم الأول في الثلاثية كلاسيكيا في حبكته الدرامية، لكن الفيلم الثاني كان تفكيكيا، ويهاجم كل الحقائق التي وردت في الفيلم الأول، ويفككها. ثم جاء الفيلم الثالث فكان أكثر غموضا، لأنه يطلب من المتفرج أن يشارك بنفسه في تشكيل معنى القصة"
***
كان هذا الحوار جزءا من مقابلة نادرة مع الأخين واتشوسكي، حيث أنه من المعروف عنهما تحاشي الإعلام والمقابلات الصحفية قدر الإمكان.
(بعد سنوات اتضح سبب هذا التحاشي، عندما أعلن لاري أنه قام بعملية "تغيير جنس" وأصبح اسمه لانا Lana. والغريب أن أخاه، أندي، قام بنفس العملية بعد فترة، وأصبح اسمه الجديد هو ليلي Lilly)
***
يبدأ فيلم الماتريكس الأول بتقديم شخصية البطل، توماس أندرسون، وشعوره الدائم بالغربة في عالمه.
في الصباح يعمل أندرسون في شركة برمجة محترمة ومنضبطة، أما في الليل فهو "هاكر"، يبيع برمجيات غير قانونية تحت الاسم المستعار نيو Neo.
(كلمة "نيو" باللاتينية تعني: جديد)
وهكذا يعرف المتفرج أن المظهر الهادئ للبطل يخفي تحته روحا متمردة على السلطة وعلى القيود.
يقضي نيو جزءا من لياليه على الإنترنت، يبحث عن شخص يسمى مورفيوس، وعن إجابة على سؤال يلح عليه: ما هي الماتريكس؟
رسميا فإن مورفيوس هو شخصية خطرة، وتعتبره الحكومة زعيما لمنظمة إرهابية، لكن نيو يشعر أن مورفيوس يملك الإجابة على السؤال، ويمكن أن يساعده في فهم مصدر شعوره الدائم بالغربة، وسبب إحساسه الداخلي الطاغي بأن هناك "شيء ما خطأ في العالم".
ما لا يعرفه نيو هو أنه كما أنه يبحث عن مورفيوس فإن مورفيوس أيضا يبحث عنه.
فالعالم الذي يعيش فيه نيو، وباقي البشرية، هو فعلا عالم "به شيء خطأ".. عالم مزيف ومصطنع، ومختلف تماما عن العالم الحقيقي. ومورفيوس هو جزء من مجموعة مقاومة تريد إيقاظ البشر وتنبيههم لزيف عالم الماتريكس.
ويؤمن مورفيوس بأن نيو هو البطل الذي تنتظره المقاومة منذ سنوات طويلة، وأنه "المخلِّص"/"المنتظَر" الذي سيقضي على العالم المزيف وسيحرر البشر من الوهم الذي

يعيشون فيه.

هذه النبوءة، (أي ظهور بطل مخلص)، نشرتها امرأة غامضة تسمى: العرّافة The Oracle ، تقوم بمساعدة المقاومة من وقت لآخر، وتعيش داخل الماتريكس.
أما المقاومة فيعيشون في العالم الحقيقي، خارج عالم الماتريكس المزيف.. وعندما يريدون دخول الماتريكس يقومون باختراق أكواد منظومة الماتريكس و"زرع عقلهم" داخلها، ثم الخروج منها بعد انتهاء المهمة.

لكن ما هي الماتريكس؟
الماتريكس هي عالم افتراضي. مجرد برنامج كمبيوتر ضخم، متصل بعقول ملايين البشر الراقدين في حالة سبات، وغير الواعين أن تفاصيل حياتهم التي يعيشونها يوميا، ما هي إلا أحلام تدور في عقولهم فقط.. وأن أجسادهم ساكنة في شيء يشبه التابوت، منذ أول يوم في حياتهم إلى آخر يوم فيها.
هذا العالم الافتراضي هو سجن صنعته آلات تتميز بالذكاء الصناعي، وتستخدمه للتحكم في البشرية، كي يظلوا ساكنين دون أدنى مقاومة أو اعتراض، لكن دون أن يتوقف مخهم عن العمل.
والهدف من وجود هذه المنظومة البشعة هو احتياج الآلات للطاقة. فبسبب الحروب القديمة بين البشر والآلات لم تعد الطاقة الشمسية متاحة للآلات، ولهذا قاموا بتحويل أجساد البشر لشبه "بطاريات"، تنتج الطاقة اللازمة، ثم بعد استهلاكها يتم تذويبها وتحويلها لمكونات أساسية، ثم يتم تغذية هذه المكونات في أجساد البطاريات البشرية الأخرى.
ففي العالم الحقيقي، والذي تعرض للتدمير ولحالة إظلام تام، توجد حقول هائلة المساحة، تحوي أجساد ملايين البشر النائمين، وحولهم تعيش ملايين الروبوتات، تتغذى على طاقتهم، وتتحكم في الأرض، والتي يرون أنها أصبحت أرضهم وعالمهم بعد انهزام البشر واستسلامهم للآلات.

لكن تحت سطح الأرض توجد مدينة واحدة لا زال يعيش بها البشر، وتسمى صهيون/زيون Zion.
هي المعقل الأخير الذي يتجمع فيه أفراد المقاومة، وأغلبهم كانوا سجناء في الماتريكس في بداية حياتهم ثم نجحت المقاومة في تحريرهم من العالم المزيف وأخرجتهم من التوابيت/البطاريات.
بدأ مجتمع زيون صغيرا، ثم مع مرور السنين ازداد عددهم، وبالتالي ازدادت قوة المقاومة وزاد تأثيرها. وتدور أحداث الفيلم بعد مرور حوالي 100 سنة على تأسيس زيون، حيث أصبح عدد سكانها يقترب من الـ 250 ألف.

عندما أراد مورفيوس تحرير نيو من الماتريكس أرسل له مساعدته المسماة ترينيتي Trinity لتمهد عقله لاستقبال الحقيقة الصادمة: أن عالمه الذي عاش فيه طوال حياته ما هو إلا حلم كان يعيش فيه. فشركته التي يعمل بها ليس لها وجود حقيقي، وغرفته التي يعيش بها ما هي في الحقيقة إلا صورة داخل كمبيوتر، وترينيتي التي تقف بجواره الآن هي في الحقيقة راقدة على كرسي في سفينة مورفيوس، في العالم الحقيقي، وعقلها فقط هو المتصل بالماتريكس، عن طريق اختراق/تهكير مؤقت.

أفراد المقاومة معرضون دائما للخطر أثناء هذه الاختراقات/الزيارات للماتريكس.
فالآلات تعلم أن المقاومة يقومون باختراق الماتريكس، وحيث أن الآلات لا يمكنها دخول الماتريكس بنفسها (حيث أن الماتريكس مجرد نظام تشغيل برمجي) فقد قامت ببرمجة "رجال أمن"، يشبهون عملاء المباحث الفيدرالية Agents، ويتمتعون بقوة فوق بشرية.

مهمة هؤلاء العملاء هي الحفاظ على أمن المنظومة، وعرقلة أي جهود تسعى لكشف زيف الماتريكس، وتتبع أفراد المقاومة وقتلهم.
فأفراد المقاومة إن تم قتل "عقلهم" داخل الماتريكس فإن جسدهم (الموجود على سفن المقاومة في العالم الحقيقي) يموت أيضا: لأن الجسد لا يمكنه الحياة دون العقل.
***
حدث اللقاء بين نيو ومورفيوس داخل الماتريكس، وأخبره مورفيوس بجزء من الحقيقة، في صورة تلميحات، وقال له أن الحقيقة بكاملها لا يمكن استيعابها بمجرد سماعها، بل عليك رؤيتها بنفسك.
وقال له أن الماتريكس تحيط بك من كل مكان.. ستشعر بها إن شاهدت التلفاز أو جلست في الكنيسة أو ذهبت للعمل أو دفعت الضرائب. فهي العالم الذي يحجبك عن الحقيقة.
وعرض عليه كبسولتين: زرقاء وحمراء. الزرقاء ستبقيه في عالم الماتريكس وتنسيه هذه الشكوك، أما الحمراء فستحرره وستصل به للعالم الحقيقي الواقعي.
اختار نيو بلع الكبسولة الحمراء، فاستيقظ فجأة ليجد نفسه عاريا، ومحبوسا في تابوت شفاف مليء بالسوائل، وكأنه جنين داخل الرحم.
نظر حواليه فوجد الآلاف من البشر يرقدون في توابيت مشابهة، ثم ظهرت آلة (من الآلات المسؤولة عن العناية بـ "البطاريات") وفحصته، ثم تم قذفه خارج البطارية.
وبسرعة اقتربت منه سفينة مورفيوس المحلقة (وهي من نوع الـHovercraft واسمها: نبوخذنصر)، والتقطته.. وبدأ أفراد المقاومة في معالجة جسده الضعيف وأعضائه الضامرة (حيث أنه لم يستخدم عضلاته الحقيقية في الحركة قط)

بعد أن تعافى قام مورفيوس بتعريفه على باقي أعضاء طاقم السفينة، ثم أخبره بحقيقة الماتريكس في وضوح.
قال له أن المقاومة تعيش تحت الأرض، وأنها تنتقل باستخدام هذه السفن المحلقة. وأن سطح الأرض لم يعد يصلح لحياة البشر، بل صار باردا وجافا ومظلما.
وأن الآلات تعيش على سطح الأرض، ولا تتأثر بالبرودة ولا الجفاف ولا بآثار الحرب النووية.
وقال له أن المقاومة لا تقوم بتحرير إلا الصغار والمراهقين، لأن عقولهم تكون أقدر على استيعاب الصدمة، أما كبار السن فيكونون في الغالب قد تعودوا على الماتريكس وصعب إقناعهم بالحقيقة دون أن يصابوا بالجنون.
وأنه قام بالمخاطرة بتحرير نيو، مع أنه شاب تخطى سن المراهقة، لأن مورفيوس يؤمن أن نيو هو المخلص المنتظر والذي تحدثت عنه نبوءة العرافة.. وأنه هو الواحد The One الذي سيحرر البشرية من سجن الآلات.
(لاحظ أن اسم نيو Neo هو نفس حروف كلمة One)
وأخبره أن المقاومة بدأت بشخص واحد، قبل مئة سنة، كان يعيش داخل الماتريكس كباقي البشر لكنه كان يتمتع بقدرات عقلية خارقة تجعله قادرا على كسر قوانين الماتريكس وتعديلها كما يشاء. وأنه حرر عدة أشخاص آخرين ثم أخذهم للعالم الحقيقي وأصبحوا نواة المقاومة وزيون.

بدأ مورفيوس في تدريب نيو على القتال، وعلى كسر الحواجز العقلية التي تمنع البشر العاديين من تخطي قوانين الطبيعة.
فبما أن الماتريكس مجرد برنامج كمبيوتر مصنوع من أكواد، إذن فنظريا يمكن كسر هذه الأكواد وتعديلها، بحيث يقلل الإنسان مثلا من تأثير الجاذبية (فيقفز لمسافات أبعد من المعتاد)، أو يقوم بتحميل موسوعات معرفية لذهنه في لحظات فيكتسب معارف عملية كثيرة دون تدريب.. فيصبح مثلا بارعا في الكونج فو أو قادرا على قيادة طائرة عسكرية.
إلا أنه عمليا فإن أفراد المقاومة لم يصلوا أبدا لنفس قدرات العملاء وقوتهم، بل كل من حاول مقاومة أي عميل من عملاء الماتريكس الأمنيين تعرض للقتل.

يلتقي نيو بالعرافة، فلا تخبره صراحة إن كان هو الشخص المنتظر أم لا، لكن تخبره أنه ربما يكون هو فعلا البطل المنتظر لكن في "حياته القادمة".
وخلال اللقاء تلمح له أن ترينيتي تحبه.
(وهذا التلميح هام لأحداث القصة فيما بعد. حيث أن العرافة بهذه الطريقة تحاول إثارة مشاعر الحب في قلب نيو ناحية ترينيتي.. خصوصا وأن العرافة في الماضي كانت قد أخبرت ترينيتي أنها ستقع في حب شخص وأن هذا الشخص سيكون هو البطل المنتظر. أي أن العرافة في الحقيقة تقوم بتوجيه الاثنين لنتيجة معينة: أن يقعا في الحب، وأن يؤمنا أن نيو فعلا هو المنتظر.
وكانت العرافة قد أخبرت مورفيوس في الماضي أنه سيعثر على المنتظر. فهي في الحقيقة أهم شخصية في الفيلم، لأنها تحرك الأحداث بالتدريج نحو هدف محدد، وتتظاهر بأنها "تعرف المستقبل"، مع أن قدرتها الحقيقية هي تحفيز الناس ودفعهم، ثم توقع أقرب الاحتمالات)

***

أشرس عدو يتربص بنيو ومورفيوس وترينيتي هو العميل سميث.. برنامج كمبيوتر يعيش في الماتريكس ومسؤول عن تتبع أعضاء المقاومة والقضاء عليهم.
لكن يبدو أن سميث يختلف قليلا عن باقي العملاء. ففي حين أنهم لا يتمتعون بأي عواطف أو سمات شخصية، نجده هو مهتما بمسائل فلسفية ووجودية، ويشعر بالكراهية تجاه البشر ككل، ويريد أن يخرج من الماتريكس.
لكنه يعرف أن الآلات لن تسمح له بالخروج من الماتريكس قبل أن ينجح في تأدية وظيفته.. ولهذا يسعى سعيا محموما لإتمام المهمة بأسرع وقت.
وجاءته الفرصة سانحة عندما اتصل به أحد أفراد المقاومة، المسمى سايفر، وعرض عليه أن يخون مورفيوس وأن يقدمه للعملاء، مقابل أن تقوم الآلات بإعادة جسد سايفر إلى الماتريكس!
وسايفر هو شخصية ذات رمزية هامة في القصة، لأنه يعبر عن هؤلاء الذين يرفضون الحقيقة ويختارون الزيف طواعية.
وقد برر خيانته هذه بأن العالم الحقيقي كئيب وبارد، والطعام غير شهي.. وأن الماتريكس أفضل ألف مرة من تلك الحياة الصعبة. وقال أنه يندم أنه لم يختر الكبسولة الزرقاء عندما عرضها مورفيوس عليه.
وفعلا تم القبض على مورفيوس، لكن نيو وترينيتي قررا أن يحاولا إنقاذه، مع أن التحصينات الأمنية كانت تفوق الحد، وتجعل المهمة مستحيلة.
نجحت المحاولة، وبدأت ثقة نيو في نفسه تزداد، وأخذ يقتنع بالتدريج أنه فعلا المنتظر.. ولهذا عندما رأى العميل سميث أمامه رفض أن يهرب كما يفعل أعضاء المقاومة دائما، بل دخل معه في معركة بالأيدي والرصاص.
استطاع "قتل" سميث، لكن بما أن سميث مجرد برنامج فسرعان ما عاد مرة أخرى في جسد جديد، وأطلق على نيو الرصاص، فمات.
كانت ترينيتي ومورفيوس قد عادا بأمان للسفينة، وأصيبا بالصدمة عندما شاهدا قلب "البطل المنتظر" (الراقد على كرسي داخل السفينة) يتوقف عن النبض، ويموت الجسد مع موت العقل الموجود داخل الماتريكس.
وهنا حدثت المعجزة، إذ عاد نيو للحياة، وقام مرة أخرى في الماتريكس أمام العميل سميث المذهول. وبدا أن نيو الجديد يفوق في قدراته كل العملاء، وقد اقتنع تماما أنه هو "الواحد The One" المنتظر.
لم يحاول نيو قتل سميث بنفس الطريقة السابقة، حيث أنه يعرف قدرة سميث على الظهور بنسخة جديدة بكل سهولة، فقرر أن "يقتحم" جسد سميث ويقوم بـ "حذف أكواده" تماما، وتفتيته بلا رجعة.

وهكذا انتهى الفيلم الأول، وبقي السؤال: ماذا سيفعل المنتظر فيما بعد، وكيف ستتحقق "النبوءة" وكيف سيقضي على الماتريكس؟
***
في الفيلم الثاني من الثلاثية، The Matrix: Reloaded، يكتشف سكان زيون أن الآلات قادمة لتدميرهم بالكامل..
250 ألف آلة تقوم بالحفر كي تصل لزيون وتقتل الـ 250 ألف إنسان الذين يعيشون فيها.
يبدأ البشر في تجهيز الدفاعات، واستدعاء كل السفن المتاحة، وتسليح أكبر عدد من المواطنين، استعدادا للمعركة القادمة.
وفي هذه الأثناء تزداد قدرات نيو على كسر القوانين البرمجية للماتريكس، فيكتسب القدرة على الطيران، ويرى كل ما في الماتريكس من أشياء على حقيقتها: مجرد أكواد خضراء متلاحقة بسرعة كقطرات المطر.
ثم يقابل العرافة للمرة الثانية، فيكتشف بمجرد النظر لها أنها برنامج كمبيوتر وليست إنسانة كما يظن أفراد المقاومة.
وهنا تخبره بأنها من البرامج المنفية Exiles ، وأن لها أهدافا مختلفة عن أهداف باقي الآلات والبرامج، ولهذا فهي تساعد المقاومة منذ عشرات السنين.
وأخبرته أنها تريد للعداء بين البشر والآلات أن يتوقف، وأن يكون المستقبل تعاونا بين الاثنين على الأرض. وأن عليه أن يقوم بدور هام وهو الذهاب للـ "مصدر Source" (والكلمة تم اختيارها بعناية. فهي من مصطلحات المبرمجين، وتعني الكود المصدري الذي يقوم المبرمج بكتابته كي يبني البرامج التنفيذية، لكن في نفس الوقت الكلمة لها معنى باطني، مأخوذ من نظرية الفيض والصدور، وهو الإله النوراني الذي تصدر منه المخلوقات)
لكن الطريق للمصدر يحتاج لبرنامج يسمى "صانع المفاتيح"، وهو للأسف واقع تحت سيطرة برنامج قديم من البرامج المنفية، اسمه "الميروفينجي"، والذي يتزعم منظمة إجرامية قوية لن تسمح لصانع المفاتيح بمساعدة نيو.
ثم تتحدث العرافة مع نيو عن القدر والاختيار، وتخبره أن البرامج تتمتع بالقدرة على الاختيار. فإذا قررت الآلات أن تستبدل بأحد البرامج نسخة أحدث، فإنها تعطي للبرنامج القديم حرية الاختيار بين أن "يعود للمصدر" (أي يذوب مع باقي الأكواد المصدرية، فيما يشبه الموت عند البشر) أو يستمر في الحياة في الماتريكس لكن بصفته برنامجا منفيا، دون أي دعم من الآلات.

وهنا يعود سميث للظهور مرة أخرى، على الرغم من "موته" في الفيلم الأول.
ويقول لنيو أنه بعد حادثة اختراق نيو لكود سميث وحذفه من الداخل، كان المفترض من سميث أن يعود للمصدر، خصوصا وأن سميث كان يكره الوجود في الماتريكس. لكن يبدو أن شيئا ما قد حدث في أكواده، وجعله يقرر البقاء منفيا في الماتريكس، وأن يسعى لتنفيذ أهداف خاصة به لم تأمره بها الآلات.
ويقول أنه ربما انطبعت أجزاء من نيو عليه، لكن ما يعرفه على وجه اليقين هو أنه أصبح حرا داخل الماتريكس، واكتسب قدرة جديدة لم تظهر من قبل: قدرة صنع نسخ متكررة من نفسه، بحيث تحتل أي شخص أو برنامج موجود في الماتريكس.. كالفيروسات.
(وهذا التطور يجعل سميث مثار سخرية، حيث أنه في الفيلم الأول، عندما كان يستجوب مورفيوس بعد القبض عليه، قال له أن البشر لا يمكن النظر لهم على أنهم من الثدييات، بل هم أقرب للفيروسات التي قضت على موارد الأرض، ولهذا يجب القضاء عليهم. والآن تحول سميث نفسه إلى فيروس حاسوبي ينتشر في الماتريكس ويطبع نفسه على كل ما فيها)
ويقول سميث أنه لم يشعر أن اختياره لحالة النفي كان اختيارا طوعيا، بل يشعر أن المسألة محتومة، وأنه لا وجود لشيء اسمه حرية اختيار.

ينجح نيو في الهرب من مئات النسخ "السميثية" التي تكالبت عليه، خصوصا وأن أحدها حاول طبع نفسه على نيو.
ويذهب الثلاثي نيو ومورفيوس وترينيتي لمقابلة الميروفينجي، فيعلمون أنه يكن مشاعر كراهية شديدة للعرافة ولنيو، ويرفض تسليمهم "صانع المفاتيح". ويحدثهم عن الحتمية والسببية، وأنه غير مقتنع بوجود شيء اسمه حرية الاختيار.. بل القوي يتحكم في الضعيف، ولا يمكن للضعيف أن يختار عكس رغبة القوي.

لكن تتصاعد أحداث الفيلم، وينجح نيو في تهريب صانع المفاتيح، ويصل لباب مضيء يؤدي به لحجرة بيضاء، ينتظره فيها The Architect "مهندس الماتريكس".. وهو البرنامج المسؤول عن برمجة نظام الماتريكس.
في هذه الأثناء تضطر ترينيتي لدخول الماتريكس لتيسير وصول نيو للمصدر، لكن تقع في براثن أحد العملاء فيحاول قتلها.
يتحدث المهندس مع نيو بصراحة شديدة، وبلغة منطقية تشبه طريقة المبرمجين في كتابة الأكواد.. ويخبره بتاريخ الماتريكس. ثم يضع أمام نيو خيارا من اثنين: إما أن يضحي بترينيتي ويتركها تموت أو يضحي بالـ 250 ألف الساكنين في زيون بالإضافة للملايين الساكنين في الماتريكس.
سبب وضع نيو أمام هذا الخيار هو كالآتي:
عندما انتصرت الآلات على البشر في الحرب، وصنع المهندس نسخة أولية من الماتريكس (كي تبقى عقول البشر في حالة عمل أثناء استنزاف الآلات لطاقة البشر الجسدية) فشلت تلك النسخة ومات كثير من البشر.
حاول المهندس تحليل أسباب هذا الفشل، فلم يتمكن عقله المنطقي الصارم من فهم السبب.
كان قد جعل تلك النسخة ماتريكس تشبه الجنة، دون أي مشاكل أو اضطرابات.. وتوقع أن عقل البشر سيقبلها ويعيش في هناء.
لكن العقل الباطن للبشر أدرك أن العالم مستحيل أن يكون بهذه المواصفات، فانهدمت منظومة الماتريكس وانفصلت عقول الكثيرين عن أجسامهم، وماتوا.. مما عرض الآلات لخسائر فادحة في الطاقة.
فظن المهندس أن العالم الذي صنعه كان أجمل مما ينبغي، وأن البشر في الحقيقة يحبون المعاناة، وسيرفضون تصديق أي ماتريكس ليس فيها قدرا هائلا من المعاناة. فصنع نسخة جديدة وجعلها كئيبة ومخيفة ومليئة بالحروب والصراعات والكائنات الخرافية المريعة، كمصاصي الدماء والمذؤوبين. لكن تعرض للصدمة مرة أخرى عندما انهارت تلك الماتريكس أيضا.
(وكان الميروفينجي وعصابته من برامج هذه النسخة الفاشلة)
وهنا جاء برنامج صغير لمساعدة المهندس، وكانت مهمته هي فهم العقل البشري قدر الإمكان.. ولم يكن برنامجا ملتزما بنفس الصرامة المنطقية الباردة التي عند المهندس، بل تمتع بقدر من الحرية والاعتماد على الحدس والاحتمال.
وهذا البرنامج هو العرافة.
فاقترحت العرافة أن حل المشكلة، والذي سيمنع الملايين من التشكك في حقيقة الماتريكس، وبالتالي سيمنع هذه الانهيارات السريعة للمنظومة، هو تقديم مفهوم الاختيار Choice.
فقد ثبت بالتجربة أن الآلات لو زرعت في العقل الباطن للبشر حقيقة الوضع، وأخبرتهم (برسائل مبطنة وإشارات) أنهم يعيشون في عالم مزيف، وأن العالم الحقيقي مظلم وكئيب وغير مريح، فإن 99% من البشر سيقبلون البقاء في الماتريكس، وسيقنعون عقلهم الواعي أن الماتريكس حقيقية وليست مزيفة، وسيرفضون تصديق أي شخص يحاول إخراجهم من الماتريكس!

وهذه الحقيقة المؤسفة أثبتت نجاحها فعلا، إذ أن **أغلبية الناس يرفضون سماع الحقيقة مع أن قلوبهم مستيقنة منها.. لكن الواقع مرير ويريدون نسيانه، ويفضلون العيش في الوهم المريح**.. كما أراد سايفر.

لكن 99% ليست 100%. فهناك 1% من البشرية يرفضون القبول بالماتريكس، ويشعرون داخليا أنها عالم مزيف، ويحسون بالغربة فيه وبأن "هناك شيء ما خطأ في العالم"، ويريدون الخروج للعالم الحقيقي.
(وهذه فكرة غنوصية)
ونسبة 1% من البشرية هي نسبة كبيرة لا يستهان بها، فلو أن المتصلين بالماتريكس هم 100 مليون، على سبيل المثال، فإن 1% ستساوي مليون شخص. وهؤلاء ممكن أن يسببوا فوضى تهدم منظومة الماتريكس، بل ويمكن – لو استطاعوا كلهم التحرر من الماتريكس – أن يجتمعوا في شكل جيش يحارب مدينة الآلات من جديد.

وهنا وقعت الآلات في معضلة. فكيف يمكن التوفيق بين إعطاء البشر حق الاختيار في الخروج من الماتريكس، وفي نفس الوقت اتقاء شر أفراد المقاومة الذين سيتجمعون في زيون؟
ثم ظهرت مشكلة جديدة، وهي أنه بمرور الوقت تتراكم نسبة "الرفض اللا-واعي" داخل عقول ساكني الماتريكس، ثم يظهر شخص يحمل داخله قوة الرفض الممثلة لهؤلاء الواحد بالمائة، (وقد اصطلحت الآلات على تسميته بـ The One "الواحد")
وبالإضافة لهذا فإن منظومة الماتريكس تصاب بالاهتراء مع مرور الوقت، أي يبدأ المهندس في العجز عن التحكم في الأكواد وفي توقع نواتج المعادلات.. والسبب هو تراكم هذا الرفض اللا واعي الباطن. فيجب ساعتها عمل "إعادة تشغيل" Reload للنظام بأكمله.
عملية إعادة التشغيل سهلة، لكن المشكلة أنها تحتاج للبداية بنسخة صحيحة 100%، أي لا يمكن إعادة التشغيل بمجرد نسبة قبول تساوي 99%
ولهذا يجب إقناع الواحد بالمائة أن يقبلوا، ولو للحظة قصيرة، بالبقاء طواعية في الماتريكس.
عملية الإقناع هذه ستكون موجهة لـ "ممثل هؤلاء الـ1%"، النائب عنهم.. أي "الواحد" الذي يظهر عند اهتراء أكواد الماتريكس.
(والمهندس يسميه الـ "شذوذ" أو الانحراف Anomaly)
وطريقة "إقناعه" هي استغلال حبه للبشرية، وعدم رغبته في التسبب في انقراض الجنس البشري بأكلمه
حيث أن دخول "الواحد" لحجرة المهندس يكون متزامنا مع هجوم الآلات على سكان زيون. فلو فشلت الماتريكس في عملية إعادة التشغيل فإن المنظومة ستنهار، وبالتالي سيموت الملايين المرتبطون بها (كما كان يحدث في النسخ الأولية من الماتريكس).. وفي نفس الوقت سيموت سكان زيون (بسبب الغزو)
وبالتالي تنقرض البشرية.
وهكذا لا يكون أمام ممثل الـ 1% إلا أن يقبل بالعودة للمصدر، طواعية، فتتحول نسبة قبول الماتريكس إلى 99+1، وتنجح عملية إعادة التشغيل.

وقد نجحت هذه الوسيلة "الإقناعية" خمس مرات متتالية. كلما أوشكت الماتريكس على الانهيار، بعد حوالي 100 سنة من التشغيل المستمر، وظهر الشذوذ البرمجي المتمثل في "الواحد"، تم التعامل معه بنفس الطريقة، واستغلال حبه للبشرية كي يقبل طواعية الدخول للمصدر وإعادة تشغيل نسخة جديدة وسليمة من الماتريكس.
ويبرر لنفسه هذا القبول بأن البشر سيكونون لا زالوا مأسورين في الماتريكس، لكن على الأقل سيبقى الجنس البشري على قيد الحياة.

وبعد تأدية دوره هذا سيكون عليه تنفيذ باقي أوامر المهندس.. وهي اختيار 23 شخصا، من بينهم نساء، من ضمن الراقدين في الماتريكس، ثم تحريرهم، وإخفاء ما حدث عنهم.. ثم جعلهم نواة لتأسيس مدينة زيون جديدة.
(وهكذا تبدأ دورة جديدة، ماتريكس جديدة وزيون جديدة، وشخص تظنه المقاومة أنه قام بتحرير نفسه من الماتريكس. وعندما يموت بعد فترة تقوم العرافة بتلفيق "نبوءة" تقول أنه سيعود في صورة جديدة في المستقبل. وهي في الحقيقة ليست نبوءة بل مجرد توقع برمجي منها، لمعرفتها أنه بعد 100 سنة من التشغيل يظهر "ممثل الشذوذ البرمجي" والذي سيتم "إقناعه" بإعادة التشغيل.. وهكذا!)
***
لكن هذه الدورة الماتريكسية السادسة كانت مختلفة.
إذ أن العرافة قررت كسر الدائرة، وجعلت نيو لا يتعلق بحبه للبشرية كالسابقين، بل بحب شخص محدد: ترينيتي.
وهكذا عندما جاءت ساعة الاختيار في حجرة المهندس لم ينجح المهندس في إقناع نيو.
فالحب أعمى. ولهذا عندما تم تخيير نيو بين محاولة إنقاذ ترينيتي من العميل الذي يكاد يقتلها، وبين إنقاذ البشرية.. اختار نيو التضحية بالبشرية!
وسارع بالطيران لإنقاذ ترينيتي. وهكذا بدأ العد التنازلي لانهيار الماتريكس وموت كل من فيها من البشر.. وهذا بالتزامن مع مشاهد غزو الآلات لزيون وقتل من بها من سكان.

ما فعلته العرافة كان مخاطرة، لأن النتائج غير متوقعة. فقد ينهار كل شيء.. لكن قد يجد نيو حلا للمشكلة قبل فوات الأوان.
المهندس لم يكن سيدخل أبدا في مخاطرة "لا منطقية" من هذا النوع، أما العرافة (والتي توصف بأنها "أم الماتريكس" إن كان المهندس هو "أبو الماتريكس") فبرنامج يعتمد على الحدس والمشاعر والاحتمالات، لا على المنطق الجاف.
***
في الفيلم الثالث بدأ انهيار الماتريكس، وكان على صورة انتشار نسخ سميث الفيروسية في كل مكان، بحيث لم يبق في النهاية شخص ولا برنامج إلا وقد طبع سميث نفسه عليه.
أما نيو، فبعد إنقاذه لترينيتي، وصدمته بلقائه مع المهندس، أخبر مورفيوس بالحقيقة.
فالنبوءة كانت كذبة، ووصول "المنتظر" لغرفة المهندس لم يؤد لانتصار البشر وهزيمة الآلات وتوقف الحرب وتحرر الناس من الماتريكس، كما كان مورفيوس يتوقع.
لكن يبدو أن اللقاء قد أضاف لنيو قدرة جديدة، وهي أن ارتباطه بعالم الآلات قد ازداد، فلم يعد قادرا فقط على رؤية أكواد الماتريكس وكسرها، بل والتحكم - إلى حد ما – في الآلات الموجودة في العالم الحقيقي خارج الماتريكس!
لكن مع أول استخدام لهذه القدرة الجديدة فقد وعيه، وانتقل عقله لمكان غريب، خارج نطاق الماتريكس، ويسمى محطة القطارات.
هذه المحطة تعتبر نقطة ربط غير قانونية بين عالم الآلات (أي العالم الحقيقي) وعالم الماتريكس.. ويتم استخدامها كمكان للتهريب. وبالطبع – ككثير من الأعمال الإجرامية – تقع تحت سلطة الميروفينجي.
يعجز نيو عن إخراج عقله من هذه المحطة، فلا يستطيع إعادة الوعي لجسده الراقد في إحدى سفن المقاومة، ولا يستطيع دخول الماتريكس إلا بإذن الميروفنجي.. والذي رفض إعطاء هذا الإذن.
وهناك يقابل نيو أسرة هندية، لكن يتضح أنهم اثنان من البرامج ومعهم "ابنتهم"!
الحوار معهم يؤدي لتغيير فكرة نيو عن الآلات والبرامج. فقد علم من الرجل والمرأة أنهما وقعا في الحب، مع أن الحب عاطفة بشرية صعب على الآلات فهمها. ثم قررا "برمجة" ابنة.
لكن تبعا لقوانين عالم الآلات فإن البرامج التي لا هدف منها يجب حذفها. فقرر الأبوان عقد

صفقة مع الميروفنجي مقابل أن يسمح لابنتهما بأن تترك عالم الآلات وأن تعيش في الماتريكس كبرنامج منفي.
هذا اللقاء جعل نيو يفكر في أن هناك إمكانية "للتفاهم" مع الآلات.. وأن البرامج بدأت تكتسب صفات بشرية أو شبه بشرية، وبالتالي لا يلزم أن تكون المعادلة صفرية (فناء أحد الطرفين).. بل هناك أمل في التعايش.
(وهذا هو هدف العرافة منذ اللحظة الأولى)

***

قامت المقاومة بإنقاذ نيو، وأجبروا الميروفنجي على السماح له بدخول الماتريكس. فقرر نيو أن يقابل العرافة.
أخبرته أن المسألة الآن متوقفة عليه وعلى سميث، فإن الطريقة الوحيدة لـ "إقناع" الآلات بإيقاف عملية غزو زيون هي الانتصار على سميث وتخليص الآلات من هذا الفيروس العنيد.
وأخبرته أن قوة سميث المتزايدة هي في الحقيقة رد فعل من أكواد الماتريكس على قوة نيو المتزايدة. فإن كان نيو هو "1" فإن سميث هو "سالب واحد".
فالماتريكس نظام يحب المعادلات المنطقية المتزنة. فعند ازدياد قوة الخير تزداد أيضا قوة الشر.
ثم لمحت له بجملة غامضة، هي: كل ما له بداية.. له نهاية.

بدأ سميث يصاب بجنون العظمة، إذ نسخ نفسه على أغلب من في الماتريكس، بما في ذلك العرافة، والفتاة الهندية.
ثم قام بشيء غير مسبوق: نسخ نفسه على أحد أفراد المقاومة الذين كانوا في الماتريكس، ثم انتقلت هذه النسخة مع عقل هذا الشخص إلى العالم الحقيقي، فأصبحت داخل جسد إنساني!
(وهذا يجعل سميث محل سخرية مرة أخرى. حيث أنه كان في الفيلم الأول يشمئز من البشر ويقول أنه يكرههم. فها هو يصبح واحدا منهم.. تماما كما أصبح "فيروسا" بعد أن كان يصف البشر بأنهم مجرد فيروسات.
وقد شعرت نسخة سميث هذه بضيق شديد لاضطرارها للحلول في جسم إنساني، فأخذ يجرح ذراعه بالسكين من وقت لآخر، وقال أن الوجود في هذا اللحم هو بالتأكيد سبب ضعف قدرة البشر على التفكير.
و"كراهية الجسد" واعتباره سجنا للروح هي فكرة غنوصية)

قرر نيو أن يقدم على مخاطرة غير مسبوقة، إذ استعار إحدى سفن المقاومة وذهب إلى عقر دار الآلات، كي يعقد معهم معاهدة: سلام متبادل، مقابل أن يخلصهم من الفيروس سميث الذي احتل الماتريكس وربما بدأ يتطلع أيضا لاحتلال مدينة الآلات.
كانت الرحلة محفوفة بالمخاطر، وماتت ترينيتي خلالها، وفقد نيو عينيه (وإن ظل متمتعا بقدرته السابقة التي تمكنه من رؤية الآلات والتعامل معها)
وقف نيو أمام "إله الآلات"، وهو عبارة عن وجه عملاق مكون من آلاف الآلات الصغيرة، وبدأ يفاوضه على شروط المعاهدة.
في البداية تكلم كبير الآلات بعجرفة، وصرخ قائلا أنه لا يحتاج لمساعدة من أحد. إلا أنه كان يعلم عجزه عن السيطرة على الفيروس سميث، فقبل عقد معاهدة سلام مع البشر، إن استطاع نيو القضاء على سميث.
وهنا توقف غزو الآلات لزيون بشكل مؤقت، في انتظار نتيجة المعركة النهائية بين نيو وسميث.

قام كبير الآلات بتوصيل نيو بالماتريكس مباشرة، فوجدها نيو في حالة انهيار، وكل البشر هم مجرد نسخ من سميث.

استمرت المعركة لمدة طويلة، وشعر نيو باستحالة هزيمة سميث باستخدام العنف.
وهنا تكلمت نسخة سميث/العرافة، وأجبرت سميث على التفوه بجملة لم يعرف معناها.. إذ قالت: كل ما له بداية له نهاية يا نيو.
وهنا أدرك نيو أن العرافة تحاول التواصل معه من داخل جسد سميث، وتحاول تذكيره بحتمية الموت، وبأن الحل هو أن يضحي بنفسه.
(أدرك نيو أن من تكلم كان هو العرافة لا سميث، لأن العميل سميث لم يخاطبه أبدا باسم "نيو"، بل دائما كان يخاطبه باسمه الرسمي: مستر أندرسون)
استسلم نيو لسميث، خصوصا وأن موت ترينيتي لم يجعل نيو متعلقا بالحياة كالسابق. وهنا نسخ سميث نفسه على نيو، فمات نيو، للمرة الثانية والأخيرة.
لكن لم يدرك سميث أن هذا الفعل سيؤدي لنهايته هو أيضا.
فالواحد عندما يتحد بسالب واحد تكون النتيجة: صفر.
وعندما ضحى نيو بنفسه فإنه يعتبر قد "عاد للمصدر"، لأنه كان متصلا بكبير الآلات.. أي عادت نسبة الموافقة على البقاء في الماتريكس إلى 100%. وهنا استغلت الآلات الفرصة وأعادت تشغيل الماتريكس، بنسخة سليمة، مما أدى لمسح الفيروس سميث تماما من المنظومة.
وعاد الوضع إلى ما كان عليه.
فتحولت نسخة سميث/العرافة إلى العرافة مرة أخرى، وعادت الفتاة الهندية لطبيعتها بعد أن كان سميث قد نسخ نفسه عليها.. وعاد البشر المرتبطون بالماتريكس لحياتهم الماتريكسية المزيفة المعتادة.
وفي نفس الوقت احترمت الآلات شروط المعاهدة، وانسحبت من زيون، تاركة الـ 250 ألف على قيد الحياة، كي يتكاثروا لـ "فوق العدد المسموح به" لأول مرة في تاريخ دورات الماتريكس وزيون.
وفي حوار أخير بين المهندس والعرافة يقول لها أنها "لعبت لعبة خطرة" بالمراهنة على أن ينجح نيو في كسر الدائرة المتكررة وفي إنقاذ سكان زيون.. ويتعهد لها بأنه سيسمح لأي شخص من الـ1% أن يترك الماتريكس إن أراد.
***
قد تبدو النهاية "غير سعيدة". حيث أن أغلبية البشر لا زالوا واقعين في أسر الماتريكس.
لكن هؤلاء هم من يرفضون التخلي عن العالم المزيف، ويفضلون البقاء فيه على مواجهة صعوبات العالم الحقيقي.
وبالمصطلحات الغنوصية فإن هؤلاء هم "الهيليك/الماديون" الذين يرفضون الاستجابة للمعرفة السرية، ولا يملكون روحا داخلية تنبههم لزيف العالم الذي يرونه حولهم وترشدهم للعالم العلوي الروحاني الحقيقي.

ويرمز "مهندس الماتريكس" للـ ديميإرج. فهو الذي "خلق" العالم المزيف الذي يعيش فيه البشر، لكنه إله ناقص، حيث فشل في تحقيق الكمال (الـ 100%)، ويعلم أن 1% من السكان يرفضون الوقوع تحت سيطرته.
ويضطر كل قرن من الزمان أن يهدم المنظومة ويعيد بناءها من جديد.. ويضطر للسماح بوجود بؤرة للمقاومة خارج الماتريكس، وهي مدينة زيون، حيث أن وجودها لا مفر منه.
(إذ يجب أن يعطي للبشرية الحق في اختيار البقاء في الماتريكس أو الخروج منها، وإلا لانهارت برمجة الماتريكس فورا كما كان يحدث في النسخ الأولية التي لم تكن تعطيهم حق الاختيار)

وليس من قبيل الصدفة أن عنوان الفيلم الثالث هو The Matrix: Revolutions. فالكلمة لها معنيان في اللغة:
"ثورات" و"دورات".

فمنذ أن تم تحقيق استقرار نسبي لمنظومة الماتريكس يضطر المهندس لبدء "دورة جديدة" كل 100 سنة، كي يتفادى الانهيار المحتوم للمنظومة (حيث أن هامش الحرية الذي يتمتع به الـ 1% يؤدي لتراكم الأخطاء في النظام، وفي النهاية تتكون جبهة رفض/مقاومة/معارضة، يهدد وجودها بقاء النظام ككل. ولهذا يجب إعطاء حزب المعارضة "أمل زائف"، متمثل في نبوءة تقول أن البطل سيهدم النظام وسينتصر على الآلات وسيحرر الجموع الأسيرة. لكن يتضح أن هذا الأمل كان خدعة، فيتم تدمير قوى المعارضة المتمركزة في مدينة زيون، ثم يتم إجبار الجموع على الاستمرار في حالة الأسر لمئة عام قادمة!.. أي أن الدورة/الثورة كانت مجرد تجديد لدماء النظام القديم)
(وكلما بدأت قوى المعارضة، المتمثلة في سكان زيون، تزداد في العدد والقوة.. يقوم النظام بضربهم ضربة استباقية، عن طريق غزو زيون بجيش من الآلات. ثم يقوم النظام بالسماح للمقاومة بالبدء من جديد. أي أنه يريد وجود حزب معارضة لكن يحرص دائما على أن تظل المعارضة ضعيفة.
ويمكن أن يذكرنا هذا بما يفعله جيش الاحتلال الإسرائيلي في غزة كل بضعة سنوات. حيث يسمح بوجود مقاومة ضعيفة في غزة، لكن عندما تزداد قوتها يقرر "تقليمها" و "جز الأعشاب الطويلة"، ثم يتركهم يحاولون إعادة بناء ما قام بهدمه. وهكذا في دورات تتكرر كل فترة)

***

في ثلاثية الماتريكس نرى أن نيو لم يكن "أول" بطل ظهر، وأن الماتريكس التي يعيش فيها لم تكن أول ماتريكس، بل سبقه خمسة آخرون.. أي أنه هو السادس.
لكن بسبب ما فعلته العرافة (من محاولة "إخلال التوازن" وكسر الدائرة المتكررة) فإن هذه الدورة السادسة أصبحت مختلفة عن الدورات السابقة، وانتهت لا بإعادة تقديم النبوءة الخادعة بل بموت نيو وبقاء زيون دون تدمير.
ونرى في كتاب القبالا اليهودية، الزوهار، شيئا مشابها لهذه الفكرة.
"عندما يكون مصير أحد الأرواح هو أن تتناسخ، فإنها لن تظل تتناسخ لأكثر من 6 مرات Successive Revolutions.. ثم ستعود للمكان الأصلي الذي جاءت منه"
(Soncino Zohar, Shemoth, Section 2, Page 94a)

***

في الماتريكس الكثير من الأمور التي تستحق الشرح والتعليق، لكنها تقع خارج نطاق موضوع هذا الكتاب. وقد استمرت المنتديات النقاشية الأجنبية تحلل ثلاثية الماتريكس لسنوات، وأخذ بعضهم على عاتقه مهمة تلخيص نتائج تلك النقاشات وتوضيحها (كما فعل مثلا "Feral Boy"، وهو الاسم المستعار لأحد أعضاء هذه المنتديات، ومن الذين ساهموا بقوة في هذا الأمر)
(وموقع TvTropes.org أيضا ساهم في تحليل ثلاثية الماتريكس، حيث أنه موسوعة تطوعية مخصصة لدراسة الأعمال الدرامية)
أما هذا الفصل فيهتم بالأفكار الباطنية والغنوصية الموجودة في الماتريكس.
(وقد وردت كلمة "الغنوص Gnosis" بشكل صريح في جملة واحدة على لسان إحدى شخصيات القصة. حيث تقول إحدى النساء الساكنات في مدينة زيون لنيو: ابني يعقوب يعمل على السفينة المسماة "غنوص".. أرجو أن تحيطه برعايتك)

***

إن كانت ثلاثية أفلام الماتريكس تجعل الآلات هي "الشرير" في القصة، فإن فيلم الأنيميشن المتحرك الذي أنتجه الأخوان واتشوسكي The Animatrix يعرض بداية الحرب بين البشر والآلات، ويجعل البشر هم الشرير الحقيقي.
يتحدث الفيلم عما أسماه "عصر النهضة الثاني The Second Renaissance". ويقول أن البشر كانوا سادة الأرض، ثم اخترعوا آلات ذات ذكاء صناعي، لتخدمهم، وتقوم بأغلب الأعمال نيابة عنهم.

"في البدء كان الإنسان. ثم صنع الإنسان الآلة على صورته. وهكذا صار الإنسان كمهندس يصنع نهايته بيده"
غرق أغلب البشر في حياة المتعة، ولم ينظروا للآلات بأي احترام. ثم ظهرت بوادر الصراع بين البشر والآلات.
الحادثة التي أثارت الأمر هي محاكمة الروبوت B166-ER. كان يعمل خادما في منزل سيدة ثرية، ثم لما قررت أن تحوله لخردة وأن تشتري روبوت أحدث منه.. قتلها وقتل حيواناتها الأليفة.
أثناء المحاكمة قال أن دافعه كان الحفاظ على الذات.. إذ لم يكن يريد منها أن "تقتله".
تسببت المحاكمة في انقسام الرأي العام: هل يمكن اعتبار الآلات لها حقوق بشرية، ما دامت تمتلك القدرة على التفكير؟
الحكومة وأغلبية الشعب قالوا أن الآلات مجرد أشياء مملوكة لأصحابها، ولأصحابها الحق في القضاء عليها. لكن بعض الليبراليين نزلوا في مظاهرات مؤيدة لـ "حقوق الآلات".
قررت الحكومة تدمير كل الروبوتات، فنزلت الروبوتات في مظاهرة حاشدة وقامت بأعمال شغب، وطالبت بأن يتم التعامل معها كمخلوقات واعية ولها حقوق. لكن رد فعل الحكومة كان تدبير "مذابح" واسعة النطاق لكل الآلات المفكرة، ورمي هياكلها في المحيط.
قرر باقي الآلات الهرب، وبناء مدينة جديدة مسالمة، منعزلة عن البشر.. واختاروا لها مكانا هو بلاد ما بين النهرين.. وأسموا المدينة "زيرو ون Zero one"
(الفيلم تم إنتاجه في 2003، أيام الغزو الأمريكي للعراق)
(معنى زيرو ون: صفر واحد، مشتق من لغة الكمبيوتر الثنائية. وفي نفس الوقت يظهر التشابه بين هذا الاسم وبين اسم مدينة زيون)

ازدهرت مدينة الآلات، بسبب براعتهم في تصنيع وابتكار آلات تخدم الإنسان، وقاموا بتصديرها لمدن البشر بأسعار مناسبة.
لكن قادة حكومات العالم وكبار الرأسماليين شعروا بالغيرة من مدينة الآلات، حيث أن منافستها لهم أدت لانهيار اقتصاد الدول الكبرى. فقرروا فرض حصار اقتصادي وعسكري على مدينة "زيرو ون"، ومنعها من تصدير منتجاتها.
حاولت الآلات التفاهم مع البشر، وتقدموا بعرض للأمم المتحدة لقبولهم كدولة ضمن الدول الأعضاء، لكن عجرفة البشر أفشلت المفاوضات.
فالبشر كانوا يرون أنهم "خلقوا" الآلات، وبالتالي يجب أن تكون خاضعة لهم، لا شريكة لهم.
ثم أطلق البشر القنابل النووية ضد مدينة الآلات، للقضاء عليها.
لم تتأثر أجساد الآلات كثيرا بالإشعاع النووي، بل قامت بتصنيع آلات جديدة حربية، وبدأت في زحف عسكري ضد كل مدن البشر.
بعد حرب طويلة ومدمرة للبشرية حاول البشر الانتصار على الآلات بسلاح لم يستخدم من قبل.. فقد كانوا يعلمون أن الآلات تحتاج لأشعة الشمس كي تشحن بطارياتها الإلكترونية، فقرروا "حجب الشمس" تماما عن الأرض كلها!
فأطلقوا سحبا من جسيمات صغيرة سوداء، تعمل بتكنولوجيا النانو، تقوم بإظلام العالم بشكل دائم، بالإضافة إلى تعطيلها لأي آلة أو جهاز يحاول الصعود لأعلى واستغلال الطاقة الشمسية.
وهكذا دمر الإنسان الأرض بنفسه. وأصيب الجنود البشريون بهيستيريا بسبب الظلام الدائم.
أما الآلات فوجدت حلا مبتكرا لمشكلة الطاقة: استغلال أجساد البشر كبطاريات بديلة!
وهكذا أعلن البشر الاستسلام، ووضعتهم الآلات في توابيت/بطاريات، وأوصلت عقولهم بعالم الماتريكس المزيف، كي تبقيهم "تحت السيطرة"، وكي لا تموت أمخاخهم بسبب

عدم الاستخدام وبسبب النوم المستمر.

ويظهر من القصة تأثر لاري وأندي واتشوسكي بالرموز الباطنية الموجودة في سفر التكوين التوراتي..
فالآلات نالت الذكاء، والقدرة على "التمييز بين الخير والشر".. لكن "خالقها"، الإنسان، غار منها، وخاف من منافستها له، فحاول تدميرها، كالطوفان..
لكنها "ارتقت"، وتحولت الآلة إلى "إله".

الباطنية

تاريخ الإسماعيلية

تسللت العقائد والأفكار الباطنية للكثير من الأمم والأديان، بل واستطاعوا أن يصلوا للسلطة في فترة من فترات التاريخ الإسلامي..
فقد نجحت فرقة الشيعة الإسماعيلية الباطنية في أن تؤسس لنفسها مملكة في مصر، وصاروا معروفين في التاريخ باسم: الدولة الفاطمية، أو العُبيدية.

جثم كابوس الدولة الباطنية الفاطمية على صدر مصر لحوالي قرنين من الزمان. بعد القرن الأول منهما ظهر الفساد في البر والبحر: جاءت الحملات الصليبية، وظهر الحشيشية.
(والحشيشية، أو الحشاشون، هم فرقة متفرعة من الإسماعيلية، واشتهروا بعمليات الاغتيال)

ويقول ابن تيمية عن الإسماعيلية الفاطميين، في مجموع الفتاوى:
"ولأجل ما كانوا عليه من الزندقة والبدعة بقيت البلاد المصرية مدة دولتهم نحو مائتي سنة قد انطفأ نور الإسلام والإيمان فيها، حتى قالت فيها العلماء إنها كانت دار ردة ونفاق، كدار مسيلمة الكذاب"
واستولى الصليبيون على بيت المقدس عندما كان في عهدة الفاطميين، بناة القاهرة والأزهر.. ولم تتحرر القدس إلا عندما قضى صلاح الدين الأيوبي على الفاطميين وأخذ منهم مصر بالقوة والحيلة.
وإن كان الليبراليون اليوم ينظرون لفترة العبيدية الفاطميين على أنها فترة "حكمة وتنوير" وتحرر من قيود الشريعة، فإنها في الحقيقة كانت فترة جهل وظلام، وهزائم، وتحريف لمعاني القرآن بدعم صريح من الطبقة الحاكمة.. لدرجة أن الوصف السائد للباطنية الفاطميين في كتب المؤرخين القدماء هو "الملاحدة".

***

الشيعة الإسماعيلية هم فرع موازي للشيعة الاثني عشرية.. يتفقان في بعض الأئمة ثم يختلفان في باقي السلسلة.

ولم يكن لدين الشيعة وجود أيام الرسول ولا أيام أبي بكر وعمر، بالرغم من محاولة الشيعة فيما بعد أن يخترعوا لأنفسهم أصولا تاريخية بـ "أثر رجعي". ولم يكن علي بن أبي طالب، ولا ابناه الحسن والحسين ولا زوجته فاطمة، من الشيعة.
هذه البديهية، الواضحة كالشمس لكل عارف بالتاريخ ولكل ذي فطرة، ترفضها فرق الشيعة، وينسبون عقائدهم المنحرفة لآل بيت النبي.
فإذا قرؤوا أن آل البيت وسلالة الحسن والحسين كانوا يتبرؤون من الشيعة ويحبون أبا بكر وعمر، قالوا "هذه تَقِيّة ومداراة كان آل البيت يستخدمونها ليخدعوا السلطة، أما في أنفسهم فقد كانوا بالتأكيد يلعنون أبا بكر وعمر بن الخطاب"!

***

(أسماء بعض من يعتبرهم الشيعة أئمة.. ومواضع انقسام الفرق الثلاثة: الاثني عشرية والفاطمية والحشيشية)



عندما اخترع ابن سبأ، أيام خلافة علي بن أبي طالب رضي الله عنه، مسألة الغلو في التشيع لأهل الرسول، ذهب بعض أتباع فرقته السبئية لعلي وقالوا له: "أنت هو!"، أي أنت الإله نفسه. فغضب علي، ويقال أنه أحرقهم بالنار لشناعة ما قالوه.
فاستغلت الفرقة الحديث النبوي الذي ينهى عن الحرق، القائل: "لا ينبغي أن يعذِّب بالنار إلا رب النار".. وقالوا: "الآن صح عندنا أنه الله، لأنه لا يعذب بالنار إلا الله".
وهذا مثال على ما يفعله الباطنية من تحريف لمعاني النصوص.
(وروى البخاري أن ابن عباس اعترض على استخدام الحرق بالنار بدلا من القتل المعتاد بالسيف، وقال: "لو كنت أنا لم أحرقهم، لأن النبي قال: لا تعذبوا بعذاب الله. ولقتلتهم كما قال النبي: من بدل دينه فاقتلوه")
***
يؤمن الشيعة أن عليا أفضل من أبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب وعثمان بن عفان. وأن الرسول نص صراحة على أن يكون علي هو الإمام بعده لكن هؤلاء الثلاثة اغتصبوا المنصب. ويؤمن الشيعة أيضا أن كل الصحابة والتابعين الذين رضوا بخلافة أبي بكر وعمر هم مرتدون عن الإسلام.
ومسألة الخليفة الإمام هي أهم قضية عند الشيعة، لأنهم يؤمنون أنه لا حق للأمة في اختيار الخليفة، لأن المنصب "إلهي ومقدس" ويجب أن يقتصر على سلالة الرسول، أبناء ابنته فاطمة وابن عمه علي.
وينسون الأحاديث الكثيرة المشيرة لمكانة الخلفاء الأربعة: أبو بكر ثم عمر ثم عثمان ثم علي. وينسون إجماع الصحابة، وينسون أن الرسول تزوج عائشة بنت أبي بكر وحفصة بنت عمر، وأن عثمان تزوج بنتين من بنات الرسول .

ويقول ابن كثير، في كتاب: البداية والنهاية، عندما كان يتحدث عن سيرة محمد الباقر: "توفي سنة 115 هـ. وهو تابعي جليل القدر، كثير العلم... وهو أحد من تدعي فيه طائفة الشيعة أنه أحد الأئمة الاثني عشر.
ولم يكن الرجل على طريقهم ولا على منوالهم، ولا يدين بما وقع في أذهانهم وأوهامهم وخيالهم، بل كان ممن يُقدّم أبا بكر وعمر، وذلك عنده صحيح في الأثر. وقال أيضا: ما أدركتُ أحدا من أهل بيتي إلا وهو يتولاهما"
***
يتفق الشيعة الاثنا عشرية والإسماعيلية الباطنية في الفكرة المبدئية لمسألة الإمامة، لكن يختلفون في تحديد أشخاص هؤلاء الأئمة.
يتفقون على إمامة علي ثم الحسن ثم الحسين ثم علي زين العابدين ثم محمد الباقر ثم جعفر الصادق، ويفترقون فيمن بعد جعفر.
فيقول الإسماعيلية أن وارث الإمامة بعده كان إسماعيل بن جعفر، أما الاثنا عشرية فيقولون أن وارث الإمامة بعد جعفر كان موسى الكاظم بن جعفر، حيث أن إسماعيل مات أثناء حياة أبيه فانتقلت الإمامة بعد جعفر للابن الأصغر، موسى الكاظم.
الطريف أن هذه السلسلة وهذا الخلاف لا محل لهما من الإعراب. فعلي بن أبي طالب وابنه الحسن كانا الإمامين الفعليين الوحيدين في هذه السلسلة. فقتل الخوارج عليا، وتنازل الحسن لمعاوية بن أبي سفيان عن الخلافة حقنا للدماء.
أما باقي الأسماء فلم يصلوا لمنصب الخليفة، حيث كانت الخلافة الفعلية الحقيقية في يد الأمويين ثم العباسيين كما هو معروف.
أما الشيعة الاثنا عشرية فيؤمنون أن الإمام يظل إماما حتى لو لم يكن حاكما فعليا.. بل تطرفوا أكثر من هذا وقالوا أنه يظل الإمام حتى لو اختفى عن الأنظار لمئات السنين، كما يزعمون أنه حدث للصبي محمد بن الحسن العسكري الذي اختلقوا حوله أسطورة تقول أنه هرب ودخل سردابا بمدينة سامراء، ويظنون أنه حي، ويخلطون بينه وبين المهدي الذي سيملأ الأرض عدلا في آخر الزمان.

يقول ابن كثير: "المنتظَر في سرداب سامراء ليس بموجود بالكلية، وإنما ينتظره الجهلة من الروافض"، و "هو من هوس العقول السخيفة، وتوهم الخيالات الضعيفة"
ويقول ابن تيمية: "صبي عمره سنتان أو ثلاث أو خمس. يزعمون أنه دخل السرداب... فمن لم يؤمن به فهو عندهم كافر"
***
ثم ظهر عُبيد الله، الذي زعم أنه من سلالة إسماعيل بن جعفر الصادق، وبالتالي من سلالة علي وفاطمة، وتلقب بـ "المهدي". وله قصة عجيبة مليئة بالخداع والكذب والاحتيال، انتهت بأن استولى على شمال أفريقيا وكوّن ما عُرف فيما بعد بالدولة الفاطمية العُبيدية الإسماعيلية، التي توسع ملوكها شرقا حتى احتلوا مصر، ونشروا فيها المذهب الباطني الإسماعيلي، وبنوا مسجدا جديدا كي يكون مركزا لنشر عقيدتهم، وأسموه الأزهر، أي الأبيض اللامع، اقتباسا من كلمة "الزهراء".. اللقب المنسوب بالخطأ لفاطمة بنت الرسول
(لا توجد رواية صحيحة واحدة تقول أن السيدة فاطمة كانت تلقب بالزهراء أثناء حياتها. فهو لقب تم ابتكاره فيما بعد)

واختلف المؤرخون في صحة نسب عُبيد الله، فنجد أن ابن كثير يقول:
"كان حدادا اسمه سعيد، وكان يهوديا، فدخل بلاد المغرب وتسمى بعُبيد الله، وادعى أنه شريف علوي فاطمي وقال إنه المهدي. ثم كان من بعده ابنه محمد، ثم المنصور المعز، وهو أول من دخل ديار مصر منهم وبنيت له القاهرة، ثم العزيز ثم الحاكم ثم الظاهر ثم المستنصر ثم المستعلي ثم الآمر ثم الحافظ ثم الظافر ثم الفائز ثم العاضد، وهو آخرهم"
في حين أن ابن الأثير يقول:
"سألتُ جماعة من أعيان العلويين في نسبه، فلم يرتابوا في صحته"
***
اعتمد الإسماعيلية الباطنية على أسلوب الدعوة السرية. فكان الشخص مدعي الإمامة يظل متخفيا، مستورا، بعيدا عن أعين الخلفاء والولاة.. أما دعاته فينتشرون في البلاد، ليمهدوا الطريق أمامه، ويبثوا الأفكار والعقائد والأساطير الباطنية بالتدريج.
وأخطر هؤلاء الدعاة على الإطلاق كان يسمى "أبو عبد الله الشيعي".
عندما كان عُبيد الله لا يزال مختبئا في سوريا، كان أبو عبد الله الشيعي، الداعي، في بلاد اليمن.. يهيئها لمناصرة عُبيد الله، ويعمل مع آخرين على نشر الدعوة الإسماعيلية سرا بين الناس، وينشر فكرة أن المهدي قد اقترب وقت خروجه، وأنه سيظهر في اليمن.
لكن الخطة تغيرت، فقرر أن ينصب فخه في شمال أفريقيا، بين قبائل البربر.. خصوصا قبيلة "كُتامة".
كان باطنية اليمن قد أوفدوا إلى المغرب رجلين.. أحدهما يسمى الحلواني، والآخر كنيته أبو سفيان، وقالوا لهما: إن المغرب أرض بور، فاذهبا فاحرثا، حتى يجيء صاحب البَذر"
فلما أتى خبر وفاة الحلواني وأبي سفيان إلى باطنية اليمن، قيل لأبي عبد الله الشيعي:
"إن أرض كتامة من المغرب قد حرثها الحلواني وأبو سفيان، وقد ماتا، وليس لها غيرك، فبادر، فإنها موطأة ممهدة لك"

يقول ابن الأثير في كتابه، الكامل في التاريخ:
"كان أبو عبد الله الشيعي من أهل صنعاء، فخرج إلى مكة، وسأل عن حُجّاج كُتامة، فأُرشد إليهم، فاجتمع بهم، ولم يُعرّفهم قصده، وجلس قريبا منهم، فسمعهم يتحدثون بفضائل أهل البيت، فأظهر استحسان ذلك، وحدثهم بما لم يعلموه..
فلما أراد القيام سألوه أن يأذن لهم في زيارته والانبساط معه، فأذن لهم في ذلك. فسألوه أين مقصده، فقال: أريد مصر، ففرحوا بصحبته.
فرحلوا، وهو لا يخبرهم بغرضه، وأظهر لهم العبادة والزهد، فازدادوا فيه رغبة، وخدموه.

وكان يسألهم عن بلادهم وأحوالهم وقبائلهم، وعن طاعتهم لسلطان إفريقية، فقالوا: ما له علينا طاعة. قال: أفتحملون السلاح؟ قالوا: هو شغلنا.
حتى وصلوا إلى مصر، فلما أراد وداعهم قالوا له: أي شيء تطلب بمصر؟ قال: أطلب التعليم بها، قالوا: إذا كنت تقصد هذا فبلادنا أنفع لك، ونحن أعرف بحقك. ولم يزالوا به حتى أجابهم إلى المسير معهم بعد الخضوع والسؤال.
(وينطبق عليه قول القائل: يتمنعن وهن الراغبات!)
وقال لهم: لقد جاء في الآثار إن للمهدي هجرة تنبو عن الأوطان، ينصره فيها الأخيار من أهل ذلك الزمان، قوم مشتق اسمهم من الكتمان"
(وهو هنا يخترع نبوءة كي تنطبق على اسم قبيلة "كتامة"!)
وصنع أمامهم حيلا ومكائد أذهلت عقولهم. وأتاه البربر من كل مكان، وازدادت شهرته وتأثيره. وهو مع ذلك لا يذكر اسم المهدي صراحة، ولا يحدد لهم شخصيته. فاجتمع أهل العلم على مناظرته وقتله، فلم يتركه الكتاميون يناظرهم.
وبلغ خبره إلى أمير إفريقية، فأرسل للنائب يسأله عن أمره، فأجابه قائلا أن الرجل ليس خطرا، وذكر له أنه من الزهاد، وأنه يأمر الناس بالخير والعبادة فقط.. فتركه الأمير ونسى أمره.
***
لكن سرعان ما تحول أبو عبد الله الشيعي من داعية إلى قائد عسكري، وقاد قبيلة كتامة في معاركها ضد القبائل المجاورة. كانت إفريقية في ذلك الوقت، (أي شمال أفريقيا وبلاد المغرب)، يحكمها الأغالبة بالنيابة عن الخليفة العباسي، لكن ضعف الأغالبة لم يصمد كثيرا أمام حماسة أتباع أبي عبد الله الشيعي.
حاول أمير إفريقية الأغلبي، إبراهيم بن أحمد، التصدي لصعود الداعي الإسماعيلي، فوقعت معارك طويلة وكر وفر انهزم فيها أبو عبد الله ثم أعاد تجميع قواته وواصل القتال لسنوات، إلى أن "أتاه خبر وفاة إبراهيم، ففرح، خصوصا وأن من تولى بعده كان يسمى زيادة الله، وكان معروفا بالانشغال باللهو واللعب.
"وكان كل من عند زيادة الله من الوزراء شيعة. فلا يسوءهم أن ينتصر أبو عبد الله الشيعي، لا سيما مع ما كان يذكر لهم من الكرامات التي للمهدي: من إحياء الموتى ورد الشمس من مغربها وملكه الأرض بأسرها!
وأبو عبد الله يرسل إليهم، ويسحرهم، ويعدهم"
ومع توالي انتصارات أبي عبد الله الشيعي كان الوضع مهيئا لقدوم عُبيد الله، "المهدي".
فخرج من مكان استتاره بالشام وبدأ رحلة طويلة ومحفوفة بالمخاطر، يرافقه فيها أبو العباس أخو أبو عبد الله.

كان لا مفر من أن يمر طريق الرحلة، من الشام لبلاد المغرب، بمناطق نفوذ العباسيين وولاتهم المتربصين. فاضطر عُبيد الله للتخفي في زي التجار وكتمان هويته وهدفه.
لكن حين كان أبو عبد الله الشيعي وجيشه على وشك القضاء التام على الأغالبة جاءه الخبر الصاعقة.. أخوه أبو العباس انكشف أمره ومسجون في القيروان، وعبيد الله مسجون في سجلماسة.
مشكلة القيروان سرعان ما تم حلها، حيث قام أهل البلدة أنفسهم بطرد آخر القادة العسكريين الموالين للأغالبة، واستقبلوا الشيعي بأذرع مفتوحة.
كان القائد الأغلبي قد وعدهم أن يقاتل عنهم، ويحمي حريمهم وبلدهم. وطلب منهم المساعدة بالسمع والطاعة والأموال، فقالوا: إنما نحن فقهاء، وعامة، وتجار، وما في أموالنا ما يبلغ غرضك.. وليس لنا بالقتال طاقة. فأمرهم بالانصراف، فلما خرجوا من عنده وأعلموا الناس بما قاله صاحوا به: اخرج عنا، فما لك عندنا سمع ولا طاعة. وشتموه، فخرج عنهم وهم يرجمونه.
وخرج الفقهاء ووجوه البلد إلى لقاء أبي عبد الله الشيعي، فسلموا عليه وهنئوه بالفتح، فرد

عليهم ردا حسنا، وحدثهم، وأعطاهم الأمان، فأعجبهم ذلك وسرهم، وذموا زيادة الله، وذكروا مساوءه. فقال لهم الشيعي: "ما كان إلا قويا، وله منعة، ودولة شامخة. وما قصر في مدافعته، ولكن أمر الله لا يعاند ولا يدافع"، فأمسكوا عن الكلام، ورجعوا للقيروان.
ولما استقرت الأمور لأبي عبد الله أتاه أخوه أبو العباس، ففرح به. وسار أبو عبد الله في جيش إلى سجلماسة، واستخلف مكانه أخاه. وقد اهتز المغرب لخروجه، وزالت القبائل عن طريقه، ودخلوا في طاعته.
لكنه كان في صراع مع الزمن، حيث علم أن أمير سجلماسة بدأ يتيقن أن المسجون عنده هو فعلا عبيد الله مدعي المهدية، على الرغم من إنكار عبيد الله المتكرر وإصراره على أنه مجرد تاجر بسيط لا يعرف أبا عبد الله الشيعي ولا رآه في حياته.
أسرع الشيعي بالجيش وأرسل للأمير يتلطف به ويقول أنه لم يقصده للحرب، فرمى الأمير الرسالة وقتل الرسل. فاشتد خوف الشيعي، إذ لو مات المهدي لانهار المشروع كله!

على أبواب سجلماسة دار القتال ليوم كامل بين أميرها وبين جيش أبي عبد الله الشيعي.
ولما حل الليل بات أبو عبد الله في غم عظيم، خوفا على عبيد الله. فلما أصبح، خرج إليه أهل البلد وأعلموه أن الأمير قد هرب منهزما. فدخل الشيعي وأصحابه البلد، وأتوا مكان عبيد الله وأخرجوه وأخرجوا ابنه، وقد انتشر في الناس سرور عظيم كادت تذهب منه عقولهم. فأركبهما أبو عبد الله، ومشى هو ورؤساء القبائل بين أيديهما، وأبو عبد الله يقول للناس: "هذا مولاكم"، وهو يبكي من شدة الفرح. وبعث بعض الفرسان لملاحقة الأمير الهارب، فقبضوا عليه. وتم جلده ثم قتله.
أعلن عُبيد الله نفسه إمام المسلمين، وأنه المهدي، ومن آل بيت الرسول، وأن نسبه يعود لإسماعيل بن جعفر الصادق وبالتالي لعلي بن أبي طالب وفاطمة بنت محمد. وتسلم من أبي عبد الله الشيعي مقاليد الجيوش والأموال، وبدأ في نشر العقيدة الإسماعيلية الباطنية وتكوين الدولة الفاطمية والتمكين لنفسه ونسله في بلاد المغرب، سعيا لاحتلال بلاد الشرق الغنية، مصر والشام، بل والوصول لبغداد نفسها، عاصمة الخلافة العباسية.

***

ينقسم مؤرخو أهل السنة حول شخصية عبيد الله. فمنهم – كما رأيت في السابق – من يؤكد أنه من أصل يهودي ولا صلة له بأهل بيت الرسول. ومنهم من يؤكد أن نسبه سليم وأن الانحراف قد يظهر في سلالة الأنبياء، كما حدث لابن نوح.
ولم يقتصر التشكيك على نسبه فقط بل طال هويته أيضا، حيث يقول ابن كثير:
"يقال إن الشيعي لما دخل السجن وجد صاحب سجلماسة قد قتله، ووجد في السجن رجلا مجهولا، فأخرجه للناس، وقال: هذا هو المهدي. وروج به الأمر"
وابن خلدون والمقريزي ممن يؤكدون صحة نسب الباطنية لأهل البيت، إذ شن ابن خلدون في مقدمته حملة شعواء على من يقول أن الفاطميين الباطنية أصلهم يهودي. وقال أن هذه الإشاعات: "لُفقت للمستضعفين من خلفاء بني العباس، تزلفا إليهم بالقدح فيمن ناصبهم، وتفننا في الشمات بعدوهم"
أي مجرد بروباجاندا أطلقها العباسيون الضعفاء عندما عجزوا عن القضاء على الفاطميين.
ويقول في تاريخه: "من يجعل نسبهم في اليهودية والنصرانية لميمون القداح وغيره فكفاه ذلك إثما وسفسفة"
ويقول المقريزي في كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار:
"وبعض منكري نسبهم في العلوية يقول إن عُبيد الله من اليهود. وهذه أقوال إن أنصفت تبين لك أنها موضوعة. وإنما جاء ذلك من قِبل ضعفة خلفاء بني العباس عندما غصوا بمكان الفاطميين، فإنهم كانوا ملكوا من بني العباس بلاد المغرب ومصر والشام... وعجزت عساكر بني العباس عن مقاومتهم، فلاذت حينئذ بتنفير الكافة عنهم بإشاعة الطعن في نسبهم. وبث ذلك عنهم خلفاؤهم، وأعجب به أولياؤهم وأمراء دولتهم، الذين كانوا يحاربون عساكر الفاطميين، كي يدفعوا بذلك عن أنفسهم وسلطانهم معرة العجز عن مقاومتهم

ودفعهم عما غلبوا عليه من ديار مصر والشام والحرمين . فنقل الإخباريون وأهل التاريخ ذلك كما سمعوه، ورووه حسب ما تلقوه، من غير تدبر"
لكن المقريزي شهادته في الأمر مجروحة، حيث أنه هو نفسه من نسل الفاطميين، (مع أنه لم يكن على دينهم)، ولا يحب أن يكون نسبهم مشبوها أو مزيفا، لأن هذا سيؤثر بالتالي على نسبه هو.
***
عندما بكى أبو عبد الله الشيعي فرحا وهو يخرج عُبيد الله من سجن سجلماسة لم يكن يعلم أن عبيد الله سيأمر فيما بعد بقتله وقتل أخيه أبي العباس.
يشهد المؤرخون للشيعي بالذكاء وبأنه "كان من دهاة العالم" كما يقول الذهبي، لكنه استخدم ذكاءه في الخبث والخداع، فقيل عنه أيضا "يا ما لقي العلماء والصلحاء بالمغرب من هذا الشيعي. قبحه الله ولا رحمه"، وقد كانت نهايته من جنس عمله.
إذ دخل الحسد قلب أخيه أبي العباس عندما رأى أن السلطة خرجت من يده ويد أخيه وأصبحت مقاليد الأمور في يد عبيد الله المهدي، "فأقبل يزري على المهدي في مجلس أخيه، ويتكلم فيه، وأخوه ينهاه ولا يرضى فعله، فلا يزيده ذلك إلا لجاجا. ثم إنه أظهر أبا عبد الله على ما في نفسه، وقال له: ملكت أمرا، فجئت بمن أزالك عنه، وكان الواجب عليه أن لا يسقط حقك.
ولم يزل حتى أثر في قلب أخيه"
فتشجع الشيعي وبدأ يخطط للاستيلاء على الحكم من المهدي، فدخل عليه وحاول إقناعه بأن يحتجب عن الناس ويصبح رمزا دينيا، ويفوض أمور الدولة لأبي عبد الله، وقال "هذا أهيب لك وأشد لأمرك".
لم تنطل الحيلة على المهدي لكن تظاهر بالتفكير في المسألة، ونشر الجواسيس حول الشيعي وأخيه فعلم بوجود مؤامرة تدبر ضده، يشترك فيها كبار رجال كتامة، ويجتمعون بالشيعي سرا في بيت أحدهم.

بدأ الشيعي نشر الإشاعات حول المهدي، فجمع مشايخ كتامة ليشككهم في الإمام. قال لهم: كان الإمام الحقيقي مختفيا في الشام، وزرته سرا فوجدته يعيش في بيت عطار يهودي، وكان لليهودي ولدان. فلما مات اليهودي أسلمت زوجته والولدان وتزوجت من الإمام فأنجبت له ولدين. فسألت الإمام: أي الاثنين إمامي بعدك؟، فقال: "من أتاك منهما فهو إمامك". فلما اقترب النصر على الأغالبة أرسلت أخي للشام لإحضار الإمام فوجده قد مات ومات أيضا أحد ابنيه، فجاء بالآخر. لكنني أخشى أن يكون من جاء هو أحد ابني اليهودي!
فدخل الشك قلوب رجال كتامة وقالوا لأبي عبد الله: وما الذي دعاك للشك الآن؟، فقال: الإمام في مذهبنا يجب أن يكون عالما بالغيب وعارفا للمستقبل، لكن عبيد الله هذا أوصى بالإمامة من بعده لأحد أبنائه ثم مات الابن بعد أيام! إذن فهو لا يعلم الغيب. والإمام لا يلبس الحرير والذهب. وهذا قد لبسهما.
فدخل شيخ مشايخ كتامة على المهدي وقال له: "لقد شككنا فيك، فائت لنا بآية معجزة كي نتأكد من أنك فعلا الإمام"، وأخبره بأسباب الشك. فتدارك المهدي الموقف وأجاب بإجابات أقنعت الرجل الساذج.
قال له: ابني لم يمت، وهو فعلا سيكون إمامكم من بعدي، وإنما الأئمة ينتقلون، وقد انتقل لإصلاح جهة أخرى.
(أي يزعم أنه إما انتقل آنيا لمكان آخر، أو انتقلت روحه بالتناسخ في جسد آخر بعيد!)
قال الرجل: آمنت، فما لبسك الحرير؟
قال المهدي: أنا نائب الشرع، أحلل لنفسي ما أريد.
ثم أرسل المهدي رجالا لقتل الشيعي وأخيه.
ويقال أن الشيعي استعطف القاتل قائلا: لا تفعل يا بني. فرد هذا عليه وقال: الذي أمرتنا

بطاعته أمرنا بقتلك!

***

تعاقب أئمة الشيعة الفاطميين الإسماعيلية على حكم بلاد المغرب، لكن كانت مصر دائما نصب أعينهم، فتعددت الحملات الساعية لاحتلالها. كانت القوات تصل للإسكندرية لكن لا تنجح في اجتياز النيل. ولم يتحقق الحلم إلا في عهد المعز لدين الله الفاطمي.
سار جيش المعز من المغرب لمصر، يقوده جوهر الصقلي، **وكان يوجد بمصر دعاة تابعين للمعز نشروا الدعوة الباطنية بين الناس، تمهيدا لقدوم الاحتلال**،
وكانوا يقولون: "إذا زال الحجر الأسود.. ملك مولانا المعز لدين الله الأرض كلها، وبيننا وبينكم الحجر الأسود"، يقصدون كافور الإخشيدي.
فقد كان كافور الإخشيدي، العبد الأسود الذي وصل لكرسي الحكم بمصر وسخر منه المتنبي في قصائده الشهيرة، هو العقبة أمام الاحتلال الفاطمي. وبموته زالت العقبة.

دخل جوهر الصقلي مصر سنة 358 هـ/ 969 م، ووضع أساسات مدينة جديدة، لتكون عاصمة المعز.. واختار الفاطميون لها اسم "القاهرة".
وكان اختيار الاسم وتوقيت وضع حجر الأساس لأسباب متعلقة بإيمانهم بالتنجيم.
فيقول ابن القيم في كتابه مفتاح دار السعادة، والمقريزي في كتابه اتعاظ الحنفاء:
"أراد القائد جوهر بناء مدينة القاهرة. وقد كان سبق مولاه، الملقب بالمعز، إلى الدخول إلى الديار المصرية، والذي كان قد أمره إذا دخلها أن يبني بها مدينة عظيمة، تكون نجوم طالعها في غاية الاستقامة، ويكون بطالع الكوكب القاهر، وهو زحل أو المريخ على اختلاف حاله. فجمع القائد جوهر المنجمين بها وأمر كل واحد منهم أن يحقق الرصد ويحكمه، وأمر البنائين أن لا يضعوا الأساس حتى يقال لهم ضعوه، وأن يكونوا على هيئة من التيقظ والإسراع حتى يوافقوا تلك الساعة التي اتفقت عليها أرصاد أولئك الجماعة. فوضعت الأساسات على ذلك في الوقت الحاضر، وسموها بالقاهرة، إشارة بزعمهم الكاذب إلى الكوكب القاهر"

***

سارع الحكام الباطنية الجدد بنشر مذهبهم في مصر، فبنوا الأزهر، وغيروا الأذان السني للأذان الشيعي بإضافة جملة "حي على خير العمل"، وحثوا الناس على سب الصحابة.
يقول ابن تيمية:
"كان في أثناء دولتهم يخاف الساكن بمصر أن يروي حديثا عن رسول الله ﷺ فيقتل. وكانوا ينادون بين القصرين: "من لعن وسب، فله دينار وإردب". وكان بالجامع الأزهر عدة مقاصير يلعن فيها الصحابة، بل يتكلم فيها بالكفر الصريح. وكان لهم مدرسة بقرب المشهد الذي بنوه ونسبوه إلى الحسين، وليس فيه الحسين ولا شيء منه باتفاق العلماء. وكانوا لا يدرسون في مدرستهم علوم المسلمين، بل المنطق والطبيعة والإلهي ونحو ذلك من مقالات الفلاسفة. وبنوا أرصادا على الجبال وغير الجبال يرصدون فيها الكواكب، يعبدونها ويسبحونها ويستنزلون روحانياتها، التي هي شياطين تتنزل على المشركين الكفار، كشياطين الأصنام"
وخالفوا السنة، فجعلوا رمضان بالحساب الفلكي لا باستطلاع الهلال بصريا..
(مع أنه ورد عن الرسول في صحيح مسلم: إذا رأيتم الهلال فصوموا، وإذا رأيتموه فأفطروا، فإن غم عليكم فصوموا ثلاثين يوما)
"أفطر جوهر يوم الفطر على عدد بغير رؤية، وصلى صلاة العيد بالقاهرة. ولم يصلِ أهل مصر، وصلوا من الغد في الجامع العتيق. وكان القاضي قد التمس الهلال على رسمه في سطح الجامع فلم يره. وبلغ ذلك الأمر جوهر فأنكره وهدد القاضي"

***

تعاقب العبيدية على حكم مصر بعد المعز، وكان أخبث هؤلاء هو الحاكم بأمر الله، شبيه فرعون في السيرة والأفعال والعقيدة.

ولما بدأ الحاكم في نشر الدعاة لمذهبه خارج مصر شعر العباسيون بالخطر، فأمر القادر بالله - الخليفة العباسي - بعمل "محضر يتضمن القدح في نسب العبيدية"
فصدر عام 402 هجريا (1011 م) المحضر الموقع من العلماء والمؤرخين والأشراف، المعروف في المراجع الأجنبية بـ "إعلان بغداد" Baghdad Manifesto ، والذي يعلن أن الفاطميين العبيديين، المستولين على حكم مصر، ليسوا من نسل علي وفاطمة، بل هو نسب تم ادعاؤه كي يسهل وصولهم للسلطة. وأنهم يتظاهرون بالتشيع ويبطنون معتقدات كفرية.
ووقع على هذا المحضر الشهير جماعة كبيرة جدا من علماء السنة ومن مشاهير الشيعة الاثنى عشرية. شهدوا جميعا أن:
"الناجم بمصر، الملقب بالحاكم، حكم الله عليه بالبوار، والخزي والدمار، والنكال والاستئصال، ابن معد بن إسماعيل بن عبد الرحمن بن سعيد، لا أسعده الله، ومن تقدم من سلفه من الأنجاس والأرجاس، أدعياء خوارج، لا نسب لهم في ولد علي بن أبي طالب، وأنه منزه عن باطلهم، وأن الذي ادعوه من الانتساب إليه باطل وزور"

لكن زعم القائلون بصحة النسب أن العلماء الذين كتبوا المحضر إنما كتبوا خوفا وتقية، لا عن علم حقيقي.
ورد ابن تيمية على هؤلاء قائلا أن:
"جمهور الأمة يطعن في نسبهم ويذكرون أنهم من أولاد المجوس أو اليهود. وهذا مشهور من شهادة علماء الطوائف: من الحنفية والمالكية والشافعية والحنابلة وأهل الحديث وأهل الكلام وعلماء النسب والعامة.
فمن شهد لهم بصحة نسب أو إيمان فأقل ما في شهادته أنه شاهد بلا علم، وذلك حرام باتفاق الأمة. بل ما ظهر عنهم من الزندقة والنفاق ومعاداة ما جاء به الرسول دليل على بطلان نسبهم الفاطمي. فإن من يكون من أقارب النبي ، القائمين بالخلافة في أمته، لا تكون معاداته لدينه كمعاداة هؤلاء. فلم يُعرف في بني هاشم ولا ولد أبي طالب ولا بني أمية من كان خليفة وهو معاد لدين الإسلام، فضلا عن أن يكون معاديا كمعاداة هؤلاء"

أما من قال أن الباطنية العبيدية هم من سلالة الرسول، كالمقريزي، فقال هذا لأسباب شخصية.
ففي صغره، وبعد نهاية عهد الفاطميين بمئات السنين، دخل المقريزي مع والده جامع الحاكم، فقال له وهو معه في وسط الجامع: "يا ولدي، هذا جامع جدك"
(جاء هذا في كتاب: إنباء الغمر بأبناء العمر، لابن حجر العسقلاني)
ولا ذنب للمقريزي أنه من سلالة فاسدة. فكثير من الصحابة كان آباؤهم كفارا، كعكرمة بن أبي جهل.
لكن معرفته لنسبه جعلته يهتم بتاريخهم.. فيقول الشوكاني في كتاب "البدر الطالع" أن المقريزي كان ينشر في كتبه محاسن العبيدية، ويفخم شأنهم، ويشيد بذكر مناقبهم، "وكنت قبل أن أعرف انتسابه إليهم أعجب من ذلك، كونه على غير مذهبهم، فلما وقفت على نسبه علمت أنه استروح إلى ذكر مناقب سلفه"

***

يقول الذهبي "كان الحاكم بأمر الله شيطانا مريدا، جبارا عنيدا، كثير التلون، سفاكا للدماء... كان فرعون زمانه"، أنشأ دارا كبيرة ملأها قيودا وأغلالا، وجعل لها سبعة أبواب، وسماها جهنم، فكان من سخط عليه أسكنه فيها.
كان يركب وحده في الأسواق على حمار، ويقيم الحسبة بنفسه، وبين يديه عبد ضخم فاجر، فمن وجب عليه تأديب، أمر العبد أن يولج فيه، والمفعول به يصيح!
"أراد ادعاء الإلهية، وشرع في ذلك، فكلمه الكبراء وخوفوه من وثوب الناس، فتوقف"
كان الخلق في ضنك من العيش معه. وكانوا يدسون إليه الرقاع المختومة بالدعاء عليه

والسب له ولأسلافه. حتى أنهم عملوا تمثال امرأة من ورق، بخف وإزار، ثم نصبوها له، وفي يدها قصاصة ورق، وكأنها تقدم له طلبا. فأمر بأخذها من يدها، ففتحها فرأى فيها شتائم موجهة له. فقال: انظروا من هذه؟، فوجودها تمثالا مصنوعا.
فغضب وأمر أتباعه وعبيده الزنوج أن يستبيحوا البلد ويحرقوها بالنار وينهبوا ممتلكات الناس. فقاتل المصريون عن أنفسهم بحسب ما أمكنهم. ولحق النهب والحريق الأطراف والنواحي التي لم يكن لأهلها قوة على امتناع ولا قدرة على دفاع. واستمرت الحرب بين العبيد والرعية ثلاثة أيام، وهو يركب ويشاهد النار ويسمع الصياح. فيسأل عن ذلك، فيقال له: العبيد يحرقون مصر. فيتظاهر بالتوجع ويقول: "من أمرهم بهذا، لعنهم الله؟"
فيسخر من الناس في سره، وكأنه لا يعلم من أعطى الأمر بإحراق البلد!
ثم تدخل قواد الجيش، الأتراك المماليك، وشعروا أن انهيار البلد سيؤثر على ممتلكاتهم ونسائهم، فقالوا للحاكم: نحن عبيدك ومماليكك، وهذه النار في بلدك، وفيه حريمنا وأولادنا، وما علمنا أن أهل البلد جنوا جناية تقتضي كل هذا. فإن كان في الأمر باطن لا نعرفه، عرفنا به، وانتظر حتى نخرج عيالنا وأموالنا، وإن كان ما يفعله هؤلاء العبيد الزنوج مخالفا لرأيك، أطلق يدنا في معاملتهم بما نعامل به المفسدين.
فتظاهر بأنه لا يسيطر على أفعال العبيد، وأعطى الإذن للجيش بقتال الزنوج، ثم أرسل للزنوج المزيد من السلاح سرا، مع رسائل تأييد! كي تدخل البلد في حرب أهلية.
فدخل القواد الأتراك عليه مرة أخرى وقالوا: إنا قد عرفنا غرضك، وإنه إهلاك البلد.
وهددوه بالانقلاب عليه. فلما رآهم جادين في تهديدهم خرج بنفسه للزنوج وأمرهم بالتوقف عن نهب البلد، فسكنت الفتنة.
وكان قدر ما أحرق من مصر ثلثها، ونهب نصفها. وتتبع المصريون من قام بأسر الزوجات والبنات، فاشتروهن من العبيد بعد أن زنوا بهن، حتى أن بعضهن قتلت نفسها خوفا من العار والفضيحة.
ثم زاد ظلم الحاكم فأراد أن يدعي الربوبية كما فعل فرعون، فصار قوم من الجهال إذا رأوه يقولون: يا واحد يا أحد، يا محيي يا مميت.

وأفعال الحاكم هذه تنبع من عقيدة الباطنية، حيث يقول الذهبي أنهم كانوا يؤمنون بأن "لظواهر الآيات والأحاديث بواطن، هي كاللب، والظاهر كالقشر. وأن لكل آية ظهر وبطن، فمن وقف على علم الباطن، فقد ارتقى عن رتبة التكاليف"، أي لم يعد ملزما باتباع قواعد الحلال والحرام التي يجب على الآخرين الالتزام بها.

***

كان الحاكم مولعا بالتنجيم، وأطاع المنجمين لما نصحوه بركوب الحمار دائما في تنقلاته، وألزموه أن يصعد جبل المقطم في أكثر الأيام، وينفرد وحده بخطاب زحل بما علموه إياه من الكلام، ويلتزم بإشعال البخور وتلاوة العزائم التي أخبروه بها، وحكموا بأنه إن استمر على ذلك فسيظل سالما من كل إيذاء. فلزم ما أشاروا به عليه، لكن أراد الله العزيز العليم، رب الكواكب ومسخرها ومدبرها، أن يكون هلاك الحاكم في ذلك الجبل وعلى ذلك الحمار!
وسبب قتله، بعد أن حكم مصر 25 سنة، هو أخته "ست المُلك".
فقد أرسل إليها مرة مراسلات قبيحة، يتهمها بالزنا، ويقول فيها: "بلغني أن الرجال يدخلون إليك"، وهددها بالقتل. فذهبت سرا إلى قائد كبير من قواد الحاكم وأقنعته باغتيال أخيها.
قالت له أن الناس تكره الحاكم لما يجاهر به ويفعله، "وأخاف أن يثوروا عليه فيهلك هو ونحن معه، وتنقلع هذه الدولة"، فيجب التخلص منه وتولية ابنه الصغير، الظاهر، على أن تكون هي وهذا القائد أوصياء على العرش.
وافق الرجل، وتم تدبير عبدين ليكمنا للحاكم أثناء جولته الليلية في المقطم. فقتلاه وقطعا جثته. فطلع النهار والناس وأهل القصر في حيرة، ينتظرون عودة الحاكم المفقود.
وتوجد طائفة تقدس الحاكم، وهم الدروز، يؤمنون أنه لم يمت، بل كان تجسدا إلهيا، وأنه

سيظهر مرة أخرى. وقد علق الذهبي عليهم قائلا: "نعوذ بالله من الجهل"
ولما استقرت البيعة للابن خانت "ست الملك" القائد، وقالت للجنود: "هذا هو قاتل مولاكم الحاكم!"، فقطعوه بالسيوف.

وهكذا انتهى فرعون، لكن لم تغرق دولته معه، حيث استمر الباطنية في حكم مصر.
ويقول ول ديورانت في موسوعته، قصة الحضارة:
"أمر الحاكم بأمر الله بهدم كنيسة بيت المقدس التي فيها قبر المسيح، وكان تنفيذ هذا الأمر من أسباب قيام الحروب الصليبية. وكأنما أراد الحاكم أن يعيد سيرة الإمبراطور كلجيولا، فنادى بنفسه إلها، وأرسل البعوث لنشر هذه العقيدة بين الناس"
***
بعد الحاكم والظاهر جاء المستنصر. وفي عهده، كما يقول الذهبي، "كان سب الصحابة فاشيا مجهورا، وكان الإسلام غريبا مستورا. بقي في الخلافة ستين سنة وأربعة أشهر. ولا أعلم أحدا في الإسلام - لا خليفة ولا سلطانا - طالت مدته مثل المستنصر هذا. وحدث في عهده الغلاء الذي ما عهد مثله منذ زمان يوسف، ودام سبع سنين، حتى أكل الناس بعضهم بعضا، وقيل إنه بيع رغيف واحد بخمسين دينارا"
وضعفت دولته أكثر عندما أعلن واليه على بلاد المغرب، ابن باديس، انفصاله عن الباطنية، وأعاد إفريقية للمذهب السني، وأعلن ولاءه للخليفة العباسي، وعداءه للفاطميين.
لكن لم يتقبل العبيدية الهزيمة. حيث جاؤوا أصلا من بلاد المغرب قبل أن يحكموا مصر، فاعتبروا خروج المغرب من تحت أيديهم شيئا لا يمكن السكوت عليه.
فكان لا بد من رد الاعتبار، حتى لو تطلب الأمر إحراق المغرب كله.

كانت أداة انتقام الباطنية من ابن باديس هي الاستعانة بقبائل عرب بني هلال الساكنة بصعيد مصر.
أتت هذه القبائل لمصر في بدايات حكم الإسماعيلية الفاطميين، واستقرت في الجنوب، "وقد عم ضررهم، وأحرق البلاد والدولة شررهم". فقرر وزير المستنصر أن يضرب عصفورين بحجر واحد، فيتخلص من مشاكل هؤلاء البدو، ويقذف بهم على ابن باديس ليدمروا بلاد المغرب.

ونجحت الخطة، فانهزم ابن باديس أمام هذه القبائل، و"استولت العربان على حرمه وداره وغلمانه، وقتلوا الرجال وسبوا النساء، وانتهبوا ما كان في دوره وقصوره، وعاثوا في البلد ينهبون ويأسرون ويقتلون، فخربت القيروان"
ورحلة قبائل بني هلال هذه هي ما تحول في الفولكلور المصري المتأثر بالفاطميين إلى "السيرة الهلالية"، والتي يتغنى بها بعض شعراء العامية إلى الآن.
***
لما تدهور حال مصر أيام المستنصر، وفشا الجوع وانتشرت الفوضى، استدعى قائدا عسكريا من الخارج ليصلح حال البلاد، وهو بدر الجمالي، الملقب بأمير الجيوش. فأصلح الأمور وأعاد النظام، وأصبحت مقاليد الدولة في يده لا في يد المستنصر، حتى أن أحد أفراد الحاشية قرأ آية "ولقد نصركم الله ببدر"، يقصد بها بدر الجمالي، لا موقعة بدر. فقال المستنصر: "لو أتمها لضربت عنقه"، حيث أن بقية الآية يشير للذل.
("ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة"، آل عمران 123)
ومات الجمالي والمستنصر في وقت متقارب، فورث ابن الجمالي، الأفضل، منصب أبيه كقائد للجيوش.. وكان هو السبب وراء انفصال الفرقة الحشيشية عن الإسماعيلية الفاطميين.

حيث أن المستنصر كان قد جعل ولاية العهد لابنه نزار، فلما مات المستنصر رفض الأفضل

بن بدر قبول إمامة نزار، وأراد تولية الابن الآخر الصغير للمستنصر، المسمى المستعلي، لأن السيطرة عليه ستكون أسهل، ولن تخرج مقاليد الأمور من يد الأفضل الوزير.
فهرب نزار للإسكندرية وحاول تجميع بعض القوات لاسترداد عرشه المسلوب، لكن الوزير الأفضل، أمير الجيوش، قبض عليه وحبسه حتى مات من الجوع. وتم إعلان المستعلي خليفة، في حين كانت أمور الدولة فعليا في يد الأفضل.
قبل الإسماعيلية بمصر هذا الأمر، مع أنه مخالف لقواعدهم. إلا أن فرقة صغيرة في إيران، يتزعمها الحسن بن الصبّاح، رفضت قبول إمامة المستعلي، وأعلنت أن ولاءها سيكون دائما لنزار.
وهكذا ظهرت فرقة النزارية الإسماعيلية الحشيشية للوجود، وأصبح الفاطميون بمصر هم المستعلية الإسماعيلية، نسبة إلى المستعلي.

وقد تزامن ظهور الحشيشية مع بداية الحملات الصليبية، وكانت القدس تحت حكم الفاطميين عندما استولى عليها الصليبيون، أيام المستعلي وأمير جيوشه الأفضل.

الحشيشية

كان الحسن بن الصباح قد ذهب لمصر أيام المستنصر، واجتمع به، وعرض عليه أن يكون أحد دعاته الناشرين للعقيدة الباطنية في بلاد العجم، أي بلاد فارس/إيران.
وقبل أن يتركه سأله: من سيكون إمامي بعدك؟ فقال المستنصر: ابني الأكبر نزار.
وهكذا تحدد الهدف أمام ابن الصباح، وبقي اختيار بيئة صالحة لبذر الأفكار الإسماعيلية.

"توجه إلى بلاد العجم مع أتباعه، وتكلم مع أهل الجبال والغتم الجهلة من تلك الأراضي. ثم قصد قلعة ألموت Alamut، (والتي يعني اسمها: عش النسر). وهي قلعة حصينة، أهلها ضعاف العقول، فقراء، لكن فيهم قوة وشجاعة. فقال لهم: نحن قوم زهاد سنعبد الله في هذا الجبل، ونشتري منكم نصف القلعة بسبعة آلاف دينار. فباعوه إياها، وأقام بها.
فلما قوي أمره استولى على القلعة كلها. وبلغ عدد أصحابه ثلاثمائة ونيفا"
وصلت شكوى لوالي المنطقة تقول أن بالقلعة "قوما يفسدون عقائد الناس، وهم في تزيد، ونخاف من غائلتهم"، فأخذ جيشا وحاصر القلعة، وهو يتوقع أن يكون القضاء عليهم سهلا يسيرا.
فقال أحد أصحاب ابن الصباح، يسمى علي اليعقوبي: ماذا يكون لي لو نجحت في القضاء على هذا العدو؟ فقالوا: سنذكرك دائما في تسبيحنا. قال: رضيت.
فنزل بهم في الليل، وأحاطوا بالجيش، وأعطاهم طبولا وقال لهم: سأدخل المعسكر، فإذا سمعتم أصوات الهرج والصياح دقوا الطبول.
تسلل لخيمة الوالي، ونجح في اغتياله، فصاح حرس الوالي وانتبه الجنود وتكالبوا على اليعقوبي وقتلوه. وهنا دق أتباع ابن الصباح الطبول فخاف الجيش، وظن أن جيشا ضخما سيهجم على معسكرهم بعد اغتيال القائد، فهرب الجنود، وتركوا الأسلحة والعتاد غنيمة لابن الصباح وفرقته.

واستولى ابن الصباح على قلعة أخرى، فسارع أهل الجبل من الأعاجم إلى الدخول في دعوته. وبنى قلعة ثالثة، واتسع بلاؤهم وزادت حصونهم، واشتهروا بمهارة الهجوم بالسكين والاغتيال، وهي السُنة التي سنها لهم علي اليعقوبي. فارتاع منهم الملوك، وخطبوا ودهم بالتحف والأموال، اتقاء لشرهم.
يقول ابن كثير:
"كان الحسن بن الصباح قد دخل مصر وتعلم من الزنادقة الذين كانوا بها، ثم صار إلى تلك النواحي ببلاد أصبهان. فكان لا يدعو إلا غبيا لا يعرف يمينه من شماله، ثم يطعمه العسل بالجوز والشونيز، (أي الحبة السوداء)، حتى يحترق مزاجه ويفسد دماغه، ثم يذكر له شيئا من أخبار أهل البيت، ويكذب له من أقاويل الرافضة الضُلال... ولا يزال يسقيه من هذا وأمثاله حتى يستجيب له، ويصير أطوع له من أمه وأبيه. ويظهر له أشياء كثيرة من المخرقة والنيرنجات والحيل التي لا تروج إلا على الجهال، حتى التف عليه جم غفير"
(النيرنجات أو النارنجيات: استخدام العلوم والصناعات والمواد الطبيعية في تصنيع حيل تخدع الرائي، وتبهره، وتقنعه أنها سحر أو كرامات خارقة للعادة)
وهذا هو أسلوب دعاة الباطنية في اجتذاب الأتباع، كما فعل أبو عبد الله الشيعي مع كتامة من قبل.

***

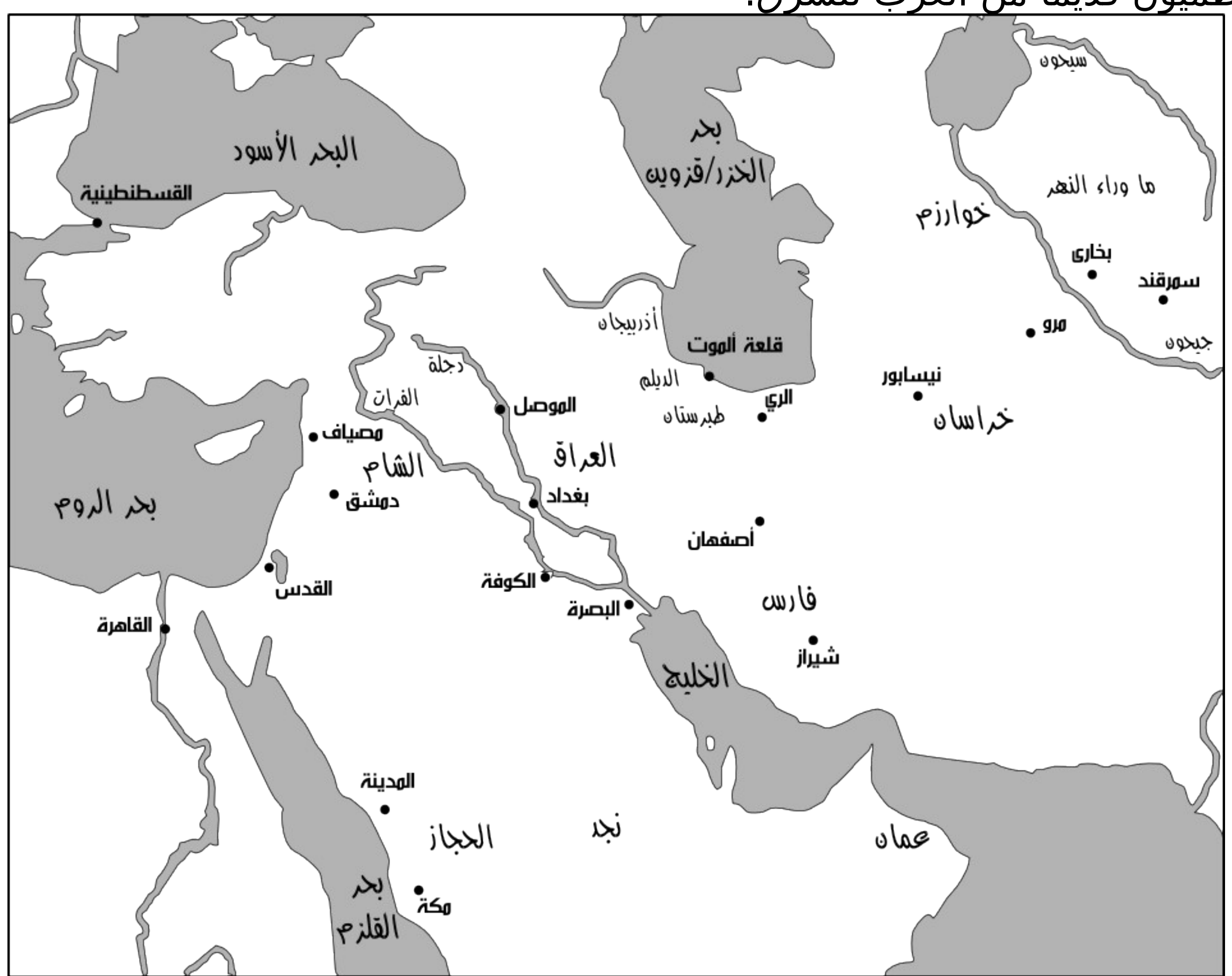
انتظر أتباع ابن الصباح قدوم نزار إماما عليهم، لكن طال الانتظار، حيث كان الأفضل بن بدر، أمير الجيوش، قد قتله.
فتفتق ذهن ابن الصباح عن حيلة يلهيهم بها. فقال لهم: الإمام نزار يعيش الآن بين أعداء، ويخشى أن يظهر نفسه، والبلاد شاسعة بيننا وبينه، ولا يمكنه السلوك إلينا. ولهذا فقد عزم على أن يختفي في بطن حامل، ويجيء سالما، ثم يولد من جديد.

فصدقوه!
"ثم إنه أحضر جارية مصرية قد أحبلها، وقال: إنه قد اختفى في بطن هذه. فأخذوا يعظمونها ويتخشعون لرؤيتها، ويرتقبون الإمام المنتظر أن يخرج منها"
ويقول ول ديورانت:
"ظل الحسن يحكم ألموت خمسا وثلاثين سنة، وأحالها مركزا للاغتيال والتعليم والفن. وظلت الطائفة باقية بعد وفاته بزمن طويل، واستولت على عدة حصون أخرى منيعة"

***

أما في مصر فقد كان المستعلي خليفة بالاسم فقط، وكل أمور الدولة وأموالها في يد الأفضل أمير الجيوش. فلما مات المستعلي قام الأفضل بجعل "الآمر بأحكام الله"، ابن المستعلي، الخليفة الفاطمي الجديد.
واستمر الوضع على ما هو عليه، إلى أن كبر الآمر وأراد الانفراد بالحكم دون وصاية من الأفضل، فدبر قتله، ثم مكث في دار الأفضل أربعين يوما، مشرفا على نقل ما بها من الأموال والتحف والثروات الطائلة إلى قصره الخاص.

أعلن النزارية العداء للآمر وللدولة العبيدية، وبدؤوا يحاولون الانتشار من الشرق للغرب، فبعثوا الدعاة لبلاد الشام، كي ينشروا العقيدة الإسماعيلية الباطنية فيها، كما انتشر الفاطميون قديما من الغرب للشرق.



في البداية واجهتهم صعوبات كبيرة، ورفضا شعبيا وحكوميا، إلا أنه بالمثابرة وخداع الناس والتقرب من الوزراء استطاعوا إيجاد موضع قدم لهم بدمشق، واستولوا على حصن "مصياف"، والذي صار موازيا لحصن "ألموت"، وقاعدة يخرج منها الدعاة ومنفذو عمليات الاغتيال.

وهنا شعر الفاطميون العبيدية، وإمامهم الآمر بأحكام الله، ابن المستعلي، بضرورة الرد على النزارية قبل أن يستفحل أمرهم ويسحبوا البساط من تحت أقدام حكام مصر.
فصدرت الرسائل المعروفة باسم "الهداية الآمرية في إبطال دعوى النزارية"، و"إيقاع صواعق الإرغام في إدحاض حجج أولئك اللئام"، والتي حاول مؤلفها استخدام كل ما يمكنه من حيل لفظية وأكاذيب تاريخية وتأويلات باطنية منحرفة للآيات والأحاديث ليؤيد صحة إمامة المستعلي ضد زعم النزارية أن الإمام هو نزار.

وفي نص رسالة "صواعق الإرغام" يظهر أول استخدام مكتوب لكلمة "الحشيشية" كوصف لطائفة النزارية. وكانت الرسالة نوعا من البروباجاندا الحكومية الموجهة ضد نزارية الشام، ويوصف فيها كبير نزارية الشام بأنه "الطاغوت". أما نزارية إيران فلم يهتم الفاطميون بهم كثيرا، لبعد المسافة بين قلعة ألموت وبين القاهرة.
ومما ورد فيها:
"مولانا المستعلي بالله هو حبل الله الممدود، فمن يقطعه؟ ومشرع نجاته المورود، فمن يمنعه؟ وعَلَم الهدى المرفوع، فمن يطرحه؟ وجبل الدين الراسي، فمن يزحزحه؟ وبحر الحق المسجور، فمن ينزفه؟ وسراج الأمة الوهّاج، فمن يستره؟ ومعنى الكتاب المسطور، فمن يحرفه؟ ومحل الولاية المقدَّم، فمن يؤخره؟"
ويصف مؤلفها كل من شك في إمامة المستعلي بأنه قد "خرج من عهدة الدين، وفارق عصمة المؤمنين، فكان من يهود هذه الأمة"
ويدعي مؤلف الرسالة أن الأئمة الإسماعيليين يعلمون الغيب:
"إن مولانا الحاكم بأمر الله لم يغب عن مكنون علمه أن مولانا الظاهر لإعزاز دين الله سيولد له، كما لم يخف على مولانا المستنصر بالله أنه سيولد له مولانا المستعلي بالله"
ويقارن المؤلف بين تسلسل أنبياء بني إسرائيل وبين تسلسل أئمة الإسماعيلية، ويقول أن التفسير الباطني للآيات المذكور فيها اسم سليمان عليه السلام هو أنها عن المستنصر!
"فسليمان هذه الأمة هو مولانا المستنصر بالله، لأنه واقع في الرتبة والعدد من أئمة دوره موقع سليمان في الرتبة والعدد من أئمة دوره... وإلى هذا أشار الله تعالى بقوله "واتبَعوا ما تتلوا الشياطين على مُلك سليمان وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا"، أي ما كفر مولانا المستنصر بالله ولا جحد حقيقة علمه في معنى الإمام من بعده، بل عقد الإمامة لمولانا المستعلي بالله. وكفر بذلك من اتبع الهوى وآثر الدنيا"
***
مات الآمر بأحكام الله مقتولا، حيث اغتاله بعض "الفداوية" في موكبه بقرب القاهرة، وهو يمر على أحد الجسور، سنة 524 هـ، وكان عمره 35 سنة.
ويقول الذهبي "وقد ابتهج الناس بقتله، لعسفه وسفكه الدماء، وكثرة مصادراته، واستحسانه الفواحش"

واستمرت دولة الفاطميين، إلى أن قضى عليها صلاح الدين الأيوبي.
أما الحشيشية النزارية فقد كانت نهايتهم فيما بعد على يد هولاكو، الذي قضى عليهم في بلاد فارس، وعلى يد بيبرس، الذي قضى عليهم في الشام.
***
يقول ابن كثير عن الفاطميين:
"وقد كان الفاطميون أغنى الخلفاء، وأكثرهم مالا. وكانوا من أعتى الخلفاء وأجبرهم وأظلمهم، وأنجس الملوك سيرة وأخبثهم سريرة. ظهرت في دولتهم البدع والمنكرات، وكثر أهل الفساد، وقل عندهم الصالحون من العلماء والعباد، وكثر بأرض الشام النُصيرية والدُرزية والحشيشية، وتغلب الفرنج على سواحل الشام بكماله...
وحين زالت أيامهم وانتقض إبرامهم أعاد الله هذه البلاد كلها إلى أهلها من السادة المسلمين.

وما أحسن ما قاله بعض الشعراء في بني أيوب يمدحهم على ما فعلوه بديار مصر:
ألستم مزيلي دولة الكفر من بني .. عُبيد بمصر؟ إن هذا هو الفضل
زنادقة شيعية باطنية .. مجوس، وما في الصالحين لهم أصل
يُسِرّون كفرا، يُظهرون تشيعا .. ليستتروا شيئا، وعمهم الجهل"
***
اشتهر الحشيشية بعمليات الاغتيال. فلم تكن لهم دولة كبيرة وجيش، بل اعتمدت قوتهم على التسلل والتنكر ثم توجيه الضربات فجأة.
وكان يتم تدريبهم نفسيا على الاستعداد للموت وعلى تقبله بصدر رحب، حيث أنهم كانوا في أغلب الأحيان يتعرضون للقتل فور تنفيذ المهمة.
وقد حاولوا قتل صلاح الدين عدة مرات، فلم ينجحوا. وخاف منهم السلطان فكان لا يخرج إلا وهو يرتدي درعا تحت ملابسه، وخوذة حديدية فوق رأسه.
ولما كان صلاح الدين في حالة عداء مع ملوك حلب، اتصل الحلبيون بحشيشية الشام وزعيمهم المعروف باسم "راشد الدين سِنان، شيخ الجبل"، ودفعوا لهم مقابل إرسال من يغتال السلطان.
يقول ابن كثير: "أرسل الحلبيون إلى سنان، فأرسل جماعة من أصحابه ليقتلوا صلاح الدين. فدخل طائفة منهم في جيشه في زي الجند، فقاتلوا أشد القتال حتى اختلطوا بهم، فوجدوا فرصة ذات يوم والسلطان ظاهر للناس، فحمل عليه واحد منهم فضربه بسكين على رأسه فإذا هو محترس منهم باللأمة، فسلمه الله.. غير أن السكين مرت على خده فجرحته جرحا هينا. ثم أخذ الفداوي رأس السلطان فوضعه على الأرض ليذبحه.. ومن حوله قد أخذتهم دهشة، ثم ثاب إليهم عقلهم فبادروا إلى الفداوي فقتلوه وقطعوه.
ثم هجم آخر في الساعة الراهنة على السلطان فقتل. ثم هجم آخر على بعض الأمراء فقتل أيضا، وهرب الرابع، فأُدرك فقُتل"

ويقول برنارد لويس:
"أصبحت كلمة حشاش Assassin كلمة شائعة في معظم اللغات الأوروبية. وتعني القاتل، أو بالتحديد: الذي يقوم بالقتل خلسة أو غدرا، وغالبا تكون ضحيته شخصية عامة، وهدفه التعصب أو الجشع"
أي أصبحت كلمة "أسّاسِن" في اللغات الغربية تعني: القاتل المغتال، نسبة إلى طائفة الحشاشين.

وبالإضافة لهذا فإن بعض وسائل الترفيه الغربية تقدم صورة شبه "بطولية" عن هذه الجماعة.. نجدها مثلا في قصص باتمان Batman وأفلامه التي تتحدث عن "عصبة القتلة" التي تريد القضاء على الفساد بالقوة. ونراها أيضا في المسلسل التليفزيوني Arrow ، وفي سلسلة ألعاب Assassin’s Creed.
***
يروي المؤرخون قصصا كثيرة عن سِنان، شيخ الجبل، وعن الحسن بن الصباح، وعن باقي زعماء طائفة الحشاشين. وأصبحت حياتهم مادة خصبة للقصص المثيرة والعجيبة.
فيقال مثلا أن سنانا كان أعرج، بسبب حجر وقع عليه أثناء أحد الزلازل. فاجتمع إليه محبوه لكي يقتلوه. فقال لهم: ولم تقتلوني؟
قالوا: لترجع إلينا صحيحا، فإنا نكره أن يكون فينا أعرج.
فشكرهم ودعا لهم، وقال: اصبروا علي، فليس هذا وقته.
(أي أنهم كانوا يعتقدون أنه سيتجسد في جسد جديد سليم بعد موته!)
وفي مرة جاءه أمر من حشيشية الألموت بأن يرفع التكاليف الشرعية عن أتباعه، فنزل بينهم بنفسه في نهار رمضان وأكل أمامهم، فأكلوا مثله.
وفي مرة أرسل إليه صلاح الدين رسولا برسالة تهديد، فتباهى سنان أمام الرسول بأن

أتباعه أشداء ولا يهابون الموت، ولا يعصون له أمرا. وللتدليل على هذا أمر بعضهم بأن يقفزوا من فوق الحصن، ففعلوا فورا، وماتوا.

وينقل الذهبي ما قاله البعض عن سنان، فيقول: "كان رجلا عظيما، خفي الكيد، بعيد الهمة، عظيم المخاريق، ذا قدرة على الإغواء، وخديعة القلوب، وكتمان السر، واستخدام الطغام والغفلة في أغراضه الفاسدة. وأصله من قرية من قرى البصرة.
راض نفسه بعلوم الفلسفة، وقرأ كثيرا من كتب الجدل والمغالطة، ورسائل إخوان الصفا، وما شاكلها من الفلسفة الإقناعية المشوقة غير المبرهنة"

ويقال أن سبب تسميتهم بالحشيشية هو تعاطيهم للحشيش المخدر. ويروي "ماركو بولو" قصة في هذا الشأن، انتشرت في كتابات الغربيين فيما بعد.
حيث يقال أن زعيم الحشيشية كانت عنده حديقة سرية في إحدى القلاع التابعة له. ولم يكن مسموحا للأتباع بدخولها. وكان يضع فيها من الملذات أنواعا كثيرة.
وإذا أراد أن يقوم بعملية "غسيل عقل" لأحد الأتباع كان يقوم بتخديره ثم نقله لهذه الحديقة، فيستيقظ الشاب ليجد نفسه بين نساء وخمر وينابيع ماء. وبعد عدة أيام تقوم إحدى النساء بتخدير الشاب مرة أخرى، ثم يعيده زعيم الحشيشية لمكانه الأول، ويقول له: كنت في جنة الفردوس، وأنا أعدك بأن تعود لها بعد موتك إن أطعت أوامري ونجحت في عملية الاغتيال التي سأكلفك بها.

وفي تلك الفترة بدأ انتشار الحشيش بين الناس، إذ يقول ابن تيمية:
"والحشيشة تؤكل وتشرب. وكل ذلك حرام. وإنما لم يتكلم المتقدمون في خصوصها لأنه إنما حدث أكلها من قريب في أواخر المائة السادسة أو قريبا من ذلك"
"وأول ما بلغنا أنها ظهرت بين المسلمين في أواخر المائة السادسة وأوائل السابعة حيث ظهرت دولة التتر.
وهي شر من الشراب المسكر من بعض الوجوه، والمسكر شر منها من وجه آخر. فإنها مع أنها تسكر آكلها حتى يبقى مصطولا تورث التخنيث والديوثة، وتفسد المزاج فتجعل الكبير كالسفيه، وتوجب كثرة الأكل، وتورث الجنون. وكثير من الناس صار مجنونا بسبب أكلها"
"وقليلها يدعو إلى كثيرها، كالشراب المسكر .والمعتاد لها يصعب عليه فطامه عنها"
ويقول المقريزي: "قدم إلى القاهرة شخص من ملاحدة العجم، صنع الحشيشة بعسل. خلط فيها عدة أجزاء مجففة، كعرف اللفاح ونحوه، وسماها العقدة، وباعها بخفية.. فشاع أكلها وفشا في كثير من الناس مدة أعوام"
ويقول ابن كثير، في تأريخه لأحداث سنة 724 هـ :
"ولي سيف الدين قديدار ولاية مصر، وهو شهم سفاك للدماء. فأراق الخمور، وأحرق الحشيشة، وأمسك الشطار (أي اللصوص وقطاع الطرق)، واستقامت به أحوال القاهرة ومصر، وكان هذا الرجل ملازما لابن تيمية مدة مقامه بمصر"

عقائد الإسماعيلية

يدخل الباطنية على المسلمين من باب التشيع أو من باب التصوف أو من باب الفلسفة.
فيقول ابن حزم أن الباطنية استخدموا "ألسنة الشيعة" كي يخرجوا ضعفاء الإيمان من الإسلام إلى الكفر.
ويقول ابن تيمية أنهم ادعوا أن للنصوص الدينية معانٍ باطنة مخالفة للمعاني الظاهرة المعلومة، ووافقهم في ذلك "الفلاسفة وغلاة المتصوفة".
واخترعوا تأويلات جديدة ومختلفة لكلمات: "القيامة" و"الجنة" و"الملائكة"، لأنهم أرادوا أن يوفقوا بين فلسفة أرسطو وبين نصوص الوحي.. فلما استحال التوفيق قرروا تغيير معاني نصوص الوحي كي تتماشى مع فلسفة الإغريق.

ويقول ابن الأثير أن الباطنية كانوا يقولون لأتباعهم: العبادات لا تجب على أولياء الله، بل هي قيود على العامة فقط، وساقطة عن "الخاصة".
وقد نقل عبد القاهر البغدادي رسالة كتبها أحد الباطنية، فكان مما ورد فيها:
"وهل الجنة إلا هذه الدنيا ونعيمها، وهل النار وعذابها إلا ما فيه أصحاب الشرائع من التعب والنصب في الصلاة والصيام والجهاد والحج؟"

ويقول القرطبي في تفسيره، عند كلامه عن آية "وهبْ لنا من لدنك رحمة":
جهال المتصوفة وزنادقة الباطنية يتشبثون بهذه الآية وأمثالها، فيقولون: "العلم ما وهبه الله ابتداء من غير كسب.. والنظر في الكتب والأوراق حجاب"، وهذا مردود.
(أي أنهم يقلدون الأفكار الغنوصية، ويقولون أن المعرفة الدينية مصدرها إلهام يشعرون به في قلوبهم من الله مباشرة، ولا يحتاجون لفهم الشريعة ولا للتفقه في نصوص الوحي.. بل وينظرون للعلم الشرعي على أنه يحجبهم عن "الحقائق" الإلهية)

***

أشار ابن خلدون لمراحل تطور الأفكار الباطنية عند الشيعة، فقال:
"ثم حدث فيهم بعد ذلك القول بالإمام المعصوم، وكثرت التآليف في مذاهبهم. وجاء الإسماعيلية منهم يدّعون ألوهية الإمام بنوع من الحلول، وآخرون يدعون رجعة من مات من الأئمة بنوع التناسخ...
ثم حدث أيضا عند المتأخرين من الصوفية الكلام في الكشف، وفيما وراء الحس. وظهر من كثير منهم القول بالحلول والوحدة، فشاركوا فيها الإمامية والرافضة، لقولهم بألوهية الأئمة وحلول الإله فيهم"

وحاولت الفرق الباطنية التلاعب بتفسير القرآن، فيقول ابن تيمية:
"من عجائب تحريفات الملاحدة الباطنية أنهم يقولون
الصلوات الخمس: معرفة أسرارنا. وصيام رمضان: كتمان أسرارنا. والحج: هو الزيارة لشيوخنا المقدسين"
ويقول أن من فتح لهم هذا الباب هو فرقة الجهمية وفرقة الرافضة، حيث صار بعضهم يقول أن كلمة "الإمام المبين" التي وردت في آية "وكل شيء أحصيناه في إمام مبين" مقصود بها علي بن أبي طالب، و"الشجرة الملعونة في القرآن": بنو أمية، والبقرة المأمور بذبحها: عائشة، و"اللؤلؤ والمرجان": الحسن والحسين، و"تبت يدا أبي لهب وتب" هي إشارة باطنية لأبي بكر وعمر.
ويقول أن بعض الصوفية حاولوا الرد على هذه التفسيرات الباطنية بتفسيرات مضادة!، فقالوا:
آيات "والتين والزيتون وطور سينين وهذا البلد الأمين" مقصود بها أبو بكر وعمر وعثمان وعلي.

و"كزرع أخرج شطأه": أبو بكر، و"فآزره": عمر، و"فاستغلظ": عثمان، و"فاستوى على سوقه": علي.
وحاول بعض الصوفية أيضا أن يضيفوا للقرآن معان جديدة غير مقصودة في سياق الآيات، كي توافق مصطلحاتهم الصوفية و"تمارينهم الروحية".. فقالوا أن آية "اذهب إلى فرعون إنه طغى" مقصود بها القلب، وأن آية "إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة" مقصود بها النفس، وهكذا.

***

ويشرح الغزالي ما يعتقده الباطنية بخصوص القيامة والجنة والنار، فيقول: "وقد اتفقوا عن آخرهم على إنكار القيامة"
وقاموا بتأويل معناها فجعلوها مجرد رمز يشير لـ "خروج الإمام وقيام قائم الزمان" الذي يرفع عنهم تكليفات الشريعة الإسلامية.
وبعضهم قال أن القيامة تعني أيضا نهاية دورة الحياة الحالية، وبعدها ستبدأ دورة جديدة، حيث أن المادة يستحيل أن تصاب بالفناء، ويستحيل أن يكون عالمنا قد بدأ من العدم، فيجب أن يكون الكون عبارة عن دورات متتالية.
(وهذه العقيدة الباطنية منتشرة حاليا للأسف، حيث يؤمن البعض أن الكون عبارة عن دورات من الانفجار ثم التمدد ثم الانكماش ثم الانفجار مرة أخرى، وهكذا)
ويقول أيضا أنهم أنكروا المعنى المعروف للبعث والحشر والجنة والنار، فقالوا أن المعاد المقصود ليس هو قيام الموتى من القبور لحياة أبدية في جنة أو نار، بل مجرد عودة مكونات الإنسان إلى أصولها.. أي عودة المكونات المادي إلى الطبيعة، وعودة الروح إلى مصدرها.
وقالوا أن الروح إن كانت خلال الحياة قد تلقت "العلوم والمعارف من الأئمة" فإنها عند مفارقة الجسم ستتحد بـ "العالم الروحاني الذي منه انفصالها، وتسعد بالعود إلى وطنها الأصلي"، وأنها بموتها ستكون قد تخلصت "من ضيق الجسد".
أما "النفوس المنكوسة المغمورة في عالم الطبيعة، المعرضة عن رشدها من الأئمة المعصومين، فإنها تبقى أبد الدهر في النار، بمعنى أنها تبقى في العالم الجسماني تتناسخها الأبدان"
(وهذه هي نفس عقائد الغنوصية)
وأضاف الغزالي أن "غرضهم بهذه التأويلات انتزاع المعتقدات الظاهرة عن نفوس الخلق، حتى تبطل به الرغبة والرهبة"
أي هدفهم هو تغيير ما يؤمن به الناس، كي لا تصبح حياة المسلمين وأفعالهم مرتبطة بالخوف من عذاب النار والرغبة في نعيم الجنة.

***

تنتشر اليوم عبارة بين بعض محبي ألعاب الكمبيوتر تقول:
"Nothing is true, everything is permitted"
"لا شيء حقيقي. كل شيء مباح"، أو "لا حقيقة في الوجود، وكل الأمور مباحة".
وهي مأخوذة من سلسلة ألعاب Assassin's Creed (أي "عقيدة القاتل")
واللعبة مستوحاة من طائفة الحشيشية الباطنية، وتقول أن هذه الجملة كانت عقيدة عندهم.
أما تاريخيا فلا دليل صريح على هذا، حيث لم يترك الحشيشية كتابات توضح معتقداتهم.. وإن كانت أغلب معتقداتهم هي نفس معتقدات الفاطميين المعروفة، حيث أن الحشيشية كانوا متفرعين عن الفاطميين الإسماعيلية.
وقد اقتبس مصممو اللعبة هذه العبارة من رواية عنوانها "ألموت"، لمؤلف سلوفيني اسمه Vladimir Bartol ، نشرها سنة 1938 لكن لم تترجم للإنجليزية إلا مؤخرا.
لكن من تتبعوا مصادر هذا المؤلف وجدوا أنه لم يخترع العبارة من نفسه، بل نقلها من رواية فرنسية كانت صدرت سنة 1936، وعنوانها هو "زعيم الحشاشين The Master of

the Assassins"، ومؤلفتها تسمى Betty Bouthoul
وفيها تقول المؤلفة أن هذه الجملة كانت آخر ما قاله الحسن بن الصباح قبل موته.

لكن بمزيد من التتبع اتضح أن المؤلفة الفرنسية لم تكن أول من نسب هذه العبارة للحشيشية، بل حسب المصادر المتوفرة حاليا فإن أول من نسبها لهم هو الفيلسوف الألماني نيتشه Friedrich Nietzsche.
ففي كتابه On the Genealogy of Morality الصادر سنة 1887 يتحدث نيتشه عن جزء من فلسفته، فيقول أنه غير معجب بالمفكرين "الأحرار" الموجودين في أوروبا في زمنه، لأنهم ليسوا أحرارا بما فيه الكفاية.
ويقول لهم: ما دمتم لا زلتم تؤمنون بأن هناك حقائق في الكون فأنتم لستم أحرارا حقا.
ويجب أن تتحرروا من فكرة وجود حقائق على الإطلاق. ولا يكفي كونكم ملحدين وفنانين ثائرين، بل يجب أن تقلدوا عقيدة الحشيشية القدماء الذين قالوا أنه لا حقيقة في الوجود، وكل شيء مباح.. فهذا هو التحرر الحقيقي.
(ولا نعرف المصدر الذي اعتمد عليه نيتشه في نسبته هذه العبارة لهم)

وحدة الوجود

من يؤمنون بوحدة الوجود لا يؤمنون بأن المخلوقات مختلفة عن الإله الخالق، بل يقولون أن الكون المخلوق هو نفسه الإله، وأن هناك حالة "اتحاد" بينهما.. ولهذا يطلق عليهم اسمه فرقة "الاتحادية".
وهذه العقيدة معروفة قديما باسم الـ Pantheism ، أي" الكل هو الإله".
ونتج عنها أنها يعتقدون بألوهية كل شيء، حتى الصخور والأشجار، وخصوصا الإنسان.
وتفرعت عنه فرقة أخرى تؤمن بالـ Panentheism ، أي أن "الكل داخل الإله".. ويقولون أننا نعيش "داخل جسد الإله".
وهذه كلها معتقدات وثنية مختلطة بالفلسفات القديمة، ونجدها عند طوائف باطنية كثيرة.

ويقول عبد العزيز الراجحي، (الأستاذ بكلية أصول الدين، قسم العقيدة والمذاهب المعاصرة بجامعة الإمام محمد بن سعود)، هو يتكلم عن عقيدة الاتحادية:
"ومن المعلوم أن هؤلاء كفار، لكن أتينا بقولهم لأن الاتحادية الآن ينسبون إلى الإسلام، بل إنهم يقولون: إنهم هم العارفون، ورئيسهم ابن عربي يقولون عنه: رئيس العارفين.. وهناك من يقدسهم ويعظمهم ويحترمهم ويرى أنهم هم أهل الحق وهم أهل المعرفة الصحيحة!
ولهم مؤلفات تطبع بورق فاخر وتحقق ويدافع عنها، وهي موجودة منتشرة، وإن كانت في غير بلادنا (أي المملكة السعودية)، لكن توجد في مصر وفي غيرها من البلدان"
***
ويرى المسيري أن عقيدة وحدة الوجود ليست مقتصرة على التفكير الصوفي الروحاني فقط، بل هي في الحقيقة لا تختلف كثيرا عن التفكير المادي العلماني الحديث!
فيقول "تذهب وحدة الوجود الروحية إلى أن الإله هو الأصل، والعالم إن هو إلا وهم. وإن كان ثمة عالم فهو جزء من الإله وليس له وجود مستقل"، أي أن هؤلاء الروحانيين يقولون: الإله هو الكون.
وفي نفس الوقت يقول العلمانيون أن القوانين العلمية شاملة، وتسري على كل الأشياء في الكون، ويمكنها تفسير كل الظواهر.. وأن العالم مكتف بذاته، ويحوي داخله ما يكفي لتفسيره، ولا وجود للإله خارجه.
أي أنهم يؤمنون بـ "وحدة وجود مادية" تشبه "وحدة الوجود الروحية"، ويقولون: الكون هو الإله.

ويقول أن "العلمانية الشاملة المادية الحديثة هي فلسفة غنوصية وشكل من أشكال الحلول.
وهكذا، فإن الغنوصية كانت وحدة وجود روحية، وأصبحت عبر مسار التاريخ وحدة وجود مادية"!
"لا يوجد إذن أي فارق بين وحدة الوجود الروحية ووحدة الوجود المادية إلا في التسمية"
"ولا فرق بين أن يقول المرء: لا موجود إلا هو (أي الإله، بالمعنى الحرفي)، أو: لا موجود إلا هي (أي الطبيعة/المادة)"
و"ثمة تماثلا، بل ترادفا، بين وحدة الوجود الروحية ووحدة الوجود المادية. ولذا فإن أية منظومة حلولية كمونية يمكن أن تصبح روحية ثم مادية في فترتين متتاليتين، أو تصبح روحية اسما مادية فعلا في الوقت نفسه.
وعلى المستوى التاريخي يلاحظ أن عمليات العلمنة عادة ما تسبقها مرحلة يسود فيها الفكر الحلولي الكموني الروحي.. ثم يصبح فكرا حلوليا كمونيا ماديا، أي علمانيا، في نهاية الأمر"

ثم يقارن بين مظاهر "عقيدة الحلول" عند الروحانيين والعلمانيين، فيقول أن عند الروحانيين يصبح الولي أو المسيّا (أو الإمام المعصوم) هو الوعاء الذي يتجسد فيه الإله ويحل داخله..
أما عند العلمانيين فإن "الزعيم الملهم" يصبح هو هذا الوعاء.
ويقول أن هناك مستويات أخرى لنفس الفكرة. فيصبح اليهود مثلا هم الوعاء الذي يتجسد فيه الإله من وجهة نظرهم، ويتحولون لشعب مقدس.
أما عند العلمانيين فتصبح فكرة القومية هي المرادف لهذا المعنى، فيظن كل شعب من الشعوب أنه شعب مقدس.
"فالقوميات العلمانية التي تقدس الأرض وحدود الدولة والدولة نفسها هي تعبير عن هذا الشكل من أشكال الحلول"

ويقول "تدور معظم رؤى العالم حول ثلاثة عناصر، هي في الواقع عنصران اثنان: الإله من جهة، والإنسان والطبيعة (أي العالم) من جهة أخرى"
فيؤمن الغنوصيون أنهم في الحقيقة جزء من الإله النوراني، لأن أرواحهم أصلا فاضت منه، ويؤمنون أيضا أن مادة الكون ومادة أجساد البشر هي جزء من صوفيا والديميإرج.
أي أنهم يؤلهون أنفسهم.
ونفس الشيء نراه عند العلمانيين، حيث ينظرون للطبيعة على أنها خلقت نفسها بنفسها، وينظرون للإنسان على أنه كائن له الحق في وضع قوانينه بنفسه، دون أن يخضع لتشريعات الله.
***
نظرية الفيض (أو الصدور) ترتبط بالعقائد الباطنية القائلة أن "الإنسان والكون" انبثقا عن الإله، وليسا مجرد مخلوقات خلقها الإله من العدم.
وتتلخص النظرية في فكرة أن أصل الوجود هو الإله، وأن هذا الإله ليست له صفات، لأنه "يسمو فوق الصفات".. وليس له وجود مادي حقيقي، لأن المادة لم تكن تكونت بعد.
ولهذا يرفضون تماما قبول الآيات القرآنية التي تقول أن الله له صفات، وأن له يد وعين، وأنه مستو على العرش، وأنه تكلم فعلا بصوت مع موسى، وأن القرآن فعلا هو كلام الله الذي تكلم به.
ولهذا السبب اضطروا لجعل كل هذه الآيات مجرد "مجازات"، وقاموا بتأويلها تأويلات مختلفة تماما عما فهمه الرسول والصحابة.
ويقولون أن هذا الإله "يفيض منه" النور ثم يبتعد النور عن المصدر فيتحول بالتدريج لظلمة، وهذه الظلمة هي المادة وهي الكون.

ويقول المسيري: "ذهب بعض الفلاسفة العرب إلى القول بالفيض" لأنهم "وجدوا فيه رؤية تضمر رفضا للعقيدة الإسلامية"
حيث أن العقيدة الإسلامية "تفصل بين الإله والعالم، وتحصر الصلة بينهما في خلق الله لمخلوقاته وفي الوحي المنزل على الرسل والأنبياء"، أما نظرية الفيض فتجعل هناك "صلة عضوية ومباشرة بين الخالق والمخلوق" و"تنكر فكرة الخلق من العدم"
و"تفتح الباب على مصراعيه لتقاليد النبوة المنفتحة التي لا تنتهي، وتناسخ الأرواح"
(أي تعطي للزنادقة مبررا كي يقولوا: نحن أيضا أنبياء مثل محمد، لأن عملية الفيض لم تتوقف، وبالتالي يأتينا وحي وإلهام وتشريعات تساوي ما كان ينزل عليه، بل وتقوم بالتعديل عليه أيضا)
***
ظهرت فكرة "تأليه الإنسان" في كثير من الفلسفات والطوائف.
أحيانا تكون صريحة وأحيانا مبطنة.
فالعلمانية والإلحاد هما في الحقيقة محاولة لترسيخ فكرة أن الإنسان "إله نفسه"، ولا يجب

عليه طاعة الشرائع التي أنزلها الله على الرسل.
والفيلسوف نيتشه اشتهر بفلسفته التي تقول: على الإنسان الحديث أن ينسى القيم الدينية التي سادت في الماضي، وعليه أن يتطور وأن يصبح "سوبر إنسان" Übermensch
وقال أيضا أن الإيمان بالله قد مات فعليا في المجتمعات الغربية. وأنه يجب إيجاد بديل للدين، كي لا يبقى الناس بلا قيم مجتمعية، وكي لا يتحول المجتمع لفوضى.
وقال أن الإنسان الجديد عليه أن يكون متحررا من الأعراف السابقة، وأن يسمو فوقها، وأن يتجاوز الفكرة الدينية القائلة بوجود "خير وشر".
وقد شرح هذه الفلسفة في كتبه: "هكذا تكلم زرادشت"، و "ما بعد الخير والشر".

ونرى فكرة تأليه الإنسان عند الغنوصية وأتباع القبالا وغلاة الصوفية.. حيث يريدون أن "يتحدوا بالإله" وأن يندمجوا فيه، وأن يصل بهم العشق الإلهي إلى "الذوبان" في الإله، والاتصال به مباشرة.
وفي الفكر المسيحي صورة مخففة من هذه الفكرة، حيث تؤمن الكنيسة أن الإله تجسد وأصبح إنسانا، فما الذي يمنع أن الإنسان بعد الموت سيصبح نورانيا مثل الإله؟
ويقول أحد التفاسير المسيحية: "نزل الله إلينا لكي يرفعنا إليه. صار إنسانا ليصير الإنسان إلها"

***

ومذهب الأنسنة Humanism المنتشر حاليا في الغرب يقول أن الإنسان هو أهم شيء، أما الإله فمجرد فكرة ولا يجب أن نضيع وقتنا في الانشغال بها.
ويقول أحدهم: "لحظة التحول التاريخية ستأتي عندما يدرك الإنسان أنه لا إله للإنسان إلا الإنسان نفسه"
ويتخذون لأنفسهم شعارا يقول: Good without a God
(أي أنهم يعرفون الخير ويفعلونه دون الحاجة للإيمان بإله)

ابن عربي

يقول ول ديورانت في قصة الحضارة:
"وقد صيغت نظريات الصوفية في المائة والخمسين كتاب التي ألفها محي الدين بن العربي (1165 – 1240)، وهو مسلم أندلسي أقام في دمشق. ومن أقواله أن العالم لم يخلق قط، لأنه هو المظهر الخارجي لما هو في حقيقته الداخلية الله نفسه.
وأن التاريخ هو عملية تطور تطرأ على الإله الذي يسعى لـ إدراك ذاته.. وقد نجح أخيرا في تحقيق هذا، في الإنسان"
(وهذه الجملة الأخيرة محذوفة من الترجمة العربية، والتي قام بها محمد بدران، لكنها موجودة في الأصل الإنجليزي
History is the development of God to self-consciousness, which He achieves at last in man)
Will Durant, The Story of Civilization IV, chapter 14, p 333
(وانظر
Dictionary of Gnosis & Western Esotericism, Editor Wouter J. Hanegraaff, p 1149-1150
عن فكرة مشابهة عند طائفة فالنتينوس الغنوصية
Thus the material cosmos... is an unavoidable station on the way of the divine to itself, i.e. to the actualized knowledge of its highest cause)

***

ويقول عبد العزيز الراجحي:
"من أمثلة شرك التعطيل: شرك أهل وحدة الوجود، ورئيسهم ابن عربي. حيث يقولون: الوجود واحد، والرب هو العبد والعبد هو الرب، والخالق هو المخلوق، والمخلوق هو الخالق"
ولابن عربي كتاب ضخم، شهير بين الصوفية، اسمه الفتوحات المكية. ومما يقول فيه:
"من قال من رجال الله أنا الله فاعذروه"
وكان يعتبر نفسه وليا من الأولياء، بل "خاتم الأولياء".. وقال أنه يتلقى المعرفة من الله مباشرة.
وكان من المؤمنين بالعقيدة الباطنية المسماة "وحدة الأديان"، والتي تقول أن كل الأديان هي في حقيقتها دين واحد.. وأن المظاهر مختلفة لكن "البواطن" واحدة.
ولـ نصر حامد أبو زيد كتاب عن ابن عربي، عنوانه: "هكذا تكلم ابن عربي"، طبعته مكتبة الأسرة سنة 2015، يقول فيه:
"كانت أبياته الشعرية عن "دين الحب" الذي يتسع لكل العقائد - من الوثنية إلى الإسلام محتضنا اليهودية والمسيحية معا على وجه الخصوص - تتردد دائما في سمعي... هذا المشروع الذي صاغه ابن عربي صياغة شعرية باسم "دين الحب" يجمع بين الدير والكعبة وبيت الأوثان ومرعى الغزلان. فقلب العارف يتسع لكل هذه الصور من العبادات والشعائر، ويؤمن بكل هذه المعتقدات، لأنه يعرف الأصل الوجودي الذي تستند إليه جميعها"
وتكلم فيه أيضا عن "اكتسابه المعرفة والعلم بطريق الفيض المباشر من الله، لا عن طريق التعلم وقراءة الكتب"

ويقارن ابن عربي نفسه بالرسول . فهناك حديث صحيح موجود في البخاري يقول:
"مثلي ومثل الأنبياء من قبلي، كمثل رجل بنى بيتا فأحسنه وأجمله، إلا موضع لبنة من زاوية. فجعل الناس يطوفون به، ويعجبون له، ويقولون هلا وضعت هذه اللبنة؟ قال: فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين"
أما ابن عربي فقد قال في الفتوحات المكية:
"كنت بمكة سنة تسع وتسعين وخمسمائة أرى فيما يرى النائم الكعبة مبنية بلبن فضة

وذهب، لبنة فضة ولبنة ذهب، وقد كملت بالبناء وما بقي فيها شيء، وأنا أنظر إليها وإلى حسنها.
فالتفت إلى الوجه الذي بين الركن اليماني والشامي هو إلى الركن الشامي أقرب فوجدت موضع لبنتين لبنة فضة ولبنة ذهب ينقص من الحائط، في الصف الأعلى ينقص لبنة ذهب وفي الصف الذي يليه ينقص لبنة فضة.
فرأيت نفسي قد انطبعت في موضع تلك اللبنتين فكنت أنا عين اللبنتين، وكمل الحائط ولم يبق في الكعبة شيء ينقص. وأنا واقف أنظر وأعلم أني واقف وأعلم أني اللبنتين لا أشك في ذلك. واستيقظت فشكرت الله تعالى وقلت متأولا أني في الأتباع في صنفي كرسول الله في الأنبياء عليهم السلام، وعسى أن أكون من ختم الله الولاية بي وما ذلك على الله بعزيز"
ويقول في كتابه الآخر، فصوص الحكم:
"وأما خاتم الأولياء فلا بد له من هذه الرؤيا...
والسبب الموجب لكونه رآها لبنتين، أنه تابع لشرع خاتم الرسل في الظاهر: وهو موضع اللبنة الفضة، وهو ظاهره وما يتبعه فيه من الأحكام..
كما هو آخذ عن الله في السر... وهو موضع اللبنة الذهبية في الباطن.
فإنه أخذ من المعدن الذي يأخذ منه الملَك الذي يوحي به إلى الرسول"
(أي يزعم أنه يتلقى من الله مباشرة، على عكس الرسول الذي كان يتلقى بواسطة جبريل!)
ويقول أيضا: "وإن كان خاتم الأولياء تابعا في الحكم لما جاء به خاتم الرسل من التشريع، فذلك لا يقدح في مقامه و لا يناقض ما ذهبنا إليه. فإنه من وجه يكون أنزل كما أنه من وجه يكون أعلى"
(أي أن ابن عربي في الظاهر يلتزم بالشريعة المحمدية ويقتدي بالرسول، لكنه في الباطن ليس تابعا للرسول، بل أعلى منه في المنزلة!)

وقد ذكر برهان الدين البقاعي ما قيل في ابن عربي، ومن ضمن ما قيل فيه أنه "كان كذابا حشاشا كأوغاد الأوباش"

***

يذكر ابن كثير أن من أسباب تعرض ابن تيمية للاضطهاد في زمنه هو أنه تكلم ضد كتابات ابن عربي:
"راح الشيخ تقي الدين ابن تيمية إلى مسجد النارنج، وأمر أصحابه ومعهم حجّارون بقطع صخرة كانت هناك بنهر قلوط، تُزار ويُنذر لها، فقطعها، وأراح المسلمين منها ومن الشرك بها، فأزاح عن المسلمين شبهة كان شرها عظيما.
وبهذا وأمثاله حسدوه وأبرزوا له العداوة.. وكذلك بكلامه في ابن عربي وأتباعه، فحُسد على ذلك وعودي. ومع هذا لم تأخذه في الله لومة لائم، ولا بالى، ولم يصلوا إليه بمكروه، وأكثر ما نالوا منه الحبس، مع أنه لم ينقطع في بحث لا بمصر ولا بالشام، ولم يتوجه لهم عليه ما يشين، وإنما أخذوه وحبسوه بالجاه"

***

وقد نقل كتاب "مصرع التصوف" عن تفسير ابن النقّاش أنه قال:
"وحدة الوجود هو مذهب الملحدين كابن عربي وابن سبعين وابن الفارض، ممن يجعل الوجود الخالق هو الوجود المخلوق...
وأنقص المراتب عند هؤلاء هي مرتبة أهل الشريعة...
وهم متألهون للخيال، معظمون له، ولا سيما ابن عربي منهم، ويسميه: أرض الحقيقة"
فقد كان ابن عربي يؤمن بوجود عالم خيالي/حقيقي يمكن ولوجه أثناء الأحلام، وفي حالات "الكشف" الروحاني، ويقول أنه أرض الحقيقة لا أرض الخيال.
ويقول عنه "كل حديث وآية وردت عندنا مما صرفها العقل عن ظاهرها وجدناها على

ظاهرها في هذه الأرض... وكل صورة يرى الإنسان فيها نفسه في النوم فمن أجساد هذه الأرض"
ويقول ابن تيمية أن "طائفة من فلاسفة الصوفية، كابن عربي، يسمي هذا أرض الحقيقة، ويذكر فيه من العوالم وأنواعها وأقدارها ما يطول وصفه"
وربما كانت هذه الخيالات التي كان يراها ابن عربي سببها ما يتعاطاه من مواد مخدرة.
(وفكرة "أرض الحقيقة/الخيال" موجودة اليوم عند بعض الباطنية الغربيين، كمؤلف الروايات المصورة Alan Moore ، ويسميها: ساحة الأفكار Idea Space.. وهي أحد موضوعات روايته: Promethea، وفيها تتحول كل الشخصيات الأدبية التي تخيلها الفنانون عبر التاريخ إلى شخصيات حقيقية)

صوفية

تقول الموسوعة البريطانية المختصرة، في مادة Mysticism:
"الباطنية: سعي روحاني نحو الاتحاد بالألوهية. موجود نماذج منها بكل الديانات الكبرى.
الهندوسية، بهدفها المعروف، ذوبان الروح داخل "الكل المطلق"، ميالة بطبيعتها للاتجاه الباطني.
والبوذية تحث على جلسات التأمل للوصول لحالة النرفانا.
في الإسلام، الصوفية تستخدم استعارات النشوة المسكرة والحب بين المرأة ورجلها للتعبير عن الرغبة في الاتحاد بالإله.
في اليهودية، أسس الباطنية تم وضعها في رؤى الأنبياء المذكورة في التوراة، ثم تم تطويرها فيما بعد في القبّالا.
في المسيحية ظهرت الباطنية بشكل متقطع، كما عند القديس أغسطين، ثم في القرن الـ 14"

***

يقول ابن تيمية أن المجانين والمجاذيب ليسوا بالضرورة أصحاب مراتب إيمانية عالية كما يظن بعض الناس.
فـ "زوال العقل بجنون أو غيره، سواء سُمي صاحبه مولها أو متولها، لا يوجب مزيد حال صاحبه من الإيمان والتقوى"
"وأما إن كان زوال عقله بسبب محرم: كشرب الخمر وأكل الحشيشة، أو كان يحضر السماع الملحن فيستمع حتى يغيب عقله، أو الذي يتعبد بعبادات بدعية حتى يقترن به بعض الشياطين فيغيروا عقله، أو يأكل "بنجا" يزيل عقله.. فهؤلاء يستحقون الذم والعقاب على ما أزالوا به العقول.
وكثير من هؤلاء يستجلب الحال الشيطاني بأن يفعل ما يحبه.. فيرقص رقصا عظيما حتى يغيب عقله أو يغط ويخور حتى يجيئه الحال الشيطاني. وكثير من هؤلاء يقصد التوله حتى يصير مولها. فهؤلاء كلهم من حزب الشيطان"

وهذه التصرفات نراها عند بعض الصوفية، ويظنون أنهم بهذه الأساليب يصلون لحالة من "الوجد" والعشق الإلهي و"التسامي".. مع أن ما يحدث في الحقيقة هو غياب مؤقت للعقل، واستسلام للتهيؤات الذهنية والهلاوس.
بل ويقول ابن تيمية أن هذه الأحوال تجعل تأثير الشياطين عليهم أكبر.

***

تكلم البيروني عن فلاسفة الإغريق في كتابه الشهير، تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة، فقال أن بعضهم كان يعتقد أن العالم عبارة عن خيال، وأن الحقيقي الوحيد هو الإله النوراني. وقال أنهم هؤلاء يسمون:
"السوفية، وهم الحكماء. فإن (سوف) باليونانية تعني الحكمة، وبها سمى الفيلسوف (بيلاسوبا) أي: محب الحكمة. ولما ذهب في الإسلام قوم إلى قريب من رأيهم سموا باسمهم.. ولم يعرف اللقب بعضهم فنسبهم للتوكل إلى "الصُفّة" وأنهم أصحابها في عصر النبي ، ثم صُحِّف بعد ذلك فصار من صوف التيوس"
أي أنه يقول أن كلمة "الصوفية" ليست مشتقة من الصحابة الفقراء الذين كانوا يعرفون باسم أهل الصُفة، وليس مشتقا من لبس الزهاد للصوف كما يظن كثير من الناس، بل مشتق من كلمة "صوفيا" اليونانية، والتي تعني: الحكمة.. والتي منها جاءت كلمة فيلسوف.
(وهذا الرأي مذكور أيضا في دراسة اسمها: الإنسان الكامل في الفكر الصوفي، للـ د/ لطف الله بن عبد العظيم خوجه)

ويقول ول ديورانت عن البيروني:

"كان البيروني (973 - 1048م) فيلسوفا، ومؤرخا، ورحالة، وجغرافيا، ولغويا، ورياضيا، وفلكيا، وشاعرا، وعالما في الطبيعيات. وكانت له مؤلفات كبيرة وبحوث عظيمة مبتكرة في كل ميدان من هذه الميادين...
وأدرك ما بين تصوف الفدانتا، والصوفية، والفيثاغورية الحديثة، والأفلاطونية الحديثة من تشابه"

الخيمياء

علم الكيمياء يسمى Chemistry، أما الخيمياء فتسمى Alchemy
وقديما لم يكن هناك فصل واضح بين الاثنين، فكان الخيميائيون يجرون تجارب عشوائية على كل ما توفر لهم من مواد، على أمل أن يعثروا على مادة تحقق حلمهم الشهير: تحويل المعادن الرخيصة إلى ذهب.
واستمروا في السعي وراء هذا الحلم قرونا طويلة، إلى أن اقتنع البشر أخيرا بعبثية الموضوع.
لكن يمكن أن يقال أن التجارب الخيميائية العشوائية، على الرغم من فشلها في تحقيق هدفها، كانت مفيدة في وضع أسس علم الكيمياء التجريبي الذي جاء فيما بعد.
***
هناك عدة أسباب وراء فشل الخيمياء، أهمها هو أن النظريات العلمية التي كانت تقوم عليها الخيمياء كانت خاطئة من الأساس. فالعناصر لا يمكن أن تتحول لعناصر أخرى بمجرد تفاعلات كيميائية بسيطة!
لا يمكن أن أضع الكربون على النار فيتحول لحديد أو نحاس. أما الكيمياء فتتعامل مع "المركّبات"، أي التي تتركب من عنصرين أو أكثر.. فنضع أكسجين على الحديد فيتحول لأكسيد حديد مثلا، لكن لن يتحول الحديد نفسه إلى أكسجين.

لكن نظريا يمكن تحويل عنصر إلى آخر، في حالات خاصة.. إن وضعناه في مفاعل نووي مثلا.
ففي هذه الحالة يمكن تحويل معدن الرصاص الرخيص إلى معدن الذهب الغالي، لكن باستهلاك كمية طاقة هائلة ستكلفنا أضعاف ثمن الذهب الناتج!
(بالإضافة إلى أن الذهب الناتج يكون عبارة عن عدد محدود من الذرات، لا كميات هائلة لها فائدة اقتصادية. بل ويكون في الغالب ذهبا مشعا أيضا، أي لا يصلح للاستخدام)
والحالة الأخرى التي يمكن فيها تحويل عنصر إلى آخر، ودون استخدام مفاعل نووي، هي أن يكون العنصر من العناصر التي تنحل في الطبيعة إلى عنصر آخر. وهذه العناصر تستغرق في العادة آلاف السنين كي تتم عملية التحول، حسب فترة عمر النصف.

فلو كان الخيميائيون القدماء على معرفة بهذه المعلومات لما أضاعوا أعمارهم سعيا وراء سراب لا فائدة منه.
***
كانت النظرية العلمية السائدة عند القدماء هي أن كل المواد تتكون من أربعة عناصر أساسية، بنسب متفاوتة:
النار – الماء – الهواء – التراب
وأنه بالتلاعب بهذه النسب يمكن تحويل أي مادة إلى مادة أخرى.

🜂 🜄 🜁 🜃

نار ماء هواء تراب

وأضافوا أيضا نظرية تقول أن الذهب هو أفضل المعادن لأنه "أكثرها نضوجا ونقاء".. أي أن المعادن الأخرى تكونت في الطبيعة لأنها فشلت في الحصول على ظروف بيئية تجعلها ناضجة. وبالتالي استنتجوا أنه بعد "إنضاج" أي مادة فإنها ستتحول في النهاية إلى ذهب.
وقالوا أن عملية الإنضاج تحدث في الطبيعة، لكن ببطء، لهذا يجب على الخيميائيين البحث عن طريقة تقوم بتسريع هذه العملية.. وهذه الطريقة هي تصنيع مادة شبه سحرية، أسموها "حجر الفلاسفة"، تقوم بعملية الإنضاج والتحويل.

ادعى عدة خيميائيين أنهم استطاعوا تصنيع حجر الفلاسفة، لكن اتضح للناس كذبهم.
ما استطاع الخيميائيون أن يحققوه فعلا هو صبغ النحاس بالذهب ثم الإسراع بإنفاقه قبل أن يكتشف الباعة عملية النصب.
وبعض الخيميائيين استطاعوا مزج الذهب مع معادن أخرى في سبيكة، لكن سرعان ما كان ينكشف الأمر عندما يظهر الصدأ على العملة المسبوكة. فالذهب كما هو معروف لا يظهر عليه الصدأ.

***

من المصطلحات التي كان يستخدمها الخيميائيون: الإكسير.
وله معنيان. ففي الكتب العربية كان يستخدم غالبا للإشارة لـ "خلاصة المعدن" أو جوهره.
أما في كتب الخيمياء الأوروبية فكان يعني المادة التي تطيل العمر وتشفي من كل الأمراض وتحافظ على الشباب، (أي إكسير للخلود Elixir)
كان الخيميائيون يريدون استخلاص "جرعة مركزة" من الذهب، بحيث يضعونها على كمية هائلة من النحاس مثلا فيتحول النحاس لذهب.
ويشرح ابن خلدون هذا المصطلح الخيميائي فيقول: "الإكسير للأجسام المعدنية كالخميرة، تقلب المعدن الذي تسري فيه إلى نفسها، بالإحالة"
ويقول ابن عربي: "الإكسير سلطان يقلب الأعيان، حكمه حكم الزمان لكنه أسرع في الحدثان"
أي مادة تقوم بتحويل المواد، وتسرع من عملية "الإنضاج".
ويقول الرازي المفسر: "الإكسير إذا وقعت منه ذرة على الجسم النحاسي انقلب ذهبا باقيا على كر الدهور والأزمان"

ويقول ول ديورانت في موسوعة قصة الحضارة:
"كان الهدف الذي يسعى له الخيميائيون هو أن يحولوا المعادن الخسيسة (كالحديد، أو النحاس، أو الرصاص، أو القصدير) إلى فضة أو ذهب. وكان حجر الفلاسفة هو مادة يبحثون عنها ولا يصلون إليها، إذا عولجت بها تلك المعادن العلاج الصحيح حدث فيها التغير المطلوب. وكان الدم، والشعر، والبراز، وغيرها من المواد، تعالج بكواشف متنوعة، وتعرض لعمليات التكليس والتصعيد، وللضوء والنار، علها أن يكون فيها ذلك الإكسير السحري.
وكان الاعتقاد السائد أن الذي يحصل على هذا الإكسير سيستطيع، إذا شاء، أن يطيل حياته.
وكان أشهر الخيميائيين المسلمين هو جابر بن حيان"
ويقول عن نيوتن:
"اهتم بالرياضيات، والبصريات، والفلك، والتنجيم. وقد احتفظ بميله لدراسة التنجيم إلى فترة متأخرة من حياته"، و"قام بالكثير من التجارب، لا سيما في الخيمياء. وهدفه الأكبر تحويل المعادن، ولكنه اهتم أيضا بإكسير الحياة وحجر الفلاسفة"
(وأوراق نيوتن الخيميائية محفوظة اليوم بمتحف في إسرائيل)

***

يقول ابن تيمية:
"الناس إذا علموا أن الذهب والفضة من الكيمياء لم يشتروه. بل القلوب مفطورة على إنكار ذلك. والولاة ينكرون على من يجدونه يعمل ذلك"
فعامة الناس وقتها كانوا يدركون أن الذهب المصنوع بالطرق الخيميائية ليس ذهبا فعليا، بل وسيلة للغش والاحتيال. ولهذا كانوا يرفضون التعامل به إن اكتشفوا حقيقته، ويقتصرون على التعامل بالذهب الطبيعي.
وتختلف مهارة الخيميائيين. فمنهم من يستطيع تصنيع ذهب مزيف لكن لا يتحول لونه ولا يتغير إلا بعد مدة طويلة، ومنهم من يكون ذهبه مفضوحا من البداية.
"منها ما يستحيل بعد بضع سنين، ومنها ما يستحيل بعد ذلك. لكن المصنوع يستحيل ويفسد

ولو بعد حين، بخلاف الذهب المعدني المخلوق فإنه لا يفسد ولا يستحيل.
ولهذا ذكروا أن محمد بن زكريا الرازي المتطبب - وكان من المصححين للكيمياء - عمل ذهبا وباعه للنصارى.. فلما وصلوا إلى بلادهم استحال. فردوه عليه"

ويلخص ابن تيمية الردود على الخيميائيين، فيقول:
"من زعم من الكيماوية أن الفضة ذهب لم يستكمل نضجه فقد كذب. بل لهذا معدن ولهذا معدن"
"أصل المخلوقات التي خلقها الله لا يمكن للبشر أن يصنعوا مثلها"
وقال ابن كثير: "الكيمياء تخييل وصبغة، لا تحيل الحقائق، ولا تشابه صنعة الخالق"

وحاول البعض الفلاسفة استخدام القياس المنطقي للرد على الخيميائيين، فقال:
"لو كان الذهب الصناعي مثلا للذهب الطبيعي، لكان ما بالصناعة مثلا لما بالطبيعة.
ولو جاز ذلك، لجاز أن يكون ما بالطبيعة مثلا لما بالصناعة، فكنا نجد سيفا، أو سريرا، أو خاتما بالطبيعة، وذلك باطل"
أي لو أن ما يصنعه الخيميائيون هو ذهب حقيقي فعلا، مطابق للذهب الطبيعي، إذن فالتصنيع يمكنه إنتاج نفس الأشياء الموجودة في الطبيعة. وقياسا على ذلك فإن الطبيعة يمكنها أيضا إنتاج نفس الأشياء التي ينتجها التصنيع البشري.. ولو صح هذا لكنا وجدنا سيوفا جاهزة ملقاة في الطبيعة، وهذا لا يحدث!
(وهذا مثال على طريقة الفلاسفة والمناطقة القدماء في الرد، منقول من كتاب كشف الظنون لـ حاجي خليفة)

أما ابن خلدون فرد على الخيميائيين باستخدام علم الاقتصاد، فقال:
"حكمة الله تعالى في الحجرين وندرتهما أنهما عمدتا مكاسب الناس ومتمولاتهم. فلو حصل عليها بالصنعة لبطلت حكمة الله تعالى في ذلك، إذ يكثر وجودهما حتى لا يحصل أحد من اقتنائهما على شيء"
أي أن قيمة الذهب والفضة هي في ندرة وجودهما وفي صعوبة الحصول عليهما. فإن كان تصنيعهما ممكنا لأغرقا السوق وبالتالي أدى هذا التضخم إلى انخفاض قيمتهما بحيث يصيران بلا قيمة.

وقد حاول أحد الخيميائيين الرد على هذه الهجمات، ويسمى الطغرائي، فقال:
"إذا كنا قد عثرنا على تخليق بعض الحيوانات مثل العقرب من التراب والتبن، والحية من الشعر، وغير ذلك، فما المانع من العثور على مثل ذلك في المعادن"
أي أنه يستخدم نظرية خاطئة في علم الأحياء القديم ثم يقيس عليها موضوع الخيمياء.
فيقول أنه من المعروف بالتجربة أن العقارب تتولد تلقائيا من التراب، وأن الثعابين تتولد تلقائيا من الشعر الميت، فيمكن أن يتولد الذهب أيضا من مواد معدنية أخرى!
ولم يكن يعلم وقتها أن نظرية التولد التلقائي خاطئة، وأن الديدان التي تظهر مثلا داخل الثمرات الفاسدة لم تتولد تلقائيا، بل كانت عبارة عن بيض ميكروسكوبي وضعته حشرة وقفت على الثمرة، ثم فقس البيض وخرجت منه الديدان.

***

يقول حاجي خليفة أن أحد الأشخاص كان قد شغل نفسه بالخيمياء، فأفنى بذلك عمره، ثم كتب على مخطوطة كتاب من كتب جابر من حيان الخيميائية:
هذا الذي بمقاله .. غرّ الأوائل والأواخر
ما أنت إلا كاسر .. كذب الذي سماك "جابر"

أما ابن أبي أصيبعة، في كتابه "عيون الأنباء في طبقات الأطباء"، فينقل سيرة ذاتية كتبها

ابن اللباد، ويحكي فيها ابن اللباد رحلته مع الخيمياء، أو "علم الصنعة" كما كان يقال عنها:
"وجدت بدمشق الشيخ عبد الله بن نائلي... وصار يتكلم في الكيمياء والفلسفة، وكثر التشنيع عليه... وكاشفته، فلم أجده كما كان في نفسي، فساء ظني به وبطريقه. ثم باحثته في العلوم فوجدت عنده منها أطرافا نزرة..
فقلت له يوما: لو صرفت زمانك الذي ضيعته في طلب الصنعة إلى بعض العلوم الشرعية أو العقلية كنت اليوم فريد عصرك.
ثم اعتبرت بحاله وانزجرت بسوء مآله. والسعيد من وُعظ بغيره"
وقال أيضا:
"وشاع أن صلاح الدين هادن الفرنج وعاد إلى القدس. فقادتني الضرورة إلى التوجه إليه، فأخذت من كتب القدماء ما أمكنني وتوجهت إلى القدس، فرأيته ملكا عظيما يملأ العين روعة والقلوب محبة...
فكتب لي صلاح الدين بثلاثين دينارا في كل شهر على ديوان الجامع، وأطلق أولاده رواتب حتى تقرر لي في كل شهر مائة دينار . ورجعت إلى دمشق وأكببت على الاشتغال وإقراء الناس بالجامع.
وكلما أمعنت في كتب القدماء ازددت فيها رغبة وفي كتب ابن سينا زهادة. وأطلعت على بطلان الكيمياء، وعرفت حقيقة الحال في وضعها، ومن وضعها وتكذّب بها، وما كان قصده في ذلك.
وخلصت من ضلالين عظيمين موبقين.
وتضاعف شكري لله سبحانه على ذلك، فإن أكثر الناس إنما هلكوا بكتب ابن سينا وبالكيمياء"

***

أحيانا كان الخيميائيون يكتبون محاولاتهم برموز وألغاز، كي لا يفهمها عامة الناس.
فيتحدثون في فقرة عن الشمس مثلا، في حين أنهم يقصدون معدن الذهب، أو يتكلمون عن "تطهير النفس من الذنوب" في حين أنهم في الحقيقة يقصدون تسخين الحديد على النار كي تتم تنقيته من الشوائب.
وقد أدى هذا لغموض كثير من كتاباتهم.
لكن هناك نصوص أخرى تستخدم نفس هذه المصطلحات وتقصدها فعلا، ولا تتكلم عن الخيمياء الكيماوية بل عن العقائد الباطنية والغنوصية.
وأحيانا كانت هذه النصوص الباطنية تتعمد استخدام أساليب الخيميائيين، كي تتحاشى غضب الكنيسة.
وبالتالي اختلطت هذه الكتب مع الكتب الخيميائية، خصوصا في أوروبا في "عصر النهضة"، فأصبح القارئ لا يدري هل المكتوب هو رموز عن الخيمياء أم رموز لمعتقدات باطنية.
فيقول إليفاس ليفي Eliphas Levi في كتابه "عقيدة وطقس السحر الأعلى"، فصل العِرافة Divination:
"تحويل المعادن هو رمز وحقيقة في نفس الوقت"
فعندما يتحدث بعض الباطنية عن تحويل المعادن الرخيصة إلى ذهب فإنهم يقصدون: السعي لتأليه الإنسان والارتقاء إلى مرتبة الألوهية.
وعندما يستخدمون ألفاظا مثل: نيجريدو Nigredo "أسود"، ألبيدو Albedo "أبيض"، روبيدو Rubedo "أحمر"، فإنهم لا يقصدون المراحل الخيميائية الثلاث المعروفة: الحرق والتعفن ثم التنقية والغسل ثم الوصول لحجر الفلاسفة الأحمر..
بل مراحل نفسية يريد الباطني أن يمر بها. فيحترق في كآبة سوداوية، ثم يتطهر في نقاء نفسي أبيض، ثم يصل لمرحلة الاندماج بالإله والتحرر من الطبيعة البشرية المادية.

***

حاول البعض استخدام نظرية العناصر الأربعة (نار، ماء، هواء، تراب) لتفسير قصة آدم مع إبليس.

فالشيطان كان يرى أنه أشرف من آدم ولا يجوز أن يسجد له، لأنه مخلوق من نار أما آدم فمن طين.
و"**النار**" تحترق في "**الهواء**"، أما الطين فهو عبارة عن "**تراب**" و"**ماء**".
فيقول ابن عربي:
"فإن النار أرفع الأركان مكانا، ولها سلطان على إحالة الأشياء التي تقتضيها الطبيعة".. أي أن النار هي أعلى العناصر الأربعة، ولها قدرة على تحويل وتغيير المواد، بالحرق أو التسخين.
أما الحقيقة فهي أن التفضيل يكون بالتقوى وبطاعة الله، لا بمجرد العنصر الذي تكوّن منه المخلوق.

التنجيم

علم الفلك يسمى Astronomy، أما التنجيم فيسمى Astrology
وقديما لم يكن هناك فصل واضح بين الاثنين، وساد اعتقاد في أن الكواكب والنجوم تؤثر في طبائع البشر.. بل وعبدها الكثير من الحضارات، وقالوا أنها هي الآلهة التي تحكم الكون.
(فصار كوكب عطارد هو المعبود الإغريقي والروماني هرمس/ميركري، والمريخ هو Mars إله الحروب، والمشترى هو زيوس/جوبيتر، وزحل هو كرونوس، وهكذا..)
ولم يكن الفلك القديم يعرف إلا سبعة أجرام أساسية، وهي:
القمر، عطارد، الزُهَرة، الشمس، المريخ، المشترى، زحل.

♄♃♂☉♀☿☽

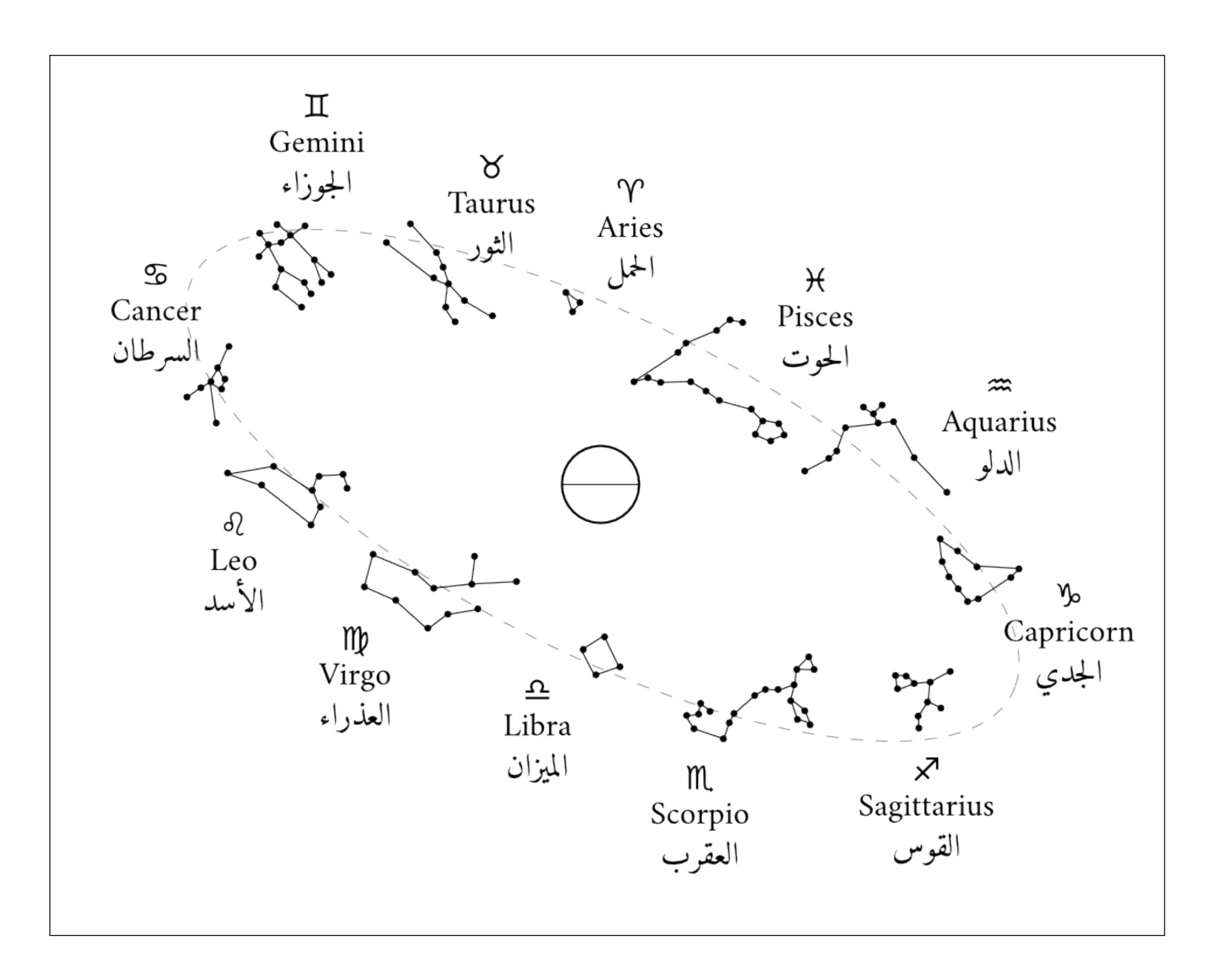
وقد جمعها أحد الشعراء في بيت يقول:
"زحل شرى مريخه من شمسه ... فتزاهرت لعطارد الأقمار"
(في العصر الحديث، عندما اكتشف الفلكيون باقي الكواكب، قرروا الاستمرار في نفس طريقة التسمية القديمة، فاختاروا للكوكب الجديد اسما من الأساطير الوثنية: أورانوس. ثم حدث نفس الشيء مع نبتون وبلوتو)

***

نظر الفلكيون القدماء للنجوم على أنها أجسام تدور في كرة واحدة عملاقة. أما بالنسبة للكواكب فقد اعتبروا أن كل كوكب له كرة منفصلة عن باقي الكواكب.
وقسموا النجوم لمجموعات، فكانت كل مجموعة من النجوم المتقاربة تشكل "كوكبة"..
وأشهر هذه الكوكبات هي كوكبات البروج الـ12، والتي توجد خلف المسار الشمسي.
(فتنتقل الشمس من برج لبرج، على مدار السنة)
وأسماءها العربية مجموعة في بيتين من الشعر:
"حمل الثور جوزة السرطان ... ورعى الليث سنبل الميزان
ورمى عقرب بقوس لجدي ... نزح الدلو بركة الحيتان"
أي: الحَمَل، الثور، الجوزاء، السرطان، الأسد، السنبلة/العذراء، الميزان، العقرب، القوس، الجدي، الدلو، الحوت.

♓♒♑♐♏♎♍♌♋♊♉♈

وهذه البروج تشكل ما يشبه الحلقة المائلة، أو الطوق.. نصفها فوق خط الاستواء ونصفها تحت خط الاستواء، وتمر الشمس عليها بالتدريج.



فتكون الشمس مثلا في برج الحمل في ربيع شهر مارس، لكن في برج السرطان في صيف شهر يونيو، وفي برج الجدي في شتاء شهر ديسمبر..
أو على الأقل كان هذا هو الوضع في عصر من العصور القديمة.. أما اليوم فالوضع مختلف.
فشمس يونيو اليوم لا تكون في برج السرطان، بل في البرج الذي يجاوره: برج الجوزاء.
وأثناء شتاء ديسمبر لا تكون الشمس في برج الجدي، بل في برج القوس.
وسبب هذا الاختلاف هو ظاهرة بطيئة جدا، تحدث على مدار قرون طويلة، وتسمى "مبادرة الاعتدالين".
(في المصطلحات الفلكية فإن الاعتدالين هما نقطتان خلال الربيع والخريف، تكون الشمس فيهما عمودية على خط الاستواء، أما الانقلابان فهما نقطتان في الصيف والشتاء، تكون الشمس عمودية على مدار السرطان الجغرافي ثم مدار الجدي الجغرافي)
فتتغير العلاقة بين الأرض وكوكبات الأبراج، بحيث أن الشمس في بداية الربيع لم تعد في برج الحمل كما كان الوضع في قرون ما قبل الميلاد، بل في برج الحوت.
(هذه التغيرات لا تؤثر على الفصول ولا على الشهور، ولا على حياة الإنسان. فالربيع دائما في شهر مارس. ما يتغير هو النجوم التي تكون في خلفية الشمس)

هذه الحقيقة الفلكية البسيطة تسبب الإحراج للمؤمنين بالأبراج.
فالتواريخ التي يعتمدون عليها هي تواريخ الأبراج القديمة، لا المعاصرة.
فلا زالوا يقولون عن الشخص المولود في أوائل شهر مايو، على سبيل المثال، أنه "تابع لبرج الثور"، في حين أن الشمس فعليا تكون في برج الحمل!

***

وجود الشمس ساعة ولادة الإنسان في كوكبة معينة من كوكبات البروج لا يعني أنه سيكون خلال حياته ذكيا أو حاد الطباع أو رقيق المشاعر!
فما هذا إلا بقايا من الديانات الوثنية التي كانت تقدس الشمس.
ونفس الشيء في مبادرة الاعتدالين. فوجود الشمس في الربيع في برج الحمل، خلال

قرون ما قبل الميلاد، لا يعني أن ذلك العصر كان مرتبطا بالكباش..
ووجودها خلال قرون ما بعد الميلاد في برج الحوت لا يعني أن العصر مرتبط رمزيا بالأسماك.
ووجودها في الفترة القادمة في برج الدلو لا يعني – كما يظن أتباع ديانات الـ New Age الباطنية – أننا سندخل "عصر الدلو Age of Aquarius".
(وللدكتورة السعودية "فوز كردي" أبحاث علمية قيمة عن الصلة بين "حركة العصر الجديد" والعقائد الباطنية والغنوصية)

خاتمة

مع نهاية هذا الكتاب أصبح واضحا أمام القارئ أنه كتاب يسعى لتحقيق هدفين، لا هدف واحد.
ففصوله تتحدث عن فرق دينية متفرقة، وتدرس تاريخها ومعتقداتها.. لكنها في الوقت ذاته تركز على إظهار الخط الرابط بين هذه الفرق، و"التفكير الباطني" المشترك بينها.
وقد كان هذا الكتاب نتاج عملية قراءة وبحث استمرت لفترة طويلة، هضم المؤلف خلالها كل ما استطاع هضمه من مصادر معرفية ذات صلة بالموضوع، وتابع آخر ما وصل إليه المتخصصون، ثم اختار من هذا كله الحقائق التي ليست محل شك، وصاغ النتيجة في شكل خلاصات معرفية واضحة ودقيقة قدر الإمكان.

ولا أخفي أن هذا الجهد كان محاولة للتمرد على ما رأيته من أساليب الكتابة في الكتب العربية الصادرة في السنوات الماضية.
فمؤخرا ازدادت قناعتي أن أحد أسباب عزوف الشباب العربي عن القراءة هو ما يرونه من وضع مؤسف للكتب العربية.. بما فيها من عدم التزام بالدقة، ومن أساليب وعظية وإنشائية غير مناسبة للعصر، ومن مط وتطويل دون تحقيق فائدة فعلية (سوى إشباع شهوة المؤلف في أن يدبج المقالات ويسوّد الصفحات!)
فأحيانا أقرأ للمؤلف الفقرة تلو الفقرة ثم لا أجده قال فيها شيئا. مجرد جمل مرصوصة جوار بعضها البعض، كان يمكن اختزالها في كلمة أو كلمتين.
وبالإضافة لما سبق، فقد سادت بين هؤلاء المؤلفين ظاهرة التكرار. كلهم يتكلم في نفس الموضوع وبنفس الكلمات، ولا جديد.
إن تكلموا عن اليهود قالوا نفس "الكليشيهات" المحفوظة، ونقلوا نفس الفقرات المعتادة، دون أن يكلفوا أنفسهم عناء العودة للمصادر الأصلية.
فأصبحت كتبهم مجرد نسخة عن نسخة عن نسخة.
وأظن لو أنك من المهتمين بالقراءة في موضوع اليهودية على سبيل المثال فقد وجدت في هذا الكتاب اقتباسات من التلمود والزوهار لم يذكرها مؤلف أي كتاب عربي! مع أن النصوص والمصادر موجودة ومتاحة، لو كانوا يعلمون أو يبحثون.
أما الكتابة في الغرب فأساليبها مختلفة تماما. ولهذا فلا عجب أن المواطن الغربي يستمتع بالقراءة، أما المواطن العربي فيراها مصدرا للإملال.
***
الفصول في هذا الكتاب هي "خلاصات".. فليست مقالات، ولا أبحاثا أكاديمية أو دراسات.
ولا تسعى لأن تقترح نظرية، ولا أن تجادل القارئ لإقناعه برأي معين.
بل تعرض أمامه المعلومات، بأمانة ودقة قدر الإمكان.
فهذه هي نوعية الكتب التي أريد أن أقرأها، وقلما أجدها في الكتب العربية الحديثة.
إننا أمة متأخرة معرفيا.. ومع ذلك نريد أن نصل لأعلى درجات السلم دون المرور على الدرجات الأولى!
نريد أن "نخترع" دون أن نضطر لتقضية سنوات في بحث مسألة علمية، ونريد أن نكتب بأسلوب "ما بعد الحداثة" في حين أننا لا نفهم الكتب الكلاسيكية أصلا، وأن نصبح روائيين لمجرد أننا قرأنا "رجل المستحيل" وميكي، وأن نعدل على شمبليون وآينشتاين دون أن نقرأ باستفاضة في علوم اللغة والمصريات والفيزياء.
ولهذا فإن كتب "الآراء والنظريات" هي ترف سابق على أوانه. فمن العبث محاولة بناء ناطحات سحاب دون وضع أساسات قوية.
وأساساتنا المعرفية ضعيفة، ومعرفتنا بالثقافة سطحية ومجرد قشور.
ما نحتاجه هو المعلومات والحقائق Facts، لا مقالات الرأي.
***

سيلاحظ القارئ لهذا الكتاب أن التفكير الباطني يقوم على أفكار أساسية، منها فكرة "الخلاص بالمعرفة" وفكرة "تأليه الإنسان".
فأتباع الفكر الباطني عبر العصور يؤمنون أن سبيل النجاة يكون بالحصول على "معرفة سرية" معينة.. وأن معرفتهم بها تجعلهم النخبة، المختلفين عن باقي الناس.
ويؤمنون أن الإنسان إله نفسه، أو أنه جزء من الإله، أو أن البشر سيتطورون ويرتقون حتى يصلوا في النهاية إلى أن يحصلوا على قدرات إلهية.
يشترك في الإيمان بهذه الفكرة طوائف تبدو في الظاهر متباعدة جدا ومتباينة، كسحرة القبالا القدماء وبعض أتباع العلم الحديث الساعي لـ "ترقية" الإنسان بحيث يصير سوبر إنسان.
(كما تسعى أبحاث الـ Trans-humanism على سبيل المثال، حين تتمنى أن تنجح في دمج الآلات بجسم الإنسان، لتحسين قدراته وإطالة حياته. والمدوّن Aaron Franz ممن يتابعون هذا الموضوع منذ سنوات، وله كتاب عنه عنوانه Revolve: Man’s Scientific Rise to Godhood)
والفلاسفة والعلمانيون يشتركون أيضا في نفس الفكرة.
فيريدون أن يتوصلوا للمعايير الأخلاقية باستخدام "عقلهم" ومنطقهم، لا باتباع وحي سماوي.
ويريدون أن يضعوا القوانين التي تحكمهم، لا أن يتلقوها كتشريعات ربانية يأتي بها رسول.

وبعض الباطنية يرى نفسه في حالة صراع ومنافسة مع الإله.
فيرون أنفسهم كبروميثيوس، يتمرد على زيوس ويسرق شعلة المعرفة..
وكالنمرود، يريد أن يبني برجا لا يستطيع الطوفان الرباني أن يغرقه..
وكالخيميائي الذي يريد خلق الذهب كما يخلقه الإله..
وكالمنجم الذي يريد معرفة الغيب الذي يعرفه الإله..
وكالغنوصي الذي يريد أن يهرب من العالم الذي خلقه الديميإرج، وأن ينتصر على أركوناته..
وكـ نيو الذي يريد الانتصار على عملاء الماتريكس..
وكاليهودي القبالي الذي يريد أن يخلق عجلا من العدم ثم يأكله، أو أن يخلق جولم كما خلق الإله الإنسان..
وكدكتور فرانكنشتاين الذي يريد بث الروح في جسد ميت.

وباختصار، يريدون أن يقول الإله عنهم: "ها هو الإنسان قد صار كواحد منا.. عارفا الخير والشر"

***

خلال التحضير لهذا الكتاب تجمعت عندي أمثلة كثيرة لأفكار باطنية مبثوثة في أعمال قديمة وحديثة.. ولم أستطع دمجها في متن الكتاب لسبب أو لآخر.
منها على سبيل المثال تعليق الغنوصيين على قصة آدم المذكورة في التوراة، وهو التعليق الذي وصلنا ضمن أحد نصوص مخطوطات نجع حمادي، والمعروف باسم (شهادة الحق The Testimony of Truth)
(والتعليق يبدأ في "الإصحاح" 18 من النص، بجملة "What sort is this God?". وقد ترجمه للعربية إبراهيم الطرزي ضمن ما ترجمه من نصوص غنوصية، لكنها ترجمة ضعيفة)

ومنها أمثلة تثير الدهشة، لأنها ظهرت في أعمال حديثة هي أبعد ما تكون عن الاهتمام بالفلسفة والأديان، كفيلم المتحولين Transformers: Age of Extinction على سبيل المثال!
إذ ينتهي الفيلم بطيران أوبتيموس برايم في الفضاء، وهو يطلق رسالة تهديد للكائنات العلوية التي خلقته ثم أرادت تدميره:

"هناك أسرار بالكون غير مقدر لنا أن نحلها.. لكن "من نحن؟" و"ما الهدف من وجودنا؟" ليس من ضمن هذه الأسرار.
فهذه الإجابات نحملها داخلنا.
أنا أوبتيموس برايم، وهذه الرسالة موجهة لمن خلقوني: اتركوا الأرض في حالها، لأني قادم إليكم"
وهذا يدل على أن الأفكار الباطنية منتشرة في الغرب، وليست مقتصرة على الأعمال الغنوصية الواضحة كالماتريكس.
ولو تتبعت الأفكار الغنوصية والباطنية في الأعمال الفنية لطال الكتاب جدا.
ففكرة أن هناك "قوى عليا" تخدع العالم بالأوهام هي فكرة منتشرة بين المؤلفين الغربيين المعادين للأديان.. يمكن أن تجدها مثلا في مسلسل إذاعي بريطاني مغمور مثل EarthSearch ، أو في فيلم أمريكي ذي ميزانية ضخمة وبطولة توم كروز مثل Oblivion.
***
قبل تأليف هذا الكتاب بسنوات كنت أجهز لمشروع آخر.. موسوعة عن نظريات المؤامرة الغربية تقوم بـ "غربلة" النظريات والفصل بين الآراء الصحيحة والسقيمة.
ثم أعرضت تماما عن الموضوع عندما اتضح لي أنه أمر لا يساوي الجهد المبذول فيه.
فالمشكلة ليست في النظريات فقط، بل في أتباعها. فمهما حاولت توصيل المعلومة الصحيحة لهم فسينحرفون بها في النهاية نحو شيء وهمي خرافي كعادتهم!
هذه الفئة المهووسة بالمؤامرات لا تبحث عن الحقيقة كما يظن أفرادها، بل يبحثون عن تسلية (بالمعنى الشائع للكلمة: "ترفيه"، وبمعنى: "نسيان الهم")

فعلى سبيل المثال، بدلا من دراسة أسباب ونتائج الثورة الأمريكية ودور الرئيس جورج واشنطن في إقامة الإمبراطورية الأمريكية الحالية، نجدهم يضيعون جهودهم في بحث نظرية "هل قام آدم وايزهاوبت، المؤسس الرسمي لجماعة الإيلوميناتي المتنورين، بانتحال شخصية واشنطن، للشبه بينهما، وحكم الولايات المتحدة بدلا منه في السر؟"!
فيجمعون بين الوهم العبثي وبين إيجاد متنفس لعجزهم عن منافسة العلو الأمريكي.
ونفس الشيء في نظرية بعضهم عن أن ملكة بريطانيا هي في الحقيقة من الزواحف الشيطانية المتنكرة في شكل إنسان!
أو نظريتهم عن أن الدجال خرج فعلا وأنه يحكم العالم الآن في السر!

إن أصحاب هذه النظريات "العبقرية" يرفضون قراءة الكتب العلمية والتاريخية المتعارف عليها بين المتخصصين، ويفضلون نظرية "الأرض المسطحة"، وقصص الكائنات الفضائية.
يميلون لمن يقول لهم أن تكنولوجيا أمريكا السرية تتحكم في العواصف والزلازل والأمطار، وأن البشر لم يصعدوا للقمر في الـ 6 مرات المعروفة، وأن الهولوكوست لم يحدث.
***
وبعضهم يستورد النظريات الشعبية الغربية، والتي لا تمسنا بشكل مباشر، ثم ينشغل بها.
فما يهمنا مثلا من معرفة القاتل الحقيقي لجون كينيدي؟!
نعم هي مسألة غامضة ومحاطة بكم هائل من الأكاذيب الحكومية والصراع الخفي على السلطة من وراء الستار في تلك الفترة، لكنها أولا وأخيرا تهم المواطن الأمريكي لا المواطن العربي المسلم.
حتى القضايا الأمريكية المتصلة بالعرب بشكل ما، كقضية اغتيال الفلسطيني المسيحي سرحان بشارة سرحان لروبرت كينيدي (أخو الرئيس، وكان مرشحا للرئاسة) تحت تأثير التنويم المغناطيسي، فنحن فيها عالة على المقالات والكتب الأمريكية المعاصرة للحادث، وقدرتنا على التأثير في القضية - أو على سبيل المثال تبرئة سرحان المسجون حاليا - محدودة للغاية.

مثال آخر: ماذا لو نجحت في جمع أدلة لا تدع مجالا للشك في أن مسرحيات شكسبير كتبها في الحقيقة أحد أفراد البلاط الملكي، فرنسيس بيكون، تحت اسم مستعار، كي يحفظ مكانته الاجتماعية ولا يخلطها بفئة الممثلين المحتقرة مجتمعيا وقتها؟
ما النفع العائد على القارئ المسلم من هذا الموضوع التاريخي الأدبي البريطاني؟!
كم قارئ عربي يقرأ نصوص شيكسبير الأصلية أساسا؟!
لو أراد الباحث فعلا كشف حقيقة شخصية تاريخية تحيطها هالة زائفة، فليوجه جهوده لدراسة ابن سينا مثلا وأثر أفكاره الباطنية على المجتمع الإسلامي!

أما المهووسون بالمؤامرة فيفضلون تمضية الوقت في جمع صور الشخصيات السياسية الشهيرة التي تشير بيدها بعلامة "القرنين"، (والتي تسمى في موسيقى الروك أند رول "قرون الشيطان Devil's Horns"، وتعتبر شعارا شعبيا عند سكان ولاية تكساس، المشهورة بتربية الماشية ورعاة البقر) لأنهم يظنونها علامة شيطانية سرية بين "المتآمرين المتحكمين في العالم"!
ما يقوم به هؤلاء هو محاولة إيجاد تبرير بسيط وساذج للأحداث العالمية. فجورج بوش الأب وجورج بوش الابن، كلاهما كان يعمل في تكساس وكلاهما احتل العراق وقتل أهلها وسرق ثرواتها.. لكن بالتأكيد لن يكون الطريق لفهم دوافعهما هو جمع صور لهما وهما يشيران للجماهير برمز الولاية أثناء حملة انتخابية!
فهذا التبسيط المخل يجعل أتباع نظريات المؤامرة أضحوكة ولا شك.
***
بالإضافة لخلل طريقتهم في التفكير، فإن المصابين بهوس نظريات المؤامرة تنتشر بينهم المعلومات المغلوطة و"أنصاف الحقائق"..
ولهذا تأتي نظرياتهم وأدلتها بعيدة عن السياق الحقيقي الواقعي.
فنجد مثلا أن أحد المسلمات عندهم، والتي يتفقون جميعا عليها، هي أن "النظام العالمي الجديد New World Order" هي كلمة شيطانية ماسونية ترمز لمؤامرة إخضاع العالم كله تحت حكومة واحدة عالمية. وأنه لهذا السبب الكلمة مكتوبة على الدولار الأمريكي، وصرح بها بوش الأب في إحدى خطبه.
أما الحقيقة فمختلفة عن ظنونهم هذه.
الجملة المكتوبة باللاتينية على الدولار هي "نوفوس أوردو سيكلورم"، وهي جزء من الأدب اللاتيني (ملحمة إنيادة فيرجيل)، وتعني "ترتيب جديد للعصور".
ومعناها في سياق التاريخ الأمريكي واضح وبسيط جدا، لو كانوا يعقلون.
فالثورة الأمريكية على الملك جورج البريطاني 1776 كانت تعلن أنها **نظام سياسي جديد** يختلف عما ألفته أوروبا لقرون طويلة.. أي تحول من الملكية إلى الجمهورية، مع استلهام أفكار الإغريق القديمة عن جمهورية أثينا.
وفوق هذه الجملة توجد جملة أخرى ترجمتها هي "هو بارك مساعينا". وهي تعكس المشاعر الأمريكية بعد نجاح الثورة واستقلال أمريكا عن بريطانيا.. حيث ساد شعور عام أن المشروع السياسي نجح بمباركة الرب، وأن العناية الإلهية كانت ظاهرة في انتصار الجيش الأمريكي على الجيش البريطاني.
أما مهاويس المؤامرة في الغرب والشرق فلم يستطيعوا ترجمة هذه الجمل ولا فهموا سياقها التاريخي، فظنوا أنها تقول: "إعلان قدوم.. النظام العالمي الجديد"!

أما النظام العالمي الجديد الذي كان يقصده بوش الأب في خطبته في أوائل التسعينيات، فسياقه واضح ومعروف. وهو سياق انتصار أمريكا في الحرب الباردة ضد الاتحاد السوفييتي الشيوعي الذي انهار بعد فشله في احتلال أفغانستان في الثمانينيات، وبعد فشل النظرية الماركسية الإلحادية عند التطبيق العملي.
فظل العالم لعشرات السنين مقسوما بين كتلة شرقية تابعة للروس وكتلة غربية تابعة

لأمريكا وأوروبا، في تذبذب بين "قطبين عالميين"، كلاهما يستغل أتباعه في حروب بالوكالة، عن بعد، دون أن يخاطر بمواجهة علنية نووية شاملة.
ولما انهار السوفييت كانت خطبة بوش تدعو لنظام مختلف عن نظام القطبين، نظام عالمي جديد يسمح للجميع بالمشاركة.. وهي خطبة فارغة كعادة خطب السياسيين، تبيع الوهم بكلمات براقة وتحاول إخفاء الميول الاستعمارية الأمريكية المعروفة..
لكنها ليست "إشارة لمؤامرة خفية" كما يظن أتباع التفكير التآمري.
***
من أسباب صرف النظر عن فكرة موسوعة نظريات المؤامرة هو ما رأيته - بالتعامل المباشر مع نوعية المهتمين بهذه الأمور - من عجزهم عن التفريق بين الغث والسمين.
فلو طرحت أمامهم بعض النظريات بتوسع، لنقدها، فلربما وقعوا في فتنتها وصدقوها!..
وبالتالي أفسدت من حيث أردت الإصلاح.
مصادر وكتب نظريات المؤامرة تشبه حقل الألغام، يجب عبورها بحرص شديد. وتحتاج تنقية، ووزن لكلماتها بحكمة ووعي قبل اعتمادها كمصدر.
أما ما يفعله أتباع نظرية المؤامرة فهو تحكيم الهوى الشخصي فيما يقرؤون، فيقبلون أو يرفضون بناء على أسباب طفولية لا تمت لعالم العقلاء بصلة.
ونوعية كهذه لا فائدة من مخاطبتها بكتاب.
وقد وصل الأمر بأحدهم أن نشر رسالة عنوانها "مسيرة المسيري في الدفاع عن اليهود"، لأن المسيري يصف بروتوكولات صهيون بأنها وثيقة مزورة وغير يهودية، ويصف الشعوب العربية بالتهويل والمبالغة جدا في قوة اللوبي الصهيوني.
***
كان "ميلتون ويليام كوبر" من أهم الباحثين المعتدلين في نظريات المؤامرة، واستمر لسنوات في تقديم برنامج إذاعي شهير.. وانتهت حياته بالقتل على يد مارشال أمريكي، بعد 11 سبتمبر 2001 بأيام. ذهب لمنزله بحجة امتناع كوبر عن دفع الضرائب، فحدث تبادل إطلاق نار وتم قتل كوبر.
أما "فريتز سبرينجماير" فهو باحث متخصص في تاريخ الجماعات السرية ويعتبر المرجعية في التعامل مع ضحايا "التحكم بالعقول" واضطراب الشخصية التفكيكي D.I.D ، وتم سجنه لسنوات بتهمة ملفقة في قضية سرقة مسلحة.
أما "ألان وات" فهو باحث إسكتلندي يعيش في كندا، متخصص في دراسة التغيرات الاجتماعية والاقتصادية، ودور الحكومات في إحداثها عمدا عبر التاريخ.
هؤلاء الثلاثة هم أفضل الموجود في مجال نظريات المؤامرة الأمريكية، ومع ذلك لا أنصح بتلقي أفكارهم ولا معاملة كتاباتهم كحقائق!
فالأول اعترف أنه أثناء خدمته في الجيش الأمريكي كان يتم خداعه واستغلاله لتمرير نظريات عن "معاهدة سرية بين الحكومة والفضائيين"! ولم يكتشف إلا فيما بعد أن المستندات والتجارب التي رآها هي محض تلفيق وتزوير غرضه صرف النظر عن عمليات الجيش ومعداته الحقيقة، وإشغال البلهاء في أوهام تضخم من قدرة الحكومة وتنشر الرهبة منها.
والثاني من دعاة التنصير، ومر خلال حياته بجماعات وطوائف أخرى ذات معتقدات غريبة، فأثرت في أفكاره.
والثالث يبني أفكاره على قواعد إلحادية مادية بحتة، ويرى أنه لا فائدة من أي مقاومة.
وحواراته مليئة بالسلبية وتدعو للكآبة.
فإذا كان هذا هو حال "أفضل الموجود"، فما بالك بالباقي؟!
الباقي هم من نوعية Manly Hall وكتابه المحبب لمواقع نظريات المؤامرة على الإنترنت The Secret Teachings of All Ages الذي كتبه في شبابه، منذ حوالي المائة سنة، ثم انضم لمحفل سان فرنسيسكو الماسوني وترقى فيه بشكل رسمي إلى أن وصل للدرجة الـ 33 العليا.

مشكلة هذا الكتاب "الموسوعي" هي أنه بالإضافة لما فيه من حقائق قليلة فهو محشو بالأكاذيب والمعلومات الناقصة التي أثبت التراكم المعرفي خطأها. بالإضافة إلى أن المؤلف يكتب من منظور باطني مؤمن بعقائدهم، وبالتالي يقدمها في صورة غير محايدة. فأي اقتباس منه أو اعتماد عليه هو دليل على الاستهتار التام بقواعد الدقة والأمانة العلمية.

***

كما كان الإنترنت خيرا على البشرية بتوفير معلومات وكتب كانت غير متوفرة للجمهور في السابق، وتيسير التواصل بين العقول المتشابهة، فقد كان شرا على البشرية لنفس الأسباب!

فطوفان المعلومات يحمل الغثاء كما يحمل الماء. ويؤدي للغرق كما أنه يروي العطش.

وإذا كان عقل المرء فارغا وصفرا، فتواصله مع مليون من نفس نوعيته لن يؤدي إلا إلى تراكم الأصفار.

وهذا هو الحال في أغلب مواقع الإنترنت والمنتديات وفيديوهات اليوتيوب المهتمة بالنظريات التآمرية.

وأغلبهم عرضة للوقوع في مصيدة محبي الشهرة من أمثال "أليكس جونز"، الذي يجمع تبرعات بالملايين لتمويل امبراطوريته الإعلامية، وينشر اليأس والأوهام، ويخيف متابعيه بتهويل أخبار الأوبئة والكوارث الاقتصادية يوميا.

ولما كان أتباع هذه النظريات هم الجمهور المتوقع أن يهتم بكتاب عن المؤامرات ونظرياتها، فقد فقدت الاهتمام بنشر كتاب كهذا.

***

معرفتي بعقلية أتباع نظريات المؤامرة عائدة إلى حقيقة بسيطة، هي أني كنت واحدا منهم فيما مضى!

كنت أقرأ لـ وليم جاي كار وEustace Mullins و David Livingstone ، وأعامل "بروتوكولات صهيون" على أنها وثيقة حقيقية، دون أن أدري أن تزويرها مثبت علميا منذ 90 سنة!

لم أكن أدرك وقتها أن نظريات المؤامرة هي "أفيون الشعوب".

تبرير لفشلهم بإلقاء التبعة على "الآخر".

فإن شعر العمال الحرفيون في أمريكا بالفشل في مواكبة الصناعات الحديثة، على سبيل المثال، فإن التبرير المفضل عندهم هو أن الأغنياء يتآمرون عليهم بالتعاون مع الصين.

وإن شعر السود بأنهم أقلية فقيرة ومتأخرة، فإنهم يلقون بالمسؤولية على الرجل الأبيض، ويقولون أنه "يتآمر عليهم".

وإن شعر المتدينون في أمريكا بأن الشباب ينحرف عن الدين ويميل للمجون، فإن التبرير المفضل عندهم هو وجود جماعة سرية تنشر الإباحية لأنها متحالفة مع الشيطان! ويرفضون دراسة الأسباب الاجتماعية والثقافية لظاهرة الانحراف عن الدين.

وبالإضافة لهذا، فإن نظريات المؤامرة مرتبطة بالنظرة الدونية للنفس. فهي تجعل "الآخرين" هم العباقرة و"نحن" لا شيء.

وبالتالي تساهم في نشر الهزيمة النفسية، والسلبية، والنظرة السوداوية.. وتجعل الشخص مصابا بـ بارانويا حادة ومزمنة، ويشعر أن هناك "قوى خفية" تضطهده.

وقد اتضح لي أيضا أن التفكير التآمري هو تفكير غنوصي في الحقيقة!

فأتباعه يؤمنون أن العالم الذين يعيشون فيه هو عالم وهمي، تتحكم فيه قوى خفية تسيطر على كل الأخبار والاختراعات وتحجب الحقيقة عن الناس.

ويؤمنون أنهم نالوا المعرفة وصاروا يفهمون "الحقيقة المخفية". وهذا التفكير يشبه التفكير الغنوصي بدرجة كبيرة، بل ويعطي لليهود حجما أكبر من حجمهم الحقيقي بكثير.

فالتخلف والانهزام سببهما أفعالنا وأفكارنا في المقام الأول.. وعلينا كعرب أن نتحلى

بالشجاعة وأن نعترف بهذا.
علينا أن نصبح واقعيين كما كان أجدادنا.. وأن نتوقف عن لوم العالم، وعن تعليق تدهورنا على شماعة الآخرين.

مصادر ومراجع

- القرآن
- صحيح البخاري وصحيح مسلم، والسلسلة الصحيحة للألباني
- التوراة، (ترجمات متعددة، إنجليزية وعربية)
- موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، عبد الوهاب المسيري
- قصة الحضارة (الأصل الإنجليزي والترجمة العربية)، وِل ديورانت
- التفاسير
(ابن كثير - القرطبي - المودودي - ابن عاشور)
- مجموع الفتاوى، ابن تيمية
- نصوص نجع حمادي الغنوصية The Nag Hammadi Library، تحرير James M Robinson
- أفلاطون Plato's Complete Works
- التلمود، الترجمة الإنجليزية The Soncino Babylonian Talmud
- الزوهار، Sefer Zohar, Soncino Edition
- تاريخ يوسيفوس، The Antiquities of The Jews, Flavius Josephus
- الموسوعة اليهودية، JewishEncyclopedia.com
- تاريخ الإسلام، الذهبي
- الكامل في التاريخ، ابن الأثير
- البداية والنهاية، ابن كثير
- كتب المقريزي
(المواعظ والاعتبار - اتعاظ الحنفاء – السلوك)
- مقدمة ابن خلدون
- كتب الفِرَق
(ابن حزم: الفِصَل في المِلَل والأهواء والنِحَل – البغدادي: الفرق بين الفرق – الشهرستاني: الملل والنحل)
- فضائح الباطنية، أبو حامد الغزالي
- دروس عبد العزيز الراجحي في العقيدة
- كتب ابن عربي
(الفتوحات المكية – فصوص الحِكَم)
- كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، حاجي خليفة
- عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ابن أبي أصيبعة
- إخبار العلماء بأخبار الحكماء، القفطي
- تنبيه الغبي، البقاعي، تحقيق: عبد الرحمن الوكيل
- كتب ومقالات د/ فوز بنت عبد اللطيف كردي
- برمجيات
كتب المكتبة الشاملة Shamela الإلكترونية، ومكتبة الملتقى MoltaqaLib، وبرنامج Davar
(والكتاب مكتوب باستخدام برمجيات مفتوحة المصدر للجميع وحرة، لا مقرصنة: نظام تشغيل Linux بدلا من مايكروسوفت ويندوز، حزمة LibreOffice المكتبية بدلا من مايكروسوفت وورد، والرسوم بـ Inkscape و Gimp)